الخطيئة

نسرين بلوط

الفصل الأول

سرحت بمخيلّتها بعيداً ويداها معقودتان على صدرها.. تكاد تنتفض على قبس من نور يتسلّلُ إليها من خلال ثقبٍ في نافذةِ الدير، يسمّيه البعض بصيصاً وتسمّيه هي رحمة تغمر أطياف روحها وتستريح إلى معانيه التي ترزح وراء الإيمان الربّاني الذي يحتلُّ كلَّ روحها وما تبقّى من جسدها الصغير النحيل وينتفض بنشوة السلام الذي لم تأنس إليه إلّا بعد نأيها عن هذا العالم الكبير إلى عالمها الصغير هذا في الدير حيث الطمأنينة والسكينة..حيث الآلام لا تشبه معناها بل ترتقي إلى آلام المسيح الذي تكبّد البلاء حتى يحرّرَ النفوس التائهة.

كم مضى عليها في هذا الدير؟ إنّها سنوات طويلة لم تحصها إلّا قليلاً..فقد خرجت منه ورجعت إليه أكثر من مرة وقاومت وهي في داخله سحر العالم الخارجي الذي يشدّها إليه بجنونه وصخبه.. وعادت إليه نادمة خاشعة بعد أن زلّت قدمها في آتون الخطيئة.

"إليكَ يا يسوع أرفع دعائي فاغمرني برحمة الكون الذي لم يخلق إلا ليتمجّدَ بإسمك ويتمرّغَ بنورك..بإسمك أرفع صليبي وأحبس دموعي في قمقم الأحزان وأطلب الغفران".

هذا هو دعاؤها الصباحي تكاد ترسمه خريطة لنهارها وتحتمي به ملاذاً من ذكرياتها الصاخبة كموج البحر يرتطم بصخر القسوة.

إنّه سكنٌ للراهبات بمثابة دير للنسك تابعة لدير مار أنطونيوس الكبير المشرف على جبل "الباروك" شمال لبنان.. ويتّكئ بساعده على سفح جبل عالٍ بدوره ويقبعُ فوق هضبة عالية تُسّمى "سير"..وهو مطليٌّ باللون الأبيض النقي تحدّه من الشمال أحراج الصنوبر ومن اليمين ينابيعُ متدفّقة تشبه بتدفّقها الجارف ذكرياتها التي تتواطأ عليها في كل حين وتدقُّ جرس الأسى لها ممتزجة بطعم الخيبة..وفيه انعكاسُ ظلالٍ لسكينةٍ لطالما تاقت إليها وطعمٌ للوحدة تتشوقّها لتخفي ماضيها.

وعند أقدامهِ يرتمي وادي الصفا وتنحدر وتعلو قرى عديدة تتلألأ كالنجوم الثاقبة في السماء أو تومضُ كالأحجار النادرة على الأرض..وقرية رشميا الّتي يطلّ عليها ترتسمُ في كفّه بينابيعها التي لا تكادُ تُحصى وأشجار السنديان..

ولهذا الدير حكايا وأساطير وتاريخ لا يُنسى..ففيما مضى كان معبداً للفينيقيين حيث اتّخذوه قلعة يحمون أصنامهم ويعبدونها فيه..ثمّ ما لبث أن تحوّل أيّام عهد الرومان إلى قصرٍ للملوك وحصنٍ لجنودهم وكان فيه خنادق عميقة للأسرى والمجرمين.. وقد شهد إقامة الأمير بشير الثاني فيه لفترةٍ من الزمن وكانت زيارةُ النساء تُمنع في ذاك الدير..وتصدّعت جدرانه ونُهبت أروقته ومقتنياته في أحداث المجازر الأخيرة عام 1860.

أين هو نهر البردوني ليخترق بعنقه الممتدّ عبر الغابات تضاريس الدروب ويلوح في السفح الشرقي لجبل صنين الأبيّ ويمعن تقدّماً بثبات فيأنس إليه الإنس والجن ويهرع لظلّه رعاة الغنم الذين تلاحقهم الشمس بلظاها ويلهو في أفيائه الصغار يشاكسون بعضهم بعضاً ويغرفون من نُدَبِ مياهه العذبة ما يطفئُ لهيب الحرّ ويتناجى على صدى خرير مائه العشاق الذين أنهكهم البعد ثم يجعل من مدينة

زحلة مستقرّه الأخير كأنه العائد بعد طول سفر يلقي رأسه في حضن أمه ويصبّ رحاله في نهر الليطاني أخيراً..

إنّ لصوته في قرارة نفسها مرارة لا تُحكى لذكريات تتوغّل حيث الكهوف المنتثرة على مسافة قريبة منه..وللكهوف تلك حكايةٌ طويلةٌ بل هي أصلُ حكايتها..ومنبتُ أحداثها..في الإنجيل وردت قصّةُ "السبعة النائمون" في فترة حكم ديقيانوس وظلال طغيانه الدامية وكان الكهف مركز تلك القصّة ومثار أحداثها حيث التجأ الفتيان السبعة إليه ليخفض لهم جناح الأمان.. أمّا هي فقد كان كهفها الذي التجأت إليه وكرَ الأحزان ومبعثها...

"الأخت ميرا..هل أنت بخير؟"

جاءها صوت الأخت "زلفا" من ورائها وهي متسمّرة أمام النافذة يقطر من عينيها الدمع تماماً كهذا الرذاذ المتناثر على بلور النافذة يسري في جوف الطبيعة ملتاعاً برحيق التعب...فردّت من فورها:

"لا شيءَ أختاه.. كنتُ أصلّي فقط"

نعم هي تصلّي دائماً.. تصلّي للنور والظلام معاً..للخطيئة والغفران..لأنّها عاشت حياتين متناقضتين..جعلا منها ملاكاً وشيطاناً في فترة ما.. وربّما في زمنٍ ما.. فقد مرت السنون كخطف البرق ولم تترك لها سوى أشباحاً تتراقص في مخيلتها لأناس عاشوا ورحلوا أو عاشوا وابتعدوا..

عادت للرقص على مذبح الذكرى بعد أن سمعت وقع خطوات الأخت زلفا تبتعدُ عنها احتراماً لخلوتها..استحضرت طيفه وهي تُطبق بجفنيها على بساطِ حدقتيها..

واستسلمت لغيبوبة اليقظة وقد تربّعت على شفتيها ابتسامة أنهكها الترحالُ في الماضي..

تساءلت إن كان ما زال يذكرها أم أنّه طواها كما طوى أيّ حدث جمعه بها وكما نثرَ رماد ذكرياتهما معاً في الهواء يوم أضرم النيران فيها..وعلى مرأى منها وكأنّه يريد أن يحرقها هي بكلتا يديه وبكلِّ جوراحه.

"عابد..لمَ أتيت ولمَ انتهيت؟".. نطقت في خاطرها وهي تشعر بأحشائها تتقطّع من هول الذكرى وبأنها تكاد تشقّ ثوبها وتمعن أنيناً ونحيباً على حبٍّ خالته وقتها منتهى آمالها.

لم يكن الذي جرى هو كلّ الحكاية بل كان جزءاً منها.. إنّ جثّةَ الحبِّ لا تنضح بالنور كجثث القدّيسين بل هي تعود للحياة في كلّ حين كما فعل المسيح عندما اختار الموت بمشيئته ليحرّر العالم من أتون الخطايا ثم اختار الحياة ليفرض مشيئة الإعجاز في الكون من حوله..

لم تكن قصّتها عادية ولا محكيّة.. فقد كانت غريبة وظلّت سرّية.. لم يتطرّق إليها أحد إلا هو وهي..

أين هو؟ أما زال يذكرها؟ أوَ ما زال طيفها يتراقص أمام عينيه على ضوء المصباح كما كان يبوح لها في الماضي؟ هل طَمَسَها في سِفْرِ راحتيه كشريانٍ انقضى عهده فتفرّغت راحته للشرايين الأخرى حتى تقرأَ لها مستقبلها القادم؟ ..

لم يكن لقاؤهما وليد الصدفة المحضة بل كان مقدّراً من السماء حتى يرتسم في الكون عبرة وتضحية وإخلاصاً لن ينتهي إلا بموتها هي.

عابد.. سرٌّ في عينيه السوداوين شدّها إليهما.. خاطرٌ من مطر عرّب لها ما هو مخفياً عنها في لغة الحب السريانية القديمة..

" فليتمجّد اسمك أيها الرب دائماً".. تمتمت بشفاه مضرمة بنار الشوق مضطربة بحسٍّ من الإيمان يجتاحها عندما تفكّرُ بغيرٍ يسوع المخلص..

لقد عاهدت الربَّ بأن تنزوي في صلواتها له وحده وتسكنُ لإيقاع اسمه ولا يغرّها كلُّ ما يدور في الخارج.. ولكنّ الذكريات تلحّ عليها إلحاحَ الأمر المبرم الذي لا منأى منه فتعود لها بامتثال.

لا ضرر إن تذكّرت ماضيها فليس فيه ما يشين حقاً..

"أحقّاً؟؟ أحقّاً يا ميرا؟" سمعت صوت نفسها فارتعشت وقد دبّت رجفة في أوصالها جعلتها تتراجع قليلاً إلى الوراء..

المسيح لم يتذكّر ما لحقه به أعداؤه من سوء ولم يحقد بل عمّ الكونَ بغفرانٍ مجيد.. فلماذا لا تنسى وتغفر لنفسها ولمن حولها ؟

صحيحٌ أنّها خاطئة ولكنَّ الأصح بأنّها تائبة.. والتائب لا يُسأل عن متاهات الظلمات يحرّكها شيطان العتمة بل يُسأل عن أناشيد النور يرتّلها رسول الضياء..وسواء كانت خاطئة أم تائبة فهي بشر والبشرُ ليسوا من الملائكة..

بطرس هو وحده الملاك الشيطان.. القويُّ الضعيف.. الذي لعب بالجميع وضجّ الجميع هتافاً وصراخاً له..

هناك ضجيجٌ يجزُّ رأسها وأصواتُ ثائرين..وأحصنة تركض.. ودماء تتطاير.. وحقد يفور في أواني الأرواح الساخطة.. وخناجر متّقدة بأنين القسوة وردح الظلام..وعهود تتوالى كعناقيد الحنق وتعبر في مخيّلتها عبوراً سريعاً..وعابد

يتمثّل لها بهامته الشامخة ضاحكاً ساخراً.. مهلاً؟.. هل هي تحلم..؟ هو حلم اليقظة بلا شك.. حلم حدث وليته لم يحدث.. إنّ معظم الأحلام تعانق النوم حتى لا تؤذيها جلبة الصحو..فلتحلم حلم اليقظة لأنه يردّها إلى ماض سحيق..سحيق جدّاً..وبعيد حدّ اللاوعي..

الفصل الثاني

في مدينة زحلة المعلّقة على أكتاف جبل صنين والتي تشرف على وادٍ سحيق يهدهد بين ذراعيه نهر البردوني الشهير وتتأرجح معه كلؤلؤة زمردية تخلد للسكينة..وفي أعلاها يتوهّج معبد للإله زحل الذي يذر التربة والحياة..والذي آمن به الكثيرون قبل زمنها بزمن طويل..وخلّدوه إلى الأبد..

ولدت لعائلة أرستقراطية غنيّة مُترفة بالمال والنسب..ولم تكن تشكو من فاقة أو ضيم.. كان والدها رجلاً تقيّاً من آل شاور يملك أراضي كثيرة كعادة الأغنياء الإقطاعيين الذين ينتمون للطبقة الأولى من المجتمع ولكنّهم بالطبع يتبعون نفوذ ولاة الأقاليم وهم جميعاً امتداد لظلّ سلطان الآستانة..أرادوا هذا أم لا فالإرادة هنا مسلوبة والطاعة واجبة.

وكانت أمّها سيّدة وقورة تُدعى مروى وهي ابنة عم والدها..تشاركه الطبقة نفسها والحسب والنسب.. متديّنة، جميلة، تغرق دائماً في صمتٍ كثيف وكأنّها تحيط نفسها بهالة من الغموض تزيدها جمالاً..

وكانت تأخذها الى كنيسة سيدة الزلزلة، والتي تعتبر أول كنيسة شيّدت في أوائل القرن الثامن عشر كلّ أحد لترتّل صلواتها وتعود إلى بيتها باسمة وافرة الغبطة براحة الإيمان..

وقد فتحت عينيها على هذه الدنيا في قصر كبير مستقلّ عن منزل العائلة الكبير.فوالداها لا يعيشان مع جدّها وجدّتها كما جرت العادات في القرية مع أغلب العائلات الإقطاعية لأنّ أبيها كان وحيد أبويه بعد موت أو بالأحرى انتحار

شقيقته سعدى والتي سنأتي لاحقاً على ذكرها وقد رحلا هما أيضاً قبل زواجه، وخلفا له قصراً كبيراً بحدائق خلّابة معشوشبة تنضح بمعالم الاخضرار البديع وأراضي وافرة الخصوبة تتمادى في الأفق كالوشاح الخارق..وحسباً رفيعاً ومالاً كثيرا..وأعماماً وأقارب يمتازون بالطبع بما يمتاز به هو من ثراء ومجد وعزٍّ وقوّة.

ونشأت نشأة كريمة في حضن السلطة والجاه.. أينما تمرّ ينهال عليها الدعاء الذي ترغو به حناجر أهل القرية..وتسير إلى جانب والدها كأنّها ابنة سلطان حقيقي تموج الأرض لوقع قدميه ويسبّب جلبة عامرة في كل خطوة يخطوها فيسارع معظمهم إلى تقبيل يديه..وكانت الدعوات تُقسم على طرفين ..فأمّا الفلاحون الفقراء الّذين يعملون عنده، فيفترشون له الأرض بالابتهال لكرمه فيصدحون بصوت عال تكادُ تنسابُ من أثر حسّه الدموع: "احتراماتنا يا بيك..على رأسنا من فوق".. وأمّا الفلاحون الميسرون الذين يمنحون آل شاور حصة من محصولهم كلّ عام، فيتودّدون إليه حدّ تبجيله وتفضيله على أنفسهم.. فتعجّ الأصواتُ لاهجة بالدعاء والشكر والامتنان من غير داعٍ في معظم الأحيان..."يا بيك يا بيك.. رضاك فقط هو ما نريده..يطوّل بعمرك يا بيك"..إلى ما هنالك من طيب الكلام وحلوه مع تدفّق لهجة الاحترام فيه.

ولم يرزق والداها بغيرها من الأولاد وخلق الأمر في نفسيهما حسرة فاهتمّا بها اهتماماً بلغ حدّ الغرابة..إذ كانت تمسك أمها بيدها كلّ صباح وهي ذاهبة إلى مدرستها وهي مدرسة لتعليم الإناث، وكان من حسن حظّها أنّ عام 1853 بمثابة فتح كبير للمدارس في لبنان حيث تبنّت جمعيتان من الراهبات وهما جمعية المريمات في بكفيا وجمعية قلب يسوع في معلقة زحلة فتح مدارس لتعليم الفتيات، وقد حظيت هي بهذا الشرف العظيم بسبب نسبها العريق ومالها الوفير

وتشجيع والديها لها بأن تلتحق بالمدرسة..فحتّى صديقتها راجحة والتي كانت تماثلها في الحسب والنسب لم يسمح لها أهلها بالذهاب إلى المدرسة.. وكان عمرها لا يتعدّى الحادية عشرة عندما كانت تسير مزهوّة وهي ترفل بثوب طويل أزرق وتحته سروال كحلي يتدلّى منه تطريز زهري خفيف..

وكانت تعشق المدرسة رغم ضآلة العلم المتوفّر فيها نظراً لما تعانيه البلاد من تقشّف اقتصادي وثقافي وحضاري..وتعشق الكلمات كالألوان تماماً فهي تتبدّل حسب تقلّبات الروح وتغرف من بحر الفكر والمعرفة ما وسعها حتّى تعرف الدنيا من منظار فلسفي بحت.

وقد تفوّقت في دراستها وفي دروس الدين خاصة.. فقد أحبّت الله.. أحبّته صغيرة وقبل أن توغل في كتب الدين..وقبل أن ترافق أمها إلى الكنيسة.. وسمعت نداءه في الغابات وفي حناجر سرب الطيور المهاجر في شهر أيلول وبين ضلوع الشجر وحنايا السماء .. وجلجل وقع اسمه في يقظتها وأحلامها.. إنّ المسلمين يقولون الله أكبر.. والمسيحيين يقولون باسم الصليب..إذن الله واحد هنا وهناك وفي كلِّ مكان.. فكيف بوسعها أن لا تعشقه هذا العشق اللامحدود وأن تصير أسيرة اشتياقه؟

هي تذكر جارة لهم وفدت من سوريا وتحديداً من حلب وسكنت مؤقتاً في مدينة زحلة لأسباب جهلها أهل المدينة مع أنّ التهامس كثر حولها.. وكانت مسلمة الانتماء لم تخرج من بيتها إلا لماماً حتى ذهبت بعض نساء القرية إلى اتّهامها بأنّها تتعاطى السحر وظنّ البعض الآخر منهنّ بأنّها جاسوسة تعمل لحساب العثمانيين..

وباتت قبلة للأنظار فخافت النساء منها على رجالهنّ وخاف الرجال منها على بناتهم وذهبت بعض العجائز حدّ لصق التهم فيها بأنهنّ شاهدن بأمّ عيونهنّ التي لا تكادُ تميّزُ النور من العتمة ومن ثقب الباب الذي لا يكاد يُرى بعض الرجال يتسامرون عندها ليلاً ويشربون الخمر...فكثر الغمز واللمز حولها وباتت قبلة للثرثارين والوشاة..

وعندما قرّرت هي وصديقاتها التجسُّسَ عليها من ثقبٍ صغير في النافذة، اخترنها هي لتقوم بتلك المهمة.. فعادت إليهنّ منحنية الرأس مقطَّبة الجبين دامعة العين خافضة الرموش ساكنة الحركة..وكنّ يلتهبن فضولاً لمعرفة ما رأت.. وبعد إلحاحهنّ المتواصل عليها حتى تتكلّم، قالت بخشوع بأنَّ الحلبية المسلمة كانت تصلي.. تركع إلى الله مبتهلة صاغرة والناس في الخارج يتناقلون أخبارها ويتّخذون من النميمة رحيق جلساتهم ومن الظنّ ونيسهم الدائم..

لم تبال صديقاتها بما حكت لهنّ وواصلن لعبهن كأن شيئاً لم يكن.. أما هي فركضت إلى الكنيسة وهرعت لتمثال المسيح لتطلب الغفران وتترك دموعها تطهّر آثامَ ظنّها بالآخرين. وبعد أن رحلت الجارة المسلمة عن المدينة سكتت الألسنة ونسي الناس أمر قدومها كما نسوا لحظة رحيلها إلا هي.. فقد كانت ذكراها تربطها بالله..

وعندما تعلّمت الكتابة كان أوّل ما فعلته هو أن كتبت رسائل إلى الله.. نعم رسائل تفيض حبّاً ووجلاً وقلقاً..كأنّها تناجي حبيباً ورفيقاً..

في الفجر، كان ابتهالها إليه فيضاً من الريحان ودعاؤها يتردّد في صدرها فتصلي وتقول: "صباحٌ يرقى لكفّ الخالق ليمجده في السماء السابعة...حيث

السكون والعدل...حيث الظلم يرتدُّ لذويه وحيث الروح تنصتُ لهمس الملائكة في غدير الحب"..

ولكنّ العدل في بلادها يُبكي الحجر فالغنيّ ظلٌّ للمحتلّ الغاشم والفقير يتبع الغنيَّ والأرض تثور من ثقل الغزاة المحتلين وتتلوّى تحت أقدام السادة وتبكي تحت معاول الفلاحين وهم يروونها بدل الماء من دمائهم فتشفق عليهم وترسم عروقها من تضاريسَ جسدها قارّة لآلامهم ونحيبهم الصامت..وتحتضنهم كأنهم أولادها الحقيقيّون.

والديانات المتعدّدة في بلدها لم تبقِ انصهاراً لوحدة إنسانيَّة تمثّل جميعها وجه الله بل سُيّسَت حتى تصبح الخنجر الذي يطعن به الأخ ظهر أخيه كما فعل قابيل بأخيه هابيل منذ بدء البشرية..ولم يكلّف نفسه بأن يداري سوأة أخيه بل ترك جثّته في العراء ..

لمّحت لهن الراهبة يوماً في درس الدين عن الديانات والطوائف الأخرى بشكل مبهم وعابر ولم تسهب في الشرح ولم تعرها التفاتاً عندما حاولت أن تخوض معها أكثر في الاستيضاح.. حتى في المدارس يتمّ التعتيم على هذا الموضوع كي لا تنتشر الفتنة بشكل أكبر..فكثيراً ما طرقت الفتنة أبواب اللبنانيين رغماً عنهم وبأمر من دول أجنبية أخرى وتشجيع من العثمانيين الذين كانوا يحتلّون البلاد بأسلوب الترهيب والتهويل.

إنّ الدين يحتاج للعقل. وفي بلدها أُلغي العقل لاعتبارات مذهبية بحتة فبات الناس عبيد الدين المذهبي لا الفطري فإمّا عبادة وإمّا إبادة.. ألم يقل المسيح في الإنجيل "لِتَكُنْ أَقْوَالُ فَمِي وفِكْرُ قَلْبِي مَرْضِيَّةً أَمَامَكَ يَا رَب، صَخْرَتِي وَوَلِيِّي"؟ المسيح

جاء ليفرض الدين بالمحبة والتسامح والعقل وليس ليفرضه بالقمع، بهدف النفور من الأديان الأخرى..

وخلال ذهابها وإيابها من المدرسة كانت تلمح الجنود العثمانيين فتخالهم جزءاً لا يتجزّأ من بلادها..لم تكن تستطيع أولاً أن تميّز بين آسر ومأسور..بين محتلّ وصاحب أرض..بين قاهر ومقهور..كانت تعتقد بأنهم غُرسوا في لبنان كما غُرست الأشجار في السهول..وكما وُجدت الأطيارُ في السماء وأنّهم كيانٌ مهمّ لا بدّ منه.. ولكنها شيئاً فشيئاً بدأت تعي الأمور وصارت دوائر الاستفهامات تتّخذ طابعاً ذهنياً عندها فتسأل الراهبة وأمها وأباها عما يشغل بالها بطريقة فضوليّة تلتهب شوقاً لمعرفة الحقيقة.

لم يكن لها من همّ سوى تجلّي الحقائق، وقد درست عن ميشال إده وغيره من الكتّاب القليلين آنذاك.. وتفتّح ذهنها للتبصّر وبصيرتها للتحديق بغرائب الأمور..وانخرطت صوفيتها بمعرفتها فانبرت تحبُّ العزلة والصمت حتى تستطيع ربما أن تفكرَّ أكثر وهي تعشق التفكير..

والكثيرات من الفتيات لم يحظين بما حظيت به هي.. فتعليم البنات كان نادراً بل قد يكاد يكون معدوماً في فترة من الفترات.. ولكنّه أصبح متوفِّراً بشكلٍ ضئيل..ونهلتْ هي من هذا الكمّ الضئيل بنهم..

ونقّبت كثيراً عن تاريخ لبنان بين الكتب القليلة التي كانت موجودة في المدرسة. فقد كانت تريد أن تعرف كلّ شيء عن بلدها و طريقة العيش فيه إبان عهد الأمير فخر الدين والمير بشير الثاني الذي لم تلحق بعهده كأمّها.

لقد تغيّرت أشياء كثيرة من عهد المير بشير وصولاً لعهدها هي..سواء من حيث العيش والتعايش والتطور الاجتماعي وحتّى في طريقة اللبس..

ومن الأشياء الظريفة التي كانت أمها تخبرها بها بأنّها كانت ترتدي في صباها ثوباً مسترسلاً إلى الارض يغطي جسمها ، ومن فوقه كوبران من الجوخ ومن تحته سروال طويل الرجلين يربط بطرفه عند الكاحل، وعلى رأسها تعتمر الطنطور وهوعلى شكل أسطوانة تعلو فوق الشعر باتجاه عامودي ويتدلّى فوقها برقع ناعم شفّاف يضفي على الوجه جاذبية وبهاء..

وكان هذا جزءاً من الزيّ التقليديّ الذي انقرض عام ،1840 أي قبل ولادتها هي بسنوات قليلة فاحتفظت به أمّها في الصندوق الكبير الذي يتوسّط الدار واعتبرته من أعزّ ما تملك من الذكريات وبأنّ لإحيائه في النفوس ذكرى غالية لا تحتجب مهما تبدّلت معالم الأزياء..وتمنّت أن تعود لزمن أمها وتعيش فيه...وأن تلبس الزيَّ الفلكلوري القديم لبلدها.

على أنّ هذا الزي كان يزيد أمّها جمالاً عندما ترتديه مستعرضة إيّاه أمامها.. وجمال أمّها يكمن في شعرها الأسود الطويل المتموّج الذي تعقصه إلى الوراء وجسدها الممشوق الرائع وعينيها الخضرواين الناعستين.. وقد تمنّت أن ترث عنها هاتين العينين اللتين تسيحان في خضرة لامتناهية..

لم تكن أمَّاَ عادية..ولا شكّ في أنّها لم تكن امرأة عادية أيضاً.. فبالإضافة لنسبها الأصيل نظراً لانتمائها لآل شاور مثل أبيها وهي من أشهر العائلات الإقطاعية في زحلة كما سلف ذكره وأمتنها ساعداً وأقواها حصناً ومعرفة بين العثمانيين، فقد كانت امرأة تجيد الكتابة والقراءة رغم الكبت العنيف الذي شهدته البلاد من شحٍّ في الثقافة والمعرفة جرّاء الاستعمار وتبعاته..وكثيراً ما روت لها قصصاً عن أزياء المسيحيين التي كانت دائماً مميزة ومناقضة لما كانت تراه بين الدروز والمسلمين أيّام جدتها..

فقد كان من الأفضل للمسيحي أن يرتدي دائماً الغيار أي لباساً مغايراً في لونه للباس الطوائف الأخرى، مع شدِّ الزنّار للمرأة من فوق ثيابها وتحت الملاءة الزرقاء أو الكحلية اللون مع خفٍّ من لونين مختلفين ليميّز هذا الخفُّ قدميها عن أقدام غيرها من النساء اللواتي ينتمين لطوائف أخرى...وكان لون اللباس أزرق حتى للرجال والعمامة سوداء والنعال أسود أما لون العمامة فهو أزرق أو كحلي وهذا ما أدهشها وحيّرها فباتت تغبط نفسها بأنّه في أيامها تساوت الأزياء بين جميع الطوائف ومُحيت تلك الفروقات التي تنتمي لعالم الغرابة واللامنطقية..وللتفرقة التي هي بمثابة إزميل الحفر على جسد الفتنة..وضغط على صمّام القلوب ليتفجّرَ طائفية وحقداً..وهي تمقتُ هذه الفتن التي تجعلُ الإنسانية تحتضر.

وفي رحلة تنقيبها عن الماضي، توقّفت كثيراً على عهد الأمير بشير..إنّ الذين حولها يشيدون بعهده. فحسبما وصف لها والدها وأكّدت أمّها أنّه في أيّامه تعزّز دور الموارنة في الانتشار وفي توطيد علاقتهم ثقافيّاً وسياسيّاً وتجاريّاً مع البلدان الأخرى، في الوقت الذي كان فيه النفوذ الدرزي يتضاءل أمام النزاع الدموي بين الحزب الجنبلاطي والحزب اليزبكي، وأيضاً بسبب اعتناق عدد من العائلات الدرزية المذهب المسيحي أمثال عائلة شهاب وأبي اللمع..فتفشّت روح العداء بين الإقطاعيين الدروز، الذين اعتراهم الخوف من ارتقاء دور الموارنة إلى القمّة، وبين عامّة الشعب الموارنة الذين توجّسوا شرّاً من ردَّة فعل الدروز..

هكذا وصف لها والدها الوضع ولكنّه لم يعرج على وجهة النظر الأخرى من فئة الفلاحين والإقطاعيين الدروز والكثير من الإقطاعيين الموارنة الذين رَأَوْا في حكم الأمير بشير ظلماً فادحاً، وتبعية عمياء لأوامر محمد علي باشا المصري، واحتقاناً لأرواحهم التي عيل صبرها من الجور السافر، ودفع الضرائب الفادحة

وتبديد الأجساد في حروب دامسة قاحلة لا جدوى منها للوطن.. فهو حسب رأيهم الخاص، يساعد المحتل وليس بلده، رغم آرائه التي تبدي التعاون الإيجابي مع المصريين درءاً للفتنة وللحروب.

وقد تجلّت لها صورة ذاك العهد شبيهة بالعهود التي سبقته فيما يتعلّق بالسياسة ومخالبها. فهي لا تبقي أحداً على ما هو عليه ولا يتمخّض عنها زعيمٌ أو حاكمٌ عادل وحكيم في كلّ شيء أو يستطيع أن يرضي جميع الأطراف ويحدّ من تنازعهم فيما بينهم.

واستنتجت بأنّ الحكم العثماني للبلاد العربية هو أشبه بحمى ملوثّة بالفتنة يصحّ أن تسمّى بوباء الطاحون، وهو أشدّ فتكاً من وباء الطاعون الذي كانت أخباره تصل إلى مسامع اللبنانيين عن طريق البحّارة.. فالطاحون هي رحى تطحن الحَبّ في لغة الناس، والحُبَّ في لغة الشعراء، فتقضي على الأرواح والأجساد معاً بينما الطاعون يقضي على الأجساد فقط.. إنّ المرض السادي أشدّ وطأة من المرض الجسدي..

وقد وُلد أبوها، وكذلك أمُّها، في ذلك العهد المتأرجح.. من عائلة إقطاعية كبيرة تحظى باهتمام الحاكم والعثمانيين ولها دلالة في النفوذ على الجميع.. لم يكن ما جمع بينهما هو الحب فلم تلمس فيما بينهما عشقاً أو ولهاً، بل قرابة واحتراماً واعتزازاً بأصلهما الواحد ونسبهما المشرّف.

وكان قصر جدتها لأمّها، المجاور لقصرهم والكبير بمساحته يقع في أعلى تلّة مشرفة على زحلة، ويتراءى لها كشاهد على الزمن الغابر وقد ضجّ بأناس من الطبقة الحاكمة التي كانت تزور عائلة آل شاور مستقطبين الرضا من أفرادها..

ولم تكن جدّتها طيبة ولا حكيمة كجدّات صديقاتها..كانت امرأة محكمة الإرادة تحبّذ السيطرة على من حولها وتدلّل بنسبها في كل مناسبة..وتعمل على خدمتها نساء قرويات متينات الهمّة يحطن بها كملكة سبأ، ويتبارزن لنيل القليل من رضاها.. فيطبخن لها ويشرفن على طلباتها ويقبلن يدها كلّ صباح بخشوع وامتنان..وهي تجلس كالملكة المتأهّبة في كلّ لحظة لإصدار الأوامر وتعنيف كلّ من تسوّل لها نفسها بأن ترتكب هفوة أو خطأً في حضرتها.

ورغم أنها حفيدتها الوحيدة، لأنَ جدتها لم تُرزق إلّا بأمها بعد أن مات لها أولادٌ كثيرون بعد ولادتهم بأيّام ، فهي لم تدلّلها يوماً ولم تكن حتى تجيب على أسئلتها الفضولية عن العثمانيّين وسياسة المير بشير الثاني..بل كانت تشعر بأنّها تضيق بها وبفضولها فلم تأنس إليها ولم تزرها إلا عندما تجبرها أمها على رفقتها إليها، وعلى مضضٍ كبير.

كانت جدّتها تكرّر على مسامع أمها تلك الكلمات: "ابنتك هذه يا مروى تحشر نفسها في كلّ شاردة وواردة"..فتردّ أمّها وهي تضحك بسرور: "لا بأس يا أمي كلّ الصغار يهيمون شغفاً بمعرفة كل ما يجري حولهم وميرا طفلة ذكيّة ومجتهدة ولا أحبّ أن أكسر بخاطرها"..

وفي العادة بعد أن تضيق بها جدّتها وتنشغل عنها أمّها كان أبوها هو من يتولّى الإجابة على أسئلتها بابتسامة صافية..

وقد أخبرها حين سألته عن قصة المير بشير مع الدروز والذي يكنُّ له هو وأمّها حبّاً شديداً، بأنّ الفتنة تبدأ عندما لم ينس أمراء آل لمع وهم حلفاء الأمير يوسف المعزول من الحكم حقدهم على الأمير بشير الثاني فتصدّوا له في الحكم بينما وقف آل جنبلاط إلى جانبه ليؤازروه في كلِّ قراراته ومواقفه...وقد نكث الجزار

بوعده للأمير بمدّ ولايته لمدى الحياة وبسط سلطانه على بساط أوسع من البلاد وأثار الفتنة من حوله، حتى تضمحلَّ قوة الأمير وتتلاشى. فتخلّى عنه أصدقاؤه قبل أعدائه وكثرت المآخذ عليه.. منها مثلاً بأنّه فرض الضريبة مرتين في العام الواحد مما أشعل ثورة ضدّه تحت شعار "مال واحد وجزية واحدة"..

وحاول بكلِّ ثقله إخماد الغضب المستعر في صدور الناس، حتى كان اجتياح الوالي المصري محمد علي لبلاد الشام والذي هرع الأمير بشير وقتها لمساندته، وكان محمد علي بدوره كريماً مع المسيحيين فقرّبهم إليه ممّا أوغر الغيرة في نفوس الإقطاعيين الدروز الذين تقلّص دورهم بعد أن تمّ تجريدهم من سلطانهم.. فنقموا على الأمير بشير الثاني وعلى حكم محمد علي.. وباتت كراهيتهم ثقيلة الوطأة..وتوعّدوهما شرّاً..

واستمرّ الأمير بشير بمساندة حليفه محمد علي بعد انتصاره، وحتّى بعد انقلاب الشعب عليه بسبب فرضه التجنيد الإجباري الذي لم تستسغه نفوس اللبنانيين، والضرائب العالية، بالإضافة إلى القتال الذي نشب بين صفوف الموارنة والدروز.. وبقي بكلّ هذا الوفاء حتى لحظة انهزامه بعد اجتياح الدول الأوروبية والعثمانيين عام 1840 لبلاد الشام حيث كانت النهاية المؤلمة. فنُفي الأمير بشير إلى الأستانة وانتهى حكم محمد علي.

وعيّن بعدها ابنه الأمير بشير الثالث أميراً على البلاد من قبل العثمانيين.. لكنّه بطبيعة الحال لم يستمر في حكمه بسبب نقمة الدروز الإقطاعيين على أبيه وكذلك بسبب اعتباره مرتدّاً مثله بما أنه ينتمي للأمراء الشهابيين الذين اعتنقوا المسيحية. فحاصروه عام 1942 في قصره في دير القمر وقبضوا عليه وتمّ نفيه إلى الأستانة.. وفي العام نفسه ولدت هي.. وقد أكّد لها والدها مراراً أن تسميتها

جاءت من محبّته هو وأمها للمير بشير الذي دافع عن حقوق المسيحيين وذاد عنهم خطر الإقطاعيين الدروز الذين كانوا يسلبون الفلاحيين أموالهم ويعتدّون بأفعالهم الطائشة.

وأضاف أبوها أيضاً بأنه مع ولادتها كان لبنان قد بدأ يخضع لنظام القائمقاميتين الذي أوعز للناس بالتوتر، فأصبح يتجلّى في الإيماءات والوجوه، وقد نضحت بالأحقاد وهي تشي بما تكنّه القلوب وبما يسري فيها من التعصب الديني والانتمائي.. مغلولة بعقدة الطائفية.

وتتذكّر جيداً بأنها في طفولتها لم يكن من المسموح لها الذهاب إلى أي مكان حتى إلى دار صديقتها راجحة المجاور لدارهم، دون أن يرافقها أبوها أو تصحبها أمها. وفي أحيان كثيرة كانا يأمران متّى الفلاح الذي يعمل في أرض أبيها أن ينتظرها حتى تنتهي زيارتها ليعود بها إلى القصر.

في طفولتها عشقت الله قبل أن تعشق القصر والحديقة ومظاهر الثراء الفاحش التي تحيط بعائلتها..كانت ترى جدّتها ترفل بأبهى الحلل لتتفاخر بها أمام النساء الأخريات فتزدريها في قرارة نفسها..وعندما تقع عيناها على امرأة بسيطة تجلس في حضن دارها لتقرأ في كتاب تحمله كانت تحدّق فيها باحترام كبير. لم تستطع أن تماثل أمها أو جدّتها في هذا الاعتداد المشوب بالمال والحسب..أو أن تجاريهما فيه...

لقد فكّرت وهي تجوب أزقة زحلة بأنّ الحياة الفانية ولن تأخذ منها إلا عتاد العقل الذي تحصّله من العلم والمعرفة، لا من ابتياع أفخر أنواع القماش أو اعتلاء أكثر الأحصنة قوة ومكانة بين الأمراء والحكام والإقطاعيين.

"المعرفة ثم المعرفة" شعارها في الحياة ونبضها الذي تعيش عليه. وكان لتلك المعرفة علاقة مباشرة بالله..فهي سرّ من أسراره وكينونته التي حرقت ساعاتها وهي تفكر فيها..فقد كان تحسّ بأنّ للملموسات حقٌّ على المحسوسات والاثنان يكمّلان بعضهما بعضاً تماماً مثل النار والدخان..لم يكن في حسبانها بأنّ الجسد والروح سيبليانها بأكثر أنواع البلاء...وهذا عندما عشقت روحها واهتزّ جسدها ثائراً لبركان الرغبة.

ميرا الصغيرة..هكذا كان يناديها والداها ولم يشعرا بأنّ نهديها قد تكوّرا وأنَ ملامحها قد نضجت وأنها باتت أنثى كاملة إلا عام 1859 لما بلغت السابعة عشرة من عمرها وبدأت الأمهات المترفات اللواتي ينتمين لطبقة الأسياد يتهافتن لطرق باب منزلهم وطلب يدها لأولادهن..

وكانت جاذبيتها تطغى على جمالها.. بوجهها الصغير المستدير وبشرتها البيضاء التي تشدّ الناظر إليها كالسحاب الصافي الذي يدهم السماء فيحتلّ صديرتها..وما كان شعرها البني الداكن المنسدل على كتفيها إلا لوناً للرمال التي على شاطئ البحر ساعة الغروب ينضح ببريق يتذبذب في تؤدة..وكانت تعقصه في ضفيرة تدفعها للأمام.. وهي تملك عينين عسليتين صافيتين.. وحاجبين نافذي العمق وأنفاً دقيقاً وجسداً ممشوقاً نحيفاً متوسط الطول..هي تشبه الأميرات المتلثّمات بالحسن والدلال من غير غنج ولا تصنّع.. وكثيراً ما قالوا لها بأنها تشبه عمتها الراحلة سعدى..

كانت تعلم بأنّ الكثير من الشبان يرغبون بها ويتمنّونها.. فيغدقون عليها من النظرات الحادّة التي تشي بالرغبة والوله الكثير..ويرمقونها بلهفة وتهالك تبثّهما

الرغبة في جسدها..ولكنها لم تأبه لأيٍّ منهم. لقد فرغت عقولهم من المعرفة وباتت فارغة ضئيلة الإدراك.

وعندما تسير بتيه ودلال بجمالها الأخاذ الذي يخلب الأبصار والألباب معاً ترمقها المآقي الظامئة ويدلهم بها التيه.. ولكنّها لا تفقد إدراكها الثاقب.

وكثيراً ما حلمت بالحب.. الحب الحقيقي الذي لا مرقد له إلا القلب ولا منبع له إلا العناق والقبل غير أنّ التقاليد الحاسمة تفرض نفسها والحلم مريبٌ في عرف مجتمعها وبيئتها والهوى محرّمٌ حتى لمن شقي من أجله..

فهذه قصّة عمتها سعدى التي تعرفها زحلة كلها تعيد تحشرج الغصّات في قلبها وهي تذكر ما لحق بها من الدمار الشامل..

عشقت عمّتها شابّاً ثريّاً من آل مهنّا اسمه مجد لم تنقصه الثروة ولا ضنّ عليه الشباب بريقه الرطب بل كان كالفارس المغوار يزرع بنوته في الأرض فتنشقّ من قوّته.. وقد هابه الجميع.. وتفاخر أعمام أبيها وأبواه بهذا النسب الجميل الذي سينضم إليهم عمّا قريب وارتاحت النفوس إليه وتكلّلت قصة حبها بالرضا..

فباتت سعادة عمتها سعدى كاملة ولا ينقصها أي شيء فهي كالحلم الطري الهادئ لا تنغّص غفوته يقظة.. تعشق إنساناً تتوازى كل صفاته في ميزان العائلة.. فلا غيظ يكتم ولا غضب يُحكى ولا كدر يُبكي..القلوب صافية راضية..والكل يشيّعها بنظرات السعادة المباركة..وأقيم لها زفاف أسطوري يشبه أعراس الأميرات..دُعي إليه كل أبناء القرية من الأسياد والفقراء وألمَّ فيها كلّ أبناء مدينة زحلة وحتّى القرى المجاورة..

وكانت عمتها وكما روت لها أمها بحلق باكٍ وهي تغالب دموعها المتألمةَ، تخطر كملاك أبيض حالم في زفّة كبيرة...والفتيات يهتفن لها: "مبارك لك هذا العشق الخالد"..ومن فرط سعادتها كاد يغشى عليها وهي تسير مكلّلة بالورد وحول معصمها الأساور الذهبية البرّاقة التي قدّمها لها عريسها مجد.. وتكلّلا معاً في الكنيسة وخرجا والسعادة لا تكاد تسعهما..

واستيقظ بيت جدّها الكبير في فجر اليوم الثاني على طرق عنيف على الباب فهرعوا وفتحوا الباب ليجدوا مجداً منتصباً أمامهم والعرف يتصبّب من جبهته فظنّوا أن سوءاً ألمّ بها.. ولكنه طلب لاهث الأنفاس بأن يحلّ الزواج لأنه حسبما صرّح لهم غاضباً بأنّ عمّتها قد ضحكت عليه واستغلّت حبه وخدعته ليكتشف أخيراً بأنها غير عذراء..

ساد الهرج والمرج والغضب بين رجال العائلة واعتبروا عمّتها نكرة ضالّة تستوجب الرجم ولم يمنحوا الفتاة فرصة كي تدافع عن نفسها..لقد تصوّروا أنّ الرجل قد قام بواجبه ليلة العرس خير قيام لتطالعه خطيئة سعدى مخضّبة بالعار معتقدة أنّه سيسترها لحبّه لها.

وأُعيدت عمّتها إلى منزل أهلها باكية خائفة منكّسة الرأس من الظلم الذي لحق بها..وهمست في أذن جدتها بأنّ الرجل أصابها بالأذى لأنه عاجز وغير سوي جنسيّاً كما أقرّ لها واعترف.. ولكنه ندم على اعترافه وخاف أن تشي به بعد أن ثارت بوجهه لأنّه لم يصارحها بهذا الأمر قبل الزواج، فغضب وأمعن فيها ركلاً وضرباً وأتته حينها هذه الفكرة الجهنّمية بأن يدّعي أنها غير شريفة حتى يبرئ نفسه.. لكن جدتها لم تصدّقها وبرّرت هذا بأنّ الرجل يكاد يضاهي نابليون بونابرت قوة وحزماً ووسامة.. وهو يعشقها لدرجة الجنون فلماذا يتزوجها إن

كان ينتقص للرجولة؟ إن هي إلا افتراءات على الرجل المحقّ دائماً في نظر جدّتها ونظر المجتمع..

ولاكت الألسن شرفها ولم يشفع لها شاجب صبرها ولا نحيبها.. واجتمع أعمام سعدى كل ليلة يتشاورون فيما بينهم في أمر قتلها وذبحها من الوريد إلى الوريد كي يتخلّصوا من العار المجحف في حقّ سمعتهم وكرامتهم، ولكنّهم كانوا يتراجعون أمام نحيب أمها ورجائها مرجئين البتّ في الأمر إلى وقت لاحق.. حتى ضاقت عمّتها ذرعاً بالظلم والإهانة و قرّرت أن تأخذ عنهم القرار وتنفّذ في نفسها حكم الإعدام...لم يعد باستطاعتها أن تلمح نظرات الشماتة في أعين الناس وأن تسمع المزيد من كلام أعمامها.. فقضت على نفسها بالموت ورمت نفسها من علوٍّ يشرفُ على وادٍ رهيب وتركت جسدها يتفتّت في الصخر كما تفتّتت كرامتها وهُدر شرفها ظلماً...كانت تنهي آلامها قبل حياتها وترجم اليأس الذي جعلها تحتضر كلّ يوم آلاف المرات..قضت على شبابها بالموت هرباً من الاتهام المجحف.

وبعد سنوات قليلة من انتحار عمّتها سعدى... تزوّج زوجها من فتاة أخرى من القرية واختارها هذه المرة من الفلاحين وأغرقها هي وأهلها بالهدايا النفيسة اعتقاداً منه بأنّ المال قد يسكتها عن فضح أمره، فما كان منها إلّا أن هربت منه في ليلة الزفاف بثياب النوم مهرولة ناجية من الهلاك لأنه همَّ بذبحها بعد أن ظهر عجزه أمامها، فحنقت منه حنقاً شديداً وعايرته بأنّ سعدى كانت مظلومة وبأنّه هتك عرض الفتاة ودفعها إلى الموت ظلماً.. فأغراها بالمال والوعود علّها ترضى به عاجزاً لا يهوى النساء فلم تقبل وصاحت به حتى ثارت ثائرته وكاد يفتك بها..

وظهرت الحقيقة جليّة ساطعة كعين الشمس.. وعرف الجميع بأن الظلم قضى على سعدى بلا رحمة..والعجيب أنّ أعمامها فرحوا بأن طهارة ابنة أخيهم قد أنقذت سمعتهم ولم يحزنوا بأنهم اقتادوا فريسة ظنونهم نحو هلاكها الأخير..وحدها جدّتها بكت على ابنتها حتى الثمالة وماتت وهي تحتضن ثوبها وتلثمه وترجوها في سرّها أن تسامحها..

فهل تسعى للحبّ وقد عرفت مصير من سعوا إليه فكان الهلاك من نصيبهم؟..لطالما روت لها أمها قصة الحب التي عاشتها سعدى بعين ترفّ بالأسى والقهر المميت.. حتى تساءلت في داخلها هل عاشت أمها قصة مماثلة لقصة عمّتها حتى يهزّها ذكر العشق والتمني فيه؟...

قصص الحب تكاد تكون نادرة في مدينة زحلة.. فالحنين الذي يدبّ كل صباح فيها مع زقزقة العصافير التي تعكس عبر أجنحتها أوّل شعاع للشمس الدافئة لا يتلاءم مع طبائع البشر القاسية فيها..

إنّها مدينة تدير ظهرها للطمأنينة..فيها مع هدوء القرية صخب المدن..كأنّها تمزج بين السكينة والضجيج فتثير في النفس هلعاً خفيّاً لا سبيل لتبيان وجوهه وأسبابه..

ورغم الكهوف المنتثرة ما بين صخور وادي العرائش..والتلال الرائعة التي تحيطها من كلّ جانب..إلا أنّها شاهدة حيّة على تاريخ نابض حي يعطي المدينة الطابع التراثي وينئيها بعض الشيء عن الطبيعة المفروضة على سيماء القرى عادة..

وفيها الناس طبقتان.. إمّا غني يجول البصر في أملاكه ومصالحه وغده البعيد وحياة ترفه وراحته..وإمّا كادح بسيط يتشقّق جبينه من حمى الشمس اللاهبة ويفكّر في قوت يومه وفي النوم القليل الذي سيحظى به ليلاً..

لا وقت للحبِّ عند هاتين الطبقتين...الغني طُبع على الغنى والفقير يتوجّس من الجوع الأعمى وما من أحد راضٍ والكل يخشى مغبّة الآتي...

والزواج بين أهل السلطة مدروس ومدسوس بوجوه الربح والتباهي.. لا أحد يبالي بما يدّخره القلب من مشاعر وما يستسيغه الشعور..

ورغم عروض الزواج التي انهالت عليها لم يشأ أبوها أن يزوّجها بسهولة ولم ترض أمُّها بكلِّ الشبّان الأغنياء الذين تقدّموا لها مع أنها بلغت السن المناسب للزواج وبالرغم من إلحاح جدّتها عليهما بالقبول.. لكنّهما على العكس ازدادا تشبّثاً بها في القصر وبالغا في تلميع محبتهما لها وبتضييق الخناق عليها خوفاً من أعين الناس والشبان خاصة..

وبدورها، لم تشأ أن تثور أو تعترض حتى لا تُلحق بهما الخيبة وهي تتلمّس عمق خوفهما عليها بأيادٍ خاوية لا تعرف ماذا تفعل بكلّ هذا الحب وكلّ هذا الخوف.. بل إنّها في قرارة نفسها أحسّت بالراحة لهذا التأخير الجبري للزواج..لأنّها لم تكن مستعدّة له ولا حالمة به كصديقاتها اللواتي يكرّسن أنفسهنّ للزواج والأولاد.

ولم يفتها بأنَّ والدها قد تسربل بعقدة أزلية بعد انتحار عمتها سعدى، وخاف أن تلقى ابنته المصير نفسه مع ابن حرام شبيه بصهره القديم..حسبما سمعته ذات ليلة يهمس في أذن أمّها خائفاً:

- مروى..أخاف أن أسلّم ميرا لشاب من شبّان اليوم فلا يحسن معاملتها ويهملها فتضيع تحت سوط جبروته كما ضاعت أختي سعدى من قبل..أتذكرين؟

رنّ صوته في أذنها بمرارة حانقة وسمعت صوت أمّها تردّ عليه بحزن:

- ميرا قوية لا تخف عليها ولكنّي ما زلت أراها صغيرة على الزواج وتحمّل المسؤولية.. لا بأس إن انتظرنا قليلاً ستجد دائماً من يتمنّى الزواج منها بسبب جمالها وعائلتها الراقية.

وحدها جدّتها لأمها كانت تهيم كالصاعقة حول منزلهم تسنّ حكمها على الجميع وتفرض حصارها فيستسلم لها أبواها أحياناً ويثوران على منطقها الصارم أحياناً أخرى..ولكنّ موقفها لم يتزحزح من أنّه يجب تزويج الفتاة لأنّ ستر الفتاة هو زوجها حسب معتقدها.

وكانت تمقت جدّتها.. تلك الجدّة المتعالية بنسبها التي ترمي الفلاحين بنظرة ازدراء وتشفٍّ وكأنّها تكنّ لهم ثأراً جهنّميّاً.. ولطالمت تمنّت أن تكون كجدّة صديقتها راجحة طيبة ومتواضعة تجلس معها كلّ مساء لتروي لها حكايات جميلة... ولكنّها لسوء حظّها لم تكن كذلك..

ولهذا فضّلت الوحدة على الضجيج الفارغ والتأمّل في أسرار الربّ حتى لا يذهب وقتها هباء مع عقلية ضبابية خُلقت للتفاخر والمغالاة.

بين يسوع الرب ويسوع الإنسان مدارس قِوامها المحبة والمساواة والعدل بين الناس.. فقد كان حكيماً كإله حليماً كإنسان فلماذا لا تقتدي عائلتها به؟

إنها ترى الناس يتوافدون على الكنيسة يوم الأحد لحضور القداس فيرتّلون ويتسابقون بالدعاء دون أن يفقهوا ما وراء دروس المسيح من عِبر لا تُقرأ ولكنها تُلمس من أعماله ومن تجنّبه سفك الدماء ومن مجالسته لرعاع الغنم والفقراء ومن مدافعته عن امرأة زانية قد تفوق الكثيرات غيرها عفّة وكرامة في نواحي كثيرة غير الجسد..

حبّذا لو يعود الزمن إلى الوراء وتعيش زمن المخلّص يسوع وتستنير من وهجه الأخّاذ فيغمرها نوره الأبدي.

وقد سألتها يوماً راجحة عن معنى الله وهل تجد مبرراً لوجوده في حياتنا كبشر فقالت لها:

- هل بإمكانك يا راجحة أن تحيكي ثوباً من دون خيطان أو إبرة؟

هزّت صديقتها رأسها نفياً فأردفت تقول:

- هذا ما يبرّر وجود الله في حياتنا.. إنّنا لا نستطيع أن نصنع أمراً من دونه..

- ولكنّه يظلم رعاياه أحياناً يا ميرا..

ردّت عليها باسمة سعيدة بالمناقشة:

- يظلمهم ليعيدهم لوهج الحقيقة ويستنيروا من امتداد ظلّها الأبدي فيحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبهم هو على الخير والشرّ الكامن فيها.. الله عنده حكمة لامرئية يا راجحة..

صمتت راجحة قليلاً ثم سألت:

- إذن لماذا خلق كل تلك الأديان ولم يخلق ديناً موحّداً؟..

ابتسمت وأجابت بابتسامة تشبه الأجمات الوارفة الحنان:

- الناس أجناس والديانات أنواع أيضاً ولكن الهدف منها واحد..

مسكينةٌ راجحة لا ترى من الحياة سوى قشورها ولا تبصر من الله إلا الجانب المظلم..وهي ككثير من البشر لا تفقه سرّ الكون لأنها لا تتوغّل في الماهية الجليّة.. الظلم وُجد منذ وُجد إبليس نفسه، ولن ينقرض إلا بانقراض البشرية ولن يمنعه الله من التوسّع والانتشار لأنّه التحدّي الأكبر بينه وبين إبليس..حتى يأتي يوم الحساب في الحياة الأبدية الخالدة..

وقالت لها جدّتها يوماً بأنّ يسوع هو المخلّص للمسيحيّين فقط، فلم تصدّقها ورمقتها بنظرة ازدراء واضحة..إنّ الله للجميع رغم اختلاف الأديان والمذاهب..أمرٌ واحد كان يشغل بالها وهو لا يكمن في سؤال راجحة عن ظلم الله ولا في تحليل جدّتها عن تفضيل الله للمسيحيين بل في الدين نفسه.. لماذا حرّم الله الزواج بين دينين مختلفين وهل هناك من حكمة وراء هذا؟ سألت الراهبة يوماً فأجابتها بشكل مقتضب غامض وهي تشدّ على أسنانها وكأنها لم تستسغ هذا السؤال بأنّ الأمر محرّمٌ والنقاش فيه مزعج وغير مرغوب فيه على الإطلاق..ولوت شفتيها بحزم وعدم رضا..

وطرحته على أمّها فانتفضت وأكّدت بأنّ هذا الأمر محسوم ومفروغ منه ولا يجوز للإنسان الزواج إلّا بمن ينتمي لدينه وإلا هلك ندماً..وضربت لها مثلاً قصّة فلاحة مسيحية في أرض جدّها اسمها كاميليا أحبّت مسلماً وهربت معه "شليفة" حسب ما يسمّونها في القرى..فنبذها أهلها وتبرّوا منها للأبد وعندما عادت إليهم منكسرة خافضة الجناح بسبب ما لحق بها من أذى من هذا "الزوج المسلم" الذي أحبّته فأساء معاملتها وطلّقها بعد عذاب مرير، طردوها شرّ طردة فهاجرت إلى

بيروت حيث عاشت مستوحدة منبوذة لا يعترف بها أحدٌ من عائلتها وعملت بكدٍّ لتُحصّل قوتها ولم تتزوّج ثانية فقد وصمها زواجها من المسلم بوصمة عار لا تُمحى..وماتت دون أن يصلّي عليها رهبان القرية..فباتت عبرة لمن اعتبر من الفتيات ولأجل هذا كلّما همّت فتاة بأن تعشق شابّاً من غير دينها سارعت صديقاتها تحذّرنها قائلات: "أتريدين أن يحصل معك ما حصل مع كاميليا"؟ فترتعد خوفاً وتنسى أمر الحبِّ وتدفنه تحت قدميها على الفور.

عجبت أشدّ العجب ولم تستطع أن تقتنع بهامشية جواب الراهبة ولا بالتأكيد النابض في جواب أمها وبالتعصّب الديني الذي يشعّ منه وبالمثل الحي الذي شهدته بنفسها عن كاميليا..فقد كرّرت لقب "مسلم" وهي تسرد الحكاية وكأنه ينتمي إلى عالم آخر..فلماذا هذه التفرقة المجحفة في حقّ الإنسان؟ أليس للمسلم أحاسيس المسيحي نفسها وتقلّباتها؟

لماذا تحسّ أنّ لكلمة مسلم مرارة في حلق أمّها والراهبة مع أنّ المسيح دعى لحبّ الإنسان لإنسانيته نفسها وليس لانتمائه الديني؟ إذن هل هو نفسه من حرّم هذا الزواج ولأيِّ هدف؟...

وقد أجابتها الأيام عن هذا السؤال.. أجابتها بحرقة ومرارة والكثير من الدهشة وخيبة جرّت وراءها الكثير من الويلات..إنّ الدين من صنع الله ولكنّ تعاليم الدين هي من صنع الإنسان فقط لا غير..

وكان الاحتلال العثماني قد أنهك الجيوب والقلوب معاً فرغم ابقائه للنفوذ والحكم في أيدي العائلات اللبنانية التي تحظى بنفوذ واسع وامتيازات رائدة في البلاد وعائلة أبويها واحدة منهم.. إلا أن شبحه قابعٌ جاثمٌ عند أعتاب البيوت وأبواب الدكاكين القليلة المنتشرة في مدينة زحلة.

والدولة العثمانية تعتنق الدين الإسلامي والمذهب الحنفي وتعامل المسيحيين كأغراب عن دينهم وعقيدتهم وهي تصنّف الرعايا على أساس المذهب وليس الوطنيّة أو اللغة...وتميل كفّتها لمناصرة الدروز.

أما المسيحيّون اللبنانيّون فقد كانوا يخشون ظلم العثمانيين وما زالت الواقعة الشهيرة في الإسكندرية عام 1590م. رغم قدمها متداولة بينهم.. وذلك عند نهب العثمانيين لكاتدرائية الأرثوذكس في مصر والتي لم يكن لمسيحيّي الإسكندرية سواها آنذاك.. حدث هذا لأن بطريرك الإسكندرية ملاتيوس لم يستطع أن يؤدّي ما عليه من الأموال التي وعد بها الوالي العثماني في مصر كأجرٍ لتنصيبه عليها..

هذه الحادثة القديمة أشعلت لظى الرهبة والتوجّس في قلوب المسيحيين، خاصّة وأنهم كانوا يُسَمّون بأهل الذمة لما فرض عليهم من تأدية واجبات من أجل ضمانات يحصلون عليها. وكذلك المذبحة القديمة التي هبّت كعاصفة هوجاء بين الدروز والموارنة أيّام المير بشير واقتلعت أرواح البشر الأبرياء وخلّفت بينهما حقداً ممتزجاً بالمراوغة.

لهذا كان اختلاط أسرتها بالعائلات الدرزية والمسلمة نادرة ومحدودة إلّا عندما تطرق الأمور باب المصلحة العامة حيث تضطر عائلة مسيحية إقطاعية مثلاً أن تتودّد لعائلة درزية إقطاعية أيضاً والعكس صحيح وهذا بسبب المنافع المتشركة التي تجمع بينهما.

لم يكن هناك من متنفّسٍ لها أيّامها سوى الحقول المجاورة للمنزل تذهب إليها لتتقنّع بوجه الشمس وهي تهيم في المدى بحرية ودعة يستعرُ لظاها تارة ويخفتُ وهجها وراء غيمة مارة تارة أخرى كأنّها تلعب مع الكون لعبة التخفي وتتجلّى

للطبيعة إلهة العطاء التي تستمدُّ منها النباتاتُ قوَّتها والعصافيرُ وحيَها والإنسانُ دفأه..

كانت تمكث في مخبئها الذي بنته بيدها مدّة طويلة من الزمن..وكان هذا المخبأ عبارة عن كهف صغير نبتت فيه بعض الأعشاب الطالحة والأزهار البيضاء الصغيرة التي اجترّت بذورها إليه بعض العصافير التي تتقي حرّ الشمس صيفاً فنمت في داخله تفرشه كبساط أبيض ينبض رونقاً وظلاً زمرّدياً تعكسه الشمس التي لا تستطيع خرق حضن هذا الكهف فتكتفي بنثر ظلٍّ سماوي من حوله وتوزّع من فوقه ابتساماتها الدافئة.

وكان عام 1859 ، عاماً صاخباً بمشاعر تختلج في القلوب، ولا يجرؤ أحد على إظهارها علناً فقد ضجَّت الصدور بفتنة تأجّجت منذ سنوات ولم تخمد شرارتها رغم ادعاء المحتلّين والمندسّين...لم يكن عاماً عادياً بل كان أشبه بهدوء ما قبل العاصفة.. عندما يخال المرء بأنّ الجوّ ساكنٌ يعتريه شحوب بسيط ولكنه يضمر رياحه تحت إبطه ليبثّها في الكون أعاصير وطرقاً يصمُّ الآذان.. إنها التشنّجات التي تسبق الإنهيار الكبير.. تلك التشنّجات التي تصيب المرء بعد هجعة طويلة من الأمان يصحو بعدها ليجد كلّ ما يحيط به منقلباً رأساً على عقب... إنّ الهزيع الأخير من الليل ليس كالهزيع الأول.. فبينهما نجوم وكواكب تتجلّى وتختفي وهجعة كالفعل المعتلّ الأول والفعل المعتلّ الآخر..وأسرار ومراكب ترحل وتأتي.. وكان التشنّج يتصلّب عند اسم يتقاطع مع كل الأسامي: بطرس شاهين.. فلّاح يدعو للثورة وينشد المساواة ويقلق مضاجع الأغنياء..هكذا كانت الكثير من الشفاه تنطق اسمه برهبة وخفر واهتمام وإجلال..وذهب البعض الآخر إلى القول إنّه مجرّد قاطع طريق ومفتعل للمشاكل..

وقد تطرّق أبوها لذكر اسمه بكثير من الازدارء واللامبالاة ولكنّه كان محور اهتمام الفلاحين وجلّ أملهم..

هذا الفلاح نشأ وترعرع في زحلة وقضى جزءاً من شبابه فيها.. ولكنّه رحل عنها لأسباب لم تعرفها إلا لاحقاً عندما تعرّفت إلى عابد..

في أواخر صيف ذلك العام كانت تمكث وحيدة في الكهف فقد احتفظت بسرّ مخبئها حتى عن صديقتها راجحة التي هي أقرب إليها من نفسها.. وهي تعرف أنّ راجحة قد اعتزلت الكون في منزلها بعد عشقها لشاب مسلم فقدت منه الأمل سريعاً بسبب تشبّثه بالدين فتركها واقترن بغيرها..وقد عانت صديقتها الكثير.. وكبتت دمعها حتى اكتسحها الحزن وقاربت على الانهيار ولكنّها لم تلبث أن خُطبت لشاب مسيحي من أصل كريم فنسيت حزنها مثلما نسيت حبّها في لحظة واحدة وعادت إليها الحياة..بل كرهت ذكر حبيبها السابق وكأنّه لم يكن..

ابتسمت وهي تذكر قصة راجحة وامتثلت للسكون في هذا المكان السماوي الذي يقرّبها من يسوع المسيح.. هو الذي ينأى عن القتال والبغض..ويفتح ذراعيه للحب والمحبة... أو ليس هو القائل "أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ. وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ. لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ"..

ربّ الأكوان الذي دعا بأن نسمو بأرواحنا إليه.. ها هو العالم يصطخب بالجدل والحرائق وكأنّ اغتصاب الأوطان بات مشرّعاً وانتهاك الحقوق بات مجداً.. كلّ يوم تتناهى إلى زحلة قصص خراب جديدة من قرى أخرى.. قصص لصوص وقاطعي طرق وحاملي أسلحة.. هي في كهفها معتزلة بهدوء تنشد وجه الربّ فقط لا غير.. لم تكن يوماً متكبّرة أو متعجرفة رغم كلّ الإغراءات التي تحظى

بها كأنثى وكسليلة عائلة من أرقى العائلات اللبنانية.. فالكلُّ أبناء الله في نظرها والكل سواسية..

"سواسية"؟ تساءلت بصمت وهي تحفر قليلاً في جذوة ذاكرتها.. هل حقّاً هي تؤمن بهذا أم إنّها تقنع نفسها به؟ ولماذا لم تؤمن بهذا عندما حدثت قصتها مع متّى الفلاح البسيط الذي يعمل في أرضهم؟..لماذا تعالت عنه وصدّت اهتمامه بخنجر قاتل من الإزدراء؟

اعتكفت للسكون وحاولت أن تكفّ عن العزف على رباب الذكريات.. فما أجمل أن تنساب إليها روح الله من ثقوب هذا الكهف الربّاني المدهش..

سمعت وقع خطوات مضطربة تقترب من مخبئها.. خطوات لاهثة مضطربة مسرعة..تحشرجت الكلمات في حلقها عندما همّت أن تنطق فزعة لتسأل من الآتي..فآثرت الصمت وانتحت به جانباً حتى لا يسمع لها همس أو تصدر عنها حركة.

الخطوات تتحول لأنفاس والأنفاس لاهثة متلاحقة تكاد تلفح أذنيها وهي تخترق مخبأها الصغير..حدّقت وروعها يكاد يقع تحت قدميها فرأت شابّاً يتكوّر إلى جانبها في الكهف وهو يحمل طربوشه الأحمر بيده اليمنى دون أن تقع عيناه عليها من شدّة اضطرابه..بعد دقيقة سمعت وقع خطوات أخرى وأصوات جنود عثمانيين يتحدثون فيما بينهم بانزعاج... كانوا بلا شك يقتفون أثر هذا الشاب... ما لبثت خطواتهم أن تلاشت رويداً رويداً..

تنفّس الشاب الصعداء وحدّق بها وكأنه تنبّه لوجودها لأول مرة.. ابتسم ابتسامة خافتة لمعت على شفتيه بعد ركود وبادر للتعريف بنفسه:

- عابد مسعود من قرية كفرسلوان...آسف على إزعاجك أنا أعرف أنّكِ ترتعدين خوفاً من إقحامي نفسي عليكِ بهذا الشكل..حقّاً أنا آسف..أنتِ ترتجفين فعلاً..

تنهدت وكأنّ خيوط الخوف بدأت تنسحب من أطراف حواسها وأجابت:

- ميرا شاور ....ولكن..
- أعرف.. أنتِ تتساءلين ما الذي أتى بي إلى قرية زحلة وأنا من كفرسلوان وما سرّ مطاردة الجنود العثمانييّن لي ..

تضرّج وجهها بحمرة خفيفة وهي تمتم:

- هذا ما فكّرت به فعلاً..

اعتدل الشاب في جلسته ودعاها بإيماءة من رأسه للخروج من الكهف الضيق فقد بدأ يضيق بجلستهما ..

خرجا إلى الهواء الطلق وجلست هي على صخرة ناتئة وتربّع هو على الأرض.. تأمّلته ملياً تحت أشعة الشمس التي انعسكت على صفحة وجهه فأمدّته بسحر خاص.. كان أبيض البشرة ناعم الأنامل كعادة معظم الشبان الإقطاعيين الذين لم تلوح أشعة الشمس بشرتهم وتحيلها سمراء داكنة كالفلاحين الذين يكدحون في الأرض وهم حفاة الأقدام وجلودهم خشنة ومتشققة..عادت لتحدّق فيه.. فاستقرّ بصرها على عينيه..فاجأتها عينان سوداوان واسعتان تقدحان بالتحدّي، وكانتا عميقتي الأثر في النفس..ورموش منسدلة بلامبالاة فوقهما وكأنّها ستائر سوداء داكنة تحصن سرّ هاتين العينين الرائعتين..

أمّا حاجباه فقد تربّعا كحصنين سميكين منيعين يتّسمان بطابع التحدّي.. وكأنهما جنديان متحفزان للقتال.. و..شفتاه منفرجتان دائماً ربما عن أمل يلمع في أسنانه البيضاء التي تصطفّ في إتقان.. وفوق ثغره يربض شارب أسود رفيع كساه الشباب رمز العنفوان.. ونوعاً من الغرور... حلّ صمتٌ متقطّعٌ بينهما يتخلّله صوت حفيف الأغصان وهي تحتكّ ببعضها بحب..وهمسٌ لزقزقة عصافير تنشد بحبٍّ أحلام المواسم.. وخرير النهر البعيد يرتبك من الحصى التي ينثرها الصبية في دربه وهم يعبثون من حوله ويضحكون ملء أشداقهم..

تنهّد عابد بسرور من أزاح عنه غمامة سوداء وأشرق وجهه من جديد وشرع يقول بارتياح:

- في الحقيقة فقد ركبت حنطور صديق لي وذهبنا سويّاً لنتجوّل في بعض القرى كما هي عادتنا.. وفي الطريق صادفنا هؤلاء الجنود، سألونا إلى أين تتّجهون فلم أتمالك نفسي من أن أجيبهم من أننا أحرار نتجول في بلدنا فكبت الجنود غيظهم بما أنهم لاحظوا أن منظرنا من الأعيان ثم سألوني لماذا لا ترتدي الطربوش وكنت قد وضعته في حجري.. فقلت لهم بأنّ هذا الأمر يعنيني وحدي..هنا فاض غضبهم فبدؤوا يكيلون لي الشتائم. حاول صديقي إسكاتي من شدّة خوفه وعندما عجز، بدأ بمناورتهم فأمرونا بالترجّل من عربة الحصان ثم انطلق صوت رصاص من الغابة القريبة فتنبّه الجنود إلى مصدره، وفي اللحظة ذاتها آثرت الفرار حتى لا أقع في قبضتهم وأتأخّر عن العودة إلى داري.. أمّا صديقي فلا أدري ما حصل معه بالظبط ولكنّي واثق بأنّه سيخلّص نفسه فوالده صديق شخصي للقائمقام..وقد اعتاد على مشاكساتي مع الجنود وزجّه بمشاكلي التي لا تنتهي فلا شكَّ أنّه سيغفرُ لي هذه المرّة أيضاً..

سألته وهي تضحك:

- ولماذا تعرّض نفسك للمشاكل وأنت بغنى عنها خاصة مع هؤلاء الجنود الأغبياء؟

شرد ببصره نحو البعيد وردّ بغضب:

- لأنهم محتلّون حاقدون.. لا يحبوننا.. هل سمعت عن مغتصب يحبّ من اغتصبه أو يحترمه يا آنسة ميرا؟.. صدّقيني إنّ نصف ليرة عثمانية واحدة تشتري هؤلاء الجنود الذين لاحقوني وتكفي لإسكاتهم..بل قد يغضّون النظر عن أشياء أكثر أهمّية..

ردّت وهي تعتصر في رأسها المعلومات التي درستها في المدرسة:

- أوافقك الرأي ولكن رغم مقتي للعثمانيّين وتأثيرهم السلبي على بلادنا فقد كان للاحتلال أيضاً على مرّ التاريخ تأثير حضاري على الشعوب.. فإبان الحرب الصليبية خلّف الصليبيون لنا في لبنان قلاعاً تاريخية، مثل قلعة شقيف وسان جيل وغيرها..وانظر الآن ما نسمع به عن بيروت العاصمة التي تكتسحها بضائع الإفرنج وتزورها المراكب الأوروبية التي سمح لها العثمانيون بالمجيء إليها والفوائد التجاريّة منها..وينعتونها أنفسهم "بالدرّة الغالية"..

فترت نظرته وكأنّ حماسه قد خفت مع إجابتها.. ولمحت كلماته دون أن ينطق بها تدوي عالياً في وجهها..أي إيجابيات تلك التي يمنحها المستعمر دون إراقة دماء وإهدار حقوق وتصدير حريات؟...

اخترقت صمته الذي فهمته بالإيماء وقالت كأنها تدافع عن مبدئها:

- لست أعني هنا بأن الاستعمار جميل ولكني أؤمن كما قال ميشال إده الذي درست عنه بأنّنا يمكن أن نحوّل من الصخر نحتاً جميلاً ونصنع من الظلمة نوراً نتلهّى به إلى أن تنتهي بالخلاص.. لا أحد يرغب أن يظلَّ أسير أحزانه إلى الأبد.. والاستعمار لا بدّ له من أن يندحر يوماً ما.. فلكلِّ شيء نهاية..

احتلّت الدهشة نظرة عينيه وهو يرمقها باحترام.. هي متعلّمة إذن.. من القليلات بل النادرات اللواتي أزمعن على الخوض في عالم النور حتى لا يتخبّطن في الجهل والعادات البالية..

وأجابها مع إعجابه بمعرفتها:

- لقد أدّت التجارة الواسعة في أسواق بيروت إلى خلق طبقة برجوازية تكنُّ أشدّ الحقد للإقطاعيين.. وهي تسعى لمساندة الفلّاحين..إذن هناك من يشدّ من أزرهم ويعينهم رغم تكاثف السجف على ميناء حياتهم.. وها هم الفلاحون في مدينتك زحلة يعيّنون مجلساً بلدياً يرأسه شيخ شاب تنحّى عن تقديم الطاعة العمياء للعائلات الإُقطاعية.. الثورة الكبيرة قادمة لا محالة..

هزّت رأسها موافقة..للمرّة الأولى تعثر على شخص يشبهها في حبّ المعرفة ولا يتوقّف عند جمالها وقدّها..

تحدّثا كثيراً وعرفت أنه درزي ينتمي إلى إحدى العائلات الإقطاعية وقد حدست بهذا عندما عرفت اسم قريته فأغلب ساكنيها من الدروز.. وألمّ بأنها مسيحية المذهب من أهم العائلات العريقة الأصل في زحلة..قال لها وهو يضحك: "أنتِ من العائلة التي بزغ بسببها تحدّي بطرس الدامغ الشاجب.. أحسدكِ لأنّ التاريخ

سيخلّد عائلتك"..عندما سألته عمّا يرمي إليه وعدها بأنّه سيخبرها في اللقاء الثاني عن الأمر...

سألها عن الكهف فأجابته بأنّه من اكشافاتها العظيمة وضحكا طويلاً.. وساد صدى روحه الجميلة على المكان وكأنهما لا ينتميان إلى زمن مثل زمنهما مرهق بالدسائس والقلاقل.. وارتاحت له رغم أنها لم تتكلّم يوماً مع أي شاب ولم تسمح لنفسها بأن تتجاوز معرفتها بأيّ كان حدود السلام...

ولم تشعر معه بذلك التوجّس الذي التمسته في الأحاديث الليليّة الدائرة بين الأهل والجيران عن الدروز وعن البلبلة التي يحدثها إقطاعيّوهم في صفوف المسيحيين وبفرض سلطانهم عليهم...

هي لم تفتح بابها ولم تشرّعه في وجه الآتي.. إنّ الآتي سعى إليها بقدميه وركل الباب كي تفتح له.. إن خطيئتها بأنها لم تبحث عن الأسى بل هو من بحث عنها وتلقّفها بين ذراعيه.. وكان عابد مفتاح هذا الباب الواسع لدنيا أخرى كانت تجهلها وتمنّت لو لم تعرفها..

وكان هذا الفصل الأول من شدو حياتها السافرة بأحزانها وتقلباتها..

في لقاءاتهما الكثيرة التي توالت بعد ذلك على باب الكهف الصغير الذي شهد وحياً إلهيّاً للعشق حدّثها كثيراً عن شغفه بالصيد وعن علاقته بأبويه وأخوته وعن تمسكه بعقيدته الدرزية.. وتطرّق أحياناً للحديث عن وضع البلاد.. فقال لها يوماً وهي ساكنة كعادتها تصغي إليه بملء قلبها:

- لقد دافعت عنكم فرنسا باعتباركم موارنة وهي تكنّ لنا حقداً دفيناً وتعتبر أي هفوة ترتكب في حقكم وكأنها مسّتها هي..فأنتم أولاد عم في العقيدة أولاً

ومصالحها تكمن في موالاتكم لها ضد الانجليز..أما نحن فقد عقد معنا الإنجليز اتفاقاً عام 1941 للحفاظ على حقوقنا.. وهكذا أصبح هناك منبران: منبر انجليزي – درزي، وآخر فرنسي- ماروني. وكلّ منهم يمدّ مناصريه بالمال والسلاح..ولكنّ الطرفين يراوغاننا فهما يسعيان لزرع بذور الفتنة بيننا وتأجيج انفعالاتنا من أجل مصالحهما الخاصة وصدّقيني يا ميرا لن يضيع في طاحون المعركة إلّا نحن، نحن الإخوة اللبنانيين..

سألته ببراءة لا تفقه الحقد:

- والعثمانيّون ما هو موقفهم؟
- العثمانيّون يا ميرا هم الأنذال من الرجال.. يخالون أنفسهم فوق المحاور ولكنّ سياستهم في الحقيقة ضعيفة ولهذا عمّت الفوضى بالبلاد وزاد الحقد الدفين في الطوائف الدينيّة على أنواعها وخاصة الطائفتين المارونيّة والدرزيّة... تصوّري أن خلافاً دبّ بين طفلين في بيت مري أحدهما درزي والآخر مسيحي وهما يلعبان بالحجارة.. فتطوّر الخلاف إلى معركة طاحنة بين الطائفتين أهرقت فيها الدماء في البلدة وشاركت فيها سائر قرى المتن.. فهل يُعقل هذا؟..في أيّ زمن نحن وأي وحشية تلك؟

سكتت لتتفكّر في الأمر ثم سألت بمزيد من الفضول:

- ولكنّنا نعيش في نظام القائمقامتين وهو نظام معقول يتيح للطائفة المسيحية والدرزية أن يكون لكلٍّ منهما قائمقام..

ضحك لبراءتها فتضرّج وجهها بالدماء وردّ وهو يربت على ضفيرتها المتدلية من تحت المنديل الطويل الذي عقدته حول رأسها:

- لا يا ميرا..عذراً إن نحّيت الألقاب جانباً ..فأنا أشعر بأنّنا قد أصبحنا صديقين.. إنّ هذا النظام لم يقتصر فقط على التقصير والفشل بل نمّى بذور الصراع الطبقي بين الإقطاعيين وعامة الشعب فثار الفلاحون على الإقطاعيين ولكنّ الفلاحين الدروز والفلاحين المسيحيّين لم يتّحدوا سوياَ ضد الإقطاع نتيجة الفتن الطائفية التي غرست في قلوبهم فاستغلّ الإقطاعيون الدروز والمسيحيّون هذا الأمر لصالحهم وأقنع كل طرف فريقه بضرورة التربّص للطرف الآخر الذي يريد به شرّاً..وهكذا أصبحت بساطة الفلاحين حقداً موروثاً للالتفاف حول عقيدتهم وزعمائهم والتصدّي الثاقب للطرف الآخر بديانته الأخرى..نحن لا نتّحد ولا نعدّ أنفسنا لمواجهة الآخر بالحكمة والرزانة.. خذي مثلاً على هذا أم الأمير فخر الدين الثاني.. إنّ "نسب" وهو اسم والدته هي من أعدّته لمواجهة الحياة وتطويق أخطارها بما يمليه العقل وتحكمه البصيرة، فلماذا لا نحتذي نحن عامة الشعب حذوها؟ لماذا لا نعدّ أطفالنا للتوحّد والمواجهة السلمية بلا دماء تُهرق ودمع يسيل؟

أطرقت رأسها أسفاً وهي تفكّر ملياً في كلامه الذي بدا لها مقنعاً.. لقد سمعت أباها يوماً يتحدّث مع جارهم مارون حول الموضوع وهما ساهمان متكدّران.. يترحّمان على أيام الأمير بشير الثاني الذي أنصف الموارنة وعزّز دورهم في البلاد.. متهجّمان على الدروز الإقطاعيين والفلاحين على حدّ سواء..

وتكلّما كثيراً يومها..حدّثها عن حبّه للأمير بشير الثاني الشهابي الكبير الذي ولد لعائلة سنيّة لكنّه اعتنق المسيحيّة وسميّ بأمير الدروز.. ضحكا معاً لهذا التنوع الطائفي في هويته.. كان عابد بالرغم من أنّه لم يبلغ العشرين من عمره فقط إلا أنه ملمّ بالكثير من جوانب الحياة السياسية والاجتماعية.. لم يكن مغروراً بأصله

كما كان معظم الشبان الإقطاعيين ولم يكن معتدّاً بنسبه وحسبه ولم تعنه كل تلك الهرطقات التي كان يعدّها ضرباً من ضروب السفاهة والتبذّل..إنّ قراءة كتاب لديه أهم من أي استعراض باشوي على الحصان.. وهذا ما يفعله عادة معظم أولاد الطبقة الإقطاعيّة الذين يغرقون في ملذّاتهم ويعيشون على الهامش فقط.

وكانت تلك الأيام أكثر أيّام بطرس شاهين شعبية وشهرة..ذلك الرجل الذي تسمع عنه في كلّ مكان..همساً وجهراً..

وعندما سألت عابد عنه روى لها قصصاً عن بطولات هذا الرجل الذي تضجّ البيوت بشهرته ..كان يؤيّد ثورته بالرغم من أنّه رجل بسيط بيطري حدّاد..وقد قاد قطاعات مسلحة من الفلاحين وثارَ على النظام الإقطاعي العنيف...وأوعز الثورة في النفوس الضعيفة...

استغربت كره عابد للنظام الإقطاعي رغم انتمائه إليه وأعجبها فيه تمرّده على بيئته وواقعه وتقاليده وشغفه ببطرس الذي يؤيده في مطالبته بالديمقراطيّة وبرفع النظام الإقطاعي يده نهائيّاً عن الفلاحين..

ولكنّها سمعت أباها وأقاربه ينعتون هذا الرجل بقاطع طرق ومثير للمشاكل والبلبلة وأنَّه محض ناقم على الإقطاعيين واعتبروه كابوساً يجلب النحس والخراب للبلاد.. وأنّه من الدهاء بحيث مدّ جسراً من التناغم بينه وبين الإنجليز والعثمانيين ولم يُغضب أيضاً الفرنسيين.. فكان بهذا متعدّد الوجوه لا يستوي على قاعدة محدّدة.. وكانت ترتعد لمجرّد ذكر اسمه لما له من وقع سيِّيء على عائلتها وأبيها على وجه التحديد..

وكان مما يُراج عن سبب الحقد الكامن المزعوم في أعماق بطرس اتّجاه السادة الأغنياء بأنّه شهد فصولاً من التهويل الذي مارسه آل شاور على أبيه في

محاولات صدّه عن التقرب من الفلاحين من غير جدوى.. فقد كانوا يتجمهرون حول والده في شبه هتاف.. وقد يحمله البعض على أكتافه حبّاً وامتناناً لخلقه الجميل.. وقد نجح أبو بطرس في اكتساب ثقة من حوله.. فكان مستشاراً لهم في قضايا كثيرة تخصّ حياتهم الخاصة والعامّة..وكانت النساء تتهافتن على تقديم أطباقهنّ الشهية له والرجال يتودّدون إليه في شبه تقديس من فرط احترامهم له.. كلّ هذا أثار تشويشاً في فكر حاكم من آل شاور وشكّاً في نوايا هذا العامل البسيط الذي نجح في تليين طباع الناس وكسب ودّهم.. فحقد عليه بسبب روحه القياديّة والتفاف الناس حوله وكأنّه زعيم أو صاحب قرار.. واعتقدوا بانّ الشرّ دائماً يبدأ عندما يكون هناك قائد للناس يؤمنون به فيخترقون الشعاب معه ومن أجله تماماً كما يفعل البشر اتجاه أنبيائهم..والقائد يشبه النبيّ في التوجيه والتحريض وتثبيت العقيدة..وعالم الأسياد ليس في حاجة لأنبياء ينذرون ضعفاءهم بل لمزيد من السلطة والحزم والظلم.

لهذا سعى هذا الشاوري إلى قتل أبيه مسموماً من فنجان قهوة أرسله إليه مع أحد العاملين لديه.. وضاعت معالم الجريمة وطُمست كما يُطمس أيّ حقّ في عصور القوّة.. تلك العصور التي تستمدّ قوّتها من عالم الظلام والشر في صدى خائب للضمير..إنّها عصور تتكرّر كالشمس والقمر مع اختلاف شخصياتها الرئيسيّة والثانويّة.

وعندما رأى بطرس والده يتلوّى من الألم بعد أن شرب قهوته ويتكوّر على نفسه في زاوية دكّانه صارخاً مستجيراً لأول مرّة بالناس كاد يهوي من فرط الخوف والشفقة.. لقد قتلوا أباه أمام أعين من أحبّوه ومن أصغوا إليه ومن حاول أن يعبّ من النور حكمة ليمدّهم بها.

كانت آخر كلمات أبيه الذي سمعها تندفع من فمه متحشرجة بالألم صاخبة بالحسرة : "أحببت الناس البسطاء المساكين فقُتلت"...

حدّق بأبيه يومها بلا هدى ولم ينبس بحرف بل أطلق ساقيه للريح وانضوى تحت ظلّ القمر ينشج وحيداً وهو يتلوّى من الصدمة الحارة..كأنّ الناس باتوا جميعاً في عينيه أمشاجاً مكدّسة في خوابٍ من الحقد الأعمى..

ولم يعد إلى البيت حتى أرسلت أمه، وكان وحيدها، رجالاً من العائلة يبحثون عنه في البراري يحملون مشاعلهم وينادون باسمه بصوت جهوري اخترق أذنيه فهرع إليهم مستسلماً وهو يخبّئ جرحه في طيّ صدره الصغير ويداري دموعه حتّى لا تلمحها أمّه الثكلى بفجيعتها.

كان بطرس قد أصغى في طفولته لأبيه كثيراً وهو يلمّحُ قبل مقتله بعمق الصراع الدائر بين الفلاحين وأسيادهم فأثار حفيظة آل شاور ولم يتركوه وشأنه حتى أردوه قتيلاً..هذا المشهد الدموي الذي ذهب أبوه ضحيّته حفر أعمق الأثر في نفسه فكوّن له هذه الشجاعة النادرة وزيّن له حبّ الإنتقام.

ويقال بأنّ الانتقام حائلٌ للحقّ وغريم له.. فالانتقام ينهل من قوة الظلام ويتربَص في العتمة لينقضّ على الظالم وعيناه تزوغان وهما تبحثان عن ثغرة ينفذ منها النور بلا جدوى فيتعثَّر من الإعياء ويقع مع الظالم متمسّكاً بتلابيبه في الظلمة إلى أقصى هاوية..بينما الحقَ ينهل من قوة النور فيغرف منها عزيمته ويشدّ بها سلطته وينطق بها فيعكس امتداد ظلّه على المظلوم فيحرّره من الضغينة ويجعل من الحقِّ سلطاناً مبيناً ويُلحق بالظالم شرّاً مستطيراً..هذا ما يُقال.. ولا أحد يدري منبع الحقيقة أين..

وفي مقتبل شباب بطرس شهد الناس على حادثة أليمة أخرى ألمّت به وكان هذا بعد مقتل أبيه بسنوات.. فقد أحبّ فتاة من عائلة شاور.. تلك العائلة التي نكأت به وشرّدته وأمّه إلى أقصى مكان في البلدة.. لم يختر قلبه إلّاها ليخفق بخدر لذيذ يدبّ في أوصاله كلّما رآها وهذى شغفاً بها..

بل يُقال بأنه كان يقضي الليل وهو يكتب فيها أسراراً وعن قلبه أحوالاً..وصرّح بهذا الحب لاثنين من أكثر الناس أمانة في نقل الحكايات في بلدتهم الجميلة..وقد قوبل بلوم شديد..إذ كيف يعشق من لأقاربها صلة مباشرة في مقتل أبيه؟ أبلغ به القلب ذاك الدرك من الاستهانة؟..

لم يبالِ بطرس ولم يعطِ أذنيه لصديقيه الأمينين بل أجاب بالصمت الصارخ وكأنّه يدع الحكم لقلبه وحده بلا أيّ شريك.

ولم تلتفت إليه الفتاة بسبب الهوّة الطبقية التي تفصل بينهما بالطبع.. غير أنّه لم ييأس ولم يئن حزناً..ربّما كان على ثقة بوسامته وملاحة وجهه ورشاقة قدّه وسعى للفت انتباهها مرّات ومرّات..فمرّة يهرع للعراك عندما يلمح أيَّ شاب غريب يقترب منها وهي على حصانها مع خدمها فينال نصيبه من اللّكم والضرب..وفي مرّة أخرى عرّض نفسه للموت عندما كانت في نزهة على حصانها فارتطم حصانها بصخرة ناتئة بعد أن فقدت السيطرة عليه فلفظها وتدحرجت بقوّة على سهلٍ شديد الانحدار والصعوبة فلمحها وهرع صوبها كالبرق وجعل من جسده سدّاً يمنعها من السقوط في أسفل الهاوية وتكبّد من أجلها كسوراً في يده اليمنى ظلّ يعاني منها شهوراً طوالاً.. ولكنها شحّت عليه بالالتفات لحاله .. ولم تشكره بكلمة واحدة..

وبلغ من شدّة ولعه بها أن ذهب ذات صباح إلى العاصمة بيروت فاشترى بسطاراً إفرنجياً مما يلبسه الفرنسيون وعاد به إلى القرية وهو يضع فيه قدميه ليتباهى به أمامها.. فلمحه حاكم من آل شاور واستبدّ به زمهرير الغضب وصاح:

- أنت أيها الفلاح الحشرة.. كيف تتجرأ أن تقلّدنا وتلبس بسطاراً يماثل ما نلبسه من الأحذية؟

ردّ عليه بطرس بثقة ومن غير أيّ خوف:

- إنّ هذا البسطار من حرّ مالي ولا أحد له الحقّ في محاسبتي..

فما كان من الحاكم الذي فاض غضبه واستشاط قهراً وغيظاً وبلغ حدّ الطوفان المنذر بالويل إلا أن صرخ بصوته الجهوري:

- حرّ مالك يا ابن الفلاحة.....

وأمر أعوانه فعلّقوا بطرس على جذع شجرة وسط ساحة القرية وربطوه بحبال وثيقة وهووا عليه جلداً بالسوط الخيزراني الصدئ.. فالتهب جسده وتقرّح.. ولكنه لم ينتحب ولم يصرخ بل تحمّل و كتم الوجع حتى لا تلمحه الفتاة التي يحبّها فتشفق عليه أو تسخر منه.

أما حذاؤه فقد أحرقوه له ورموا برماده أسفل جذع الشجرة حتى يصبح تقليد الأغنياء من المحرّمات الكبرى التي قد ترتكبها النفس الفلاحية الوضيعة التي إن تجرّأت وجرّبت رفع مقامها تُدهس بالنعال.

أصبح يومها عبرة لمن اعتبر.. وروى الراوون هذه الواقعة في سهراتهم المضيئة تحت سقف النجوم الراقصة.. وارتُشفت كؤوس الشاي وترنّحت صاخبة في جوّ من الضحك بين أيديهم، وشاربوها يستعيدون هذا اليوم التاريخي

المشهود.. منهم من يذكره على سبيل النكتة ومنهم من يشير إليه بإكبار على أنّه حدث بطولي لشاب فلاح تخطّى بجرأته الحدود الظالمة للإقطاعيين وتحدّى أنانيّتهم واستبدادهم المقيت.

ورغم هذا لم ينهزم بطرس.. بل إنّه فرح بهذا الظلم فرحاً مبيناً لأن الفتاة بدأت ترنو إليه بفضول وتسأل عنه.. كانت تريد أن تعرف أكثر عن هذا الشاب القرويّ الفلاح الذي تجاسر على تحدّي عائلتها السامية الراقية.. واعترضت سبيله ذات صباح وأمطرته بوابل من الأسئلة..كانت تريد أن تعرف سرّ اهتمامه بها ولماذا يخاطر بنفسه في سبيل لفت انتباهها...

ونشأت قصة حبٍّ رقيقة بينهما عرفها فقط هذان الشخصان الأمينان في نقل الحكايا في القرية وهما من أصدقاء بطرس المقرّبين كما ذُكر سابقاً وكان من الممكن أن تتكلّل في الكنيسة لو أنّهما عاشا في زمن يحترم فيه الإنسان أخاه الإنسان فقيراً كان أم غنيّاً.. وتوسّل إليها أن يهربا سويّاً إلى فلسطين..ولكنّها أبت بكرامة وتعنّت.. كيف يمكن لها وهي سليلة الحسب والنسب أن ترضى بهذا الذلّ لها ولعائلتها؟.. كيف يمكن أن تعيش حياة الفقر والعوز بعد أن أشبعها العزّ سطوة ومالاً ونفوذاً؟..سيسلبها طاحون الكدّ معه في حياة فقيرة شبابها من غير طائل وستصبح نكرة لمجتمعها بأسره..وسيعيّرُ الناس أبويها بفعلتها ما حييا.

ثم إنّ سطوة عائلتها هائلة وستطالهما أينما هربا وتعثر عليهما فتعيدها مكبّلة بالخزي والعار.. فنبذت حبّه بتعفّفٍ من يعفُّ عن المحرّمات وكأنّ العشق في ناقوس الأغنياء شياطين توسوس للسلاطين..

ويُقال بأنّها قبلت الزواج من فورها من قريب لها تقدّم لخطبتها حتى تفرّ من هذا الحب وتسلم عواقبه مما زاد من حقد بطرس على الإقطاعيين وأجّج نيران

الغضب الراكد تحت رمال متحركة في صدره..ولم يستطع أحد أن يعرف اسم هذه الفتاة الجميلة من آل شاور التي سحرت قلبه ثم صدمته ورمته قتيلاً في هواء الصحراء الثقيل الذي يسمّونه الهجر..وكَثر الهمس واللّمز بين أبناء زحلة وذهب البعض إلى القول بأنّ الفتاة حملت منه واضطرّت عائلتها لتزويجها بسرعة من رجل قريبها تستّراً على الفضيحة.

وقد سألت أمها يوماً إن كانت تعرف من هي تلك الفتاة التي سلبت بطرس لبّه علّها قريبتها بما أنها تنتمي لعائلتها نفسها فلم تحر جواباً.. وتكدّست نظراتها وراء أكوام ثقيلة من الصمت وكأنّ ذكر هذا الحدث كان مشوّهاً لسيرة تلك العائلة الكبيرة ومسمّماً لها..

وعندما ألحّت في السؤال والتكرار أجابتها أمها وعيناها تطرفان بألم:

- هذه قصة قديمة تشبه الأساطير وربما كانت مختلقة أيضاً من بعض الفلاحين الذين يريدون أن يظهروا بطرس بمظهر البطل..

عندئذ أعادت سؤالها بفضول:

- ولكنّ بطرس هو بطل فعلاً بدليل أنّه يحظى بشعبية كبيرة وأن العثمانيين لم يتعرّضوا له بعد رغم احتقار الإقطاعيين له وبغضهم إياه.. ويُقال إنَّه قد لحق به بسبب عائلتنا الكثير من العذاب..

ابتسمت أمّها بمرارة وأجابت:

- ولكن بطرس متقلّب الطباع يغيّر أقنعته في أي لحظة.. فقد يكون في أحسن حال مع العثمانيين، وفي الوقت نفسه يمدّ جسوراً ثابتة مع الفرنسيين والإنجليز، وهذا دليل على أنّه يمتلك شخصية خطرة تتّسم بالخبث والدهاء

وليس فقط بالذكاء.. وإن كان قد عشق الفتاة فعلاً التي أخبرتني عنها فمن حسن حظّها بأنّها ابتعدت عنه حتّى لا يسحقها في خضمّ بحثه عن السيطرة والفوضى..

لم تعجبها طريقة أمها بالحديث عن بطرس ولكنها التزمت الصمت بعد أن لمحت نظرة عصبية تشعّ في عينيها وكأنّها تريد أن تنهي الحديث عنه.. ولم تكن تريد أن تثير غضب أمها..

ولكنّها لاحظت بأنّها تتابع أخباره أيضاً من بعيد وتُرهف السمع لأيّ خبر يأتيها عنه وقد تسمعها بالصدفة تسأل إحدى قريباتها إن كان هناك أخبار جديدة عنه..هل تعرف أمّها هذه الفتاة التي كانت ملهمة بطرس ومحرّكة أفكاره وتطلّعاته؟ هل هي قريبتها؟ ولماذا تتستّر عليها؟...قد تكون تزوّجت فلم ترد أن تشوّه لها سمعتها أمام الغرباء أو ماتت فأرادت حفظ سرّها.

كانت أمّها كتومة الطبع ولكنّها هادئة تنشد السلام والأمان ولم تسعَ يوماً إلى الثرثرة والتمادي في الكلام..وربّما كان هذا سرّ غضبها منها عندما فاتحتها بموضوع بطرس..حتّى جدّتها شتمتها وكادت تصفعها عندما لفظت باسمه أمامها، وكأنّه نكرة محرّمة..

كيف يمكن للجميع أن يكونوا قساة القلوب إلى هذا الحدّ مع رجل مثل بطرس قاسى مقتل أبيه على أيديهم وهجر حبيبته له بسببهم؟

إنّ لهم قلوباً قاسية لا تعرف الرحمة ولا الندم..كم تشعر بالخزي من جرّاء ما فعلوه به وبأبيه..

بطرس.. بطرس.. ما لهذا الاسم يتردّد كثيراً همساً وجهراً.. سرّاً وعلناً في زحلة وخارجها وحتّى بين الأطفال الذين يلعبون في الحارة قرب الساقية الممتدّة على طول ذراع البستان المجاور للساحة..

إنّ الفلاحين في مدينة زحلة يتهافتون لقضاء سهرات تجمعهم حول قنديل خافت وأكواب الشاي ترتشفها الشفاه الجافة من عطش النهار بشغف ولهفة كتهافتهم للحرية التي كبتتها طويلاً سياط الأسياد الإقطاعيين وتهميشهم إلى قاع المجتمع الدوني.والآذان تتهلّل وتشنف بإصغاء آسر لذكر اسم بطرس.. حتّى إنَّ بعض الفلاحين قد ذهبوا إلى حدّ اعتباره كاهناً روحياً لهم ينصاعون له دون تردّد أو تذمر أو شكوك لأنه مدنّس عن كل خطأ ومحرّر من كل ذل.. فهو كالمخلّص يسوع يعبر بضآلة جسده إلى ماهية الأرواح المعذّبة ليخلّصها من الهوان والخطيئة.. خطيئة الصمت على الحق.. وقبول الباطل..

وقد اعتقد آل شاور أنّه بقتل أبيه سيقطعون شريان الثورة الذي يقلقهم ويقض مضاجعهم ولكنّهم لم يأخذوا عبرة بأنّ هيرودس الأول حاكم الجليل هو من أمر بذبح كل مواليد بيت لحم عندما تناهى إليه بأنّ المسيح قد ولد فيها وابنه هيردوس أنتيباس هو من أعدم يوحنا المعمدان وكان أحد القضاة الذين مثل المسيح أمامهم..فظلموه وآلموه.. لقد آمنت بأن أرواح الناس تُستنسخُ من جديد في أزمنة أخرى رغم أنها تولد من أرحام أخرى..فالشرّ يبقى شراً ينتمي لعالم الظلمة الشيطانية الحالكة والنور يبقى نوراً ينهل من ملكوت السماء الإلهي.

هذان الحاكمان كانا من القوم الأغنياء الأسياد وكانا مهابان من الجميع ويسوع كان راعياً بسيطاً ولكن شعاره كان بأن الحبّ مجد والكراهية عار..فلماذا يكره الأسياد الفقراء ولماذا هذا الإجحاف الصلب في حقهم؟

هناك قولٌ للفلاح متّى والذي كان أبواها يعدّانه حارساً شخصيّاً لها من خوفهما عليها إلى أن جمعتها به قصّة تخشى ترديد صداها.. أعجبها هذا القول منه واستقرّ في أعماقها.. بل ظلّ يلازمها حتى وهي تقبع بين جدران الكنيسة الصامتة على ضفاف التلّة الشاهقة..

فقد غامرت وسألته ذات صباح بدافع الفضول وهو يعمل في الحقل متفادياً رؤيتها كالعادة بعد القصّة إياها بينهما والتي ستأتي على ذكرها، ما الذي يدعو الفلّاحين لاقتفاء أثر بطرس دون تبصّر كمن يتخبّط في عزّ الظلمة وهو راض.. فهزّ رأسه وببساطة الفلاح القروي البسيط الذي لا يجرؤ على النظر مباشرة في وجه أسياده حتى وإن كانت هي من تكلّمه أجاب وهو يسلّط عينيه نحو الأرض وكأنّه يحلم:

- هل تدرين يا سيدتي لماذا تهتزّ السنابل بشموخ تحت سقف السماء وتعلو على رقاب البشر؟ لأنّها خيرٌ منهم... نحن نرضى أن نعيش بذلٍّ ونموت بذلٍّ ونتذلّل السماح والرضا كأقزام مطأطئي الرؤوس مقبّلي الأيدي لا نستطيع أن نؤثر كرامتنا على قوّتنا كما تفعل تلك السنابل التي تلوح تحت الشمس متلألئة كالدرر.. فتضيع الكرامة وإن ضاعت الكرامة ضاع الإنسان.. والجمر تُلهب موضعها فقط سيّدتي الكريمة..لن يستطيع الغني إدراك جرح الفقير لأنّه من عالم مختلف ومن مشاعر أخرى..

لم تكن تدري أن كلام فلّاح بسيط مثل متّى رغم أنه يعيش في حقولها مع أهله وأجداده منذ عهود طويلة وتعرفه منذ تفتّح بصرها على هذه الدنيا يمكن أن يزلزل حواسّها لتلك الدرجة وقد مادت بها الأرض قليلاً وهي تتشرّب ما صبا إليه من المعاني وقد شعرت أن هذا الكلام يعنيها هي.. ويعني أباها وأمّها.. تراها

نسيت أنّ أباها من الإقطاعيين الأغنياء وأنّ أمّها مثله تنتمي إلى عائلة آل شاور؟.. أم تراها تناست ما فعله به أبوها في ذاك اليوم البعيد المشهود؟...

لا لم تنس هذا بالطبع...ولكنّها تريد أن تنسى وتريد أن تتناسى.. ولم يخطر ببالها قط أنّها قد تنشد النسيان بكلِّ وجوهه وهي المغترّة بأصلها وحسبها ونسبها كما تعلّمت من أمها وتشرّبت من أبيها الذي كانت دائماً تعلّل قسوته مع الفلاحين بأنّها موروثة عن أبيه وجدّه وجدّ جدّه..وأنّ القسوة هي التي تليق بمن يخدم ويفلح ويحرث لهم الأرض مقابل المال..

متّى هو فلاح بسيط ولكنه جبّار بملامحه الفتيّة التي تطمح للكثير وقد كان أبوه فلاحاً أيضاً ولكنّه مات مؤخّراً وهو يعمل في الحقل.. كان طيّباً معها مثل ابنه متّى الذي يكبرها بأعوام قليلة..

وعندما كانت طفلة لم يكن من اللائق لها كما أخبرتها أمّها يوماً أن تلعب معه أو تتحدّث إليه.. كانت ترضى فقط أن يرافقها وهو يسير وراءها حتى يحميها من قاطعي الطرق أو من مشاكسات بعض الأولاد أو يوصلها لدار راجحة.. بالرغم من أنّها كانت تتوق لمجالسته والتماس أسئلة على أجوبتها الكثيرة منه مثل: كيف يعيش الفقراء؟ وما هو طعامهم؟ وهل يستطيع متّى أن يلعب كبقيّة الأطفال من طبقتها هي؟..

بل إنّها ذهبت يوماً إلى حدّ التفكير بمدى تقبّل المسيح صلوات الفلاحين.. وهل تصله من صراخ حناجرهم التي صعقها البرد وطمرتها الحاجة أم إنها تتحشرج قبل صعودها إلى السماء فتختنق وتموت وتتقهقر لتعود من حيث أتت؟...

ولكنّ المسيح كان فقيراً هو وأمّه السيّدة مريم.. وقد ولد في كهف ضبابي ولم يولد في قصر ملكي.. فكيف يبرّر للأغنياء نظرتهم السادية نحو الفقراء المساكين؟ وهل يرضى بهذه التفرقة ؟ وهل سنّها الرب أم العبد؟

لقد منّ الله عليهم برزق وفير فلماذا لم يعط مثله لمتّى وأهله؟ هل هم أتقياء خيّرون وأهل متّى ضالّون شرّيرون؟

لماذا هذه المعادلة الخاسرة بين الأغنياء والفقراء؟ هل يولد بعضهم للسعادة وبعضهم الآخر للشقاء؟ وشبح الحرمان الذي يطبق على شفتي وعيني متّى لا ظلّ له عندها بل هو امتدادٌ لظلّ أبيه وأمه.. أورثوه إياه كما أورثوه مهنة الفلاحة والطاعة العمياء للأغنياء.

وبقدر ما كان عليها أن تتوغّل في تلك الأسئلة المُلحّة بقدر ما كانت تتفرّس بصمت تلك العيون الواهنة التي تلمع في الحقول بدمع شقيّ واستسلام أعمى استسلم لمشيئة العبد الأقوى.

وكانت تعرف أنّ متّى يرقبها بعينين صامتتين والهتين وهما يكبران سويّاً.. وأنّه يسرق من الزمن لحظات عابرة ليكون قريباً منها مستخدماً أيّ حجة.. وقد كان يرافقها في الذهاب إلى المدرسة أو عند راجحة بطلب من أمها عندما تكون مشغولة في شؤون المنزل..وينتظرها ليصطحبها في طريق العودة وهو كالأخرس لا ينطق بأيّ حرف حتّى لا يزعجها.

كان يخاف عليها أكثر من أمّها وأبيها ويعترض سبيل كل من تسوّل له نفسه من الشبان بأن يرميها بنظرة فاحصة.. وقد تعرّض للضرب المبرح مراراً وهو معها من الشبّان الذين كانوا يفترسونها بنظراتهم الثاقبة..أو يغازلونها بطرف أعينهم

حتّى عزمت على عدم اصطحابه معها مهما كانت الظروف وتراجعت بعد أن ركع متوسّلاً إياها أن تغفر له...

لقد كبرت معه بمودّة رغم إصرار أمّها بأنهما ينتيمان إلى عالمين مختلفين وحرصها على إقامة الحواجز والحدود بينهما وإصرارها عليها بأن تتعامل معه بتعالٍ كبير..

ربّما أمّها لم تعرف يوماً بأنّ الأرواح الإنسانية لا يمكن أن تخضع لقانون الطبقية.. فهو إنسان له يدان وقدمان مثلها وله قلب يخفق وذهن يعمل.. إذن ما هي الخطيئة التي تقترفها في عين الله إن هي عاملته بالرفق والود؟ لقد تعلّمت في الكنيسة أن لا تهاب إلا الله وتتحاشى أذية الغير..وأن ترسم بالمحبّة خارطة الكون والعالم.

حتّى جدّتها التي كانت تصرخ في وجهه كلّما رأته لسبب أو لغير سبب كانت تحدث في نفسها ثورة عارمة تدفعها لأن ترمقها بعينين غاضبتين وأن تعامله بحنوٍّ كبير نكاية فيها.

وكم كانت مشفقة عليه في الخفاء..عندما لا تكون عيون الأهل رقيبة عليها.. فتعطيه من زادها وتلتقي به في مكان بعيد عن العيون عند تلّة بعيدة عالية تجاذبه أفكارها وتتجاذب معه أطراف الحديث.. بل إنّها أغدقت عليه بعطفها فعلّمته أحرف الأبجدية وبدأ يقرأ ويكتب..وحفّظته بعضاً من أدعية القدّاس التي تعلمتها في الكنيسة.. فجعلته سعيداً بما يتعلّم وبما يبصر وكأنّها تفتح له أبواباً لم يحلم يوماً بأن يعرف عنها.

وسألها يوماً عن معنى المخلّص يسوع.. فشرحت له ما سهل عليها فهمه من موعظة الدين التي تتلقّاها في الكنيسة.. لم تكن يومها قريبة كما ينبغي من الرب ولم تكن تدرك بأنّها ستقرر أن تنذر له حياتها طوال العمر..

وقد فاجأها يوماً بهديّة أحضرها إليها من سوق بيروت العاصمة عندما أخذه عمّه معه إليها في أحد الأيام ..فقد ابتاع لها قطعة من القماش الذي غلا ثمنه ولونه خمري وحمله إليها..

كيف أتته الجرأة بأن ينفض عنه أغلال الحياء والحشمة بينهما ويبتاع لها هذا القماش الغالي الذي لا يقدرعليه ابن فلاح؟..

صحيحٌ أنّها جالسته وتودّدت إليه وخاطبت عقله الساذج لتثبت لنفسها بأنّ الفلاح يوازي الإقطاعي في الفهم والتفهّم.. في البصر والتبصّر.. ولكنّها لم تهدف إلى رفع ستار الحذر الذي يفصلها عنه..لقد فشلت في نظريّتها رغم كلّ ما أبدته من عطف وتعاطف مع الفقراء..ها هي تغرقُ في معتقدات أهلها ومن سبقوهم من شجرة العائلة بأنّهم الأرقى وأنّهم السادة.

وكان متردّداً وجلاً عندما قدّم لها تلك الهديّة وكأنّه يبتهل للأرض أن تفسح له مجالاً للغوص في أعماقها حتى يتلاشى عن الوجود. وأربكها تصرفه وجعلها تنفر منه ومن هديّته التي اعتبرتها تجاوزاً للفروقات التي نشأت بينهما وطمست بكاحلها كلّ مشاعر يمكن أن تلد بينها وبينه.

لا شكّ أنه أنفق الكثير ليبتاع لها تلك الهدية..فسألته بلهجة تشوبها السخرية وقد دُهشت من نفسها وهي تقول له بازدراء: "كم عملتَ من أيّام وشهور في الحقل حتّى استطعت أن تشتري هذه الهديّة يا متّى"؟

أحسّ بأنّ خنجراً أصاب قلبه عندما نطقت بكلماتها، وبأنّه على وشك أن يُغمى عليه ولكنّه صارع جرحه وخيبته وطافت على شفتيه ابتسامة حزينة قبل أن يتضرّع إليها بعينين منكَّستين إلى الأرض بأن لا تشي بالخبر لذويها وإلا سُحل أو قتل أو حلّت عليه اللعنة..وأنّه أراد أن يبادرها بتلك الهديّة كشكر على تعليمها له القراءة والكتابة..واعتذر كثيراً عن أنّه نسي نفسه وتطاول على ابنة القصر والبيك.. فلاذت بالصمت حائرة واجمة..

أخذت منه الهديّة على استحياء لكنّها عانت من مرارة الكتمان طويلاً فقرّرت أن تفيض بالسر لصديقتها راجحة التي غرقت في ضحك طويل وتندّرت على متّى حتى كاد يغشى عليها من كثرة الضحك..

وتسرّب الخبر إلى أبيها عندما علمت أمّها بقطعة القماش الغريبة، فقد عثرت عليها بالصدفة وهي ترتّب لها ثيابها في صندوقها الخشبي الذي يتوسّط الغرفة، وأرغمتها قلقة بأن تعترف لها من أعطاها لها وهي تعرف أنه لا يوجد في زحلة أقمشة من هذا النوع..

وعندما استسلمت أخيراً وأخبرتها بالحقيقة راجية منها أن تحفظ السر قامت أمّها بكل غضب بتسريب السر لجدّتها التي نقلت الخبر هاشّة باشّة لأبيها الذي استشاط غضباً وحلف بأغلظ الأيمان أن يلقّن متّى درساً ينخر في عظامه ما بقيت أنفاسه تتردد.. فاستدعاه وأمره بأن يخلع عنه كلّ ملابسه... وعندما رفض قام بجلده بسوطه السميك أمام أبيه العجوز وحشد كبير من الفلاحين حتى انتفخ جلده من القروح ثم نادى بأعلى صوته:

- هذا من يتجرّأ على إقحام نفسه في عالم أسياده.

لن تنسى ذلك اليوم المشؤوم حيث وقفت وراء نافذة منزلهم الكبير وهي تجهش بالبكاء، وتتلوّى ألماً على متّى وتدعو المسيح بكل الأدعية التي حفظتها أن يخلّصه.. ولملم متّى في المساء جراحه كالطير المذبوح ودخل إلى داره ولم يخرج منه إلّا بعد أسبوع..أي بعد أن مات أبوه وهو يزرع الأرض حزناً وكمداً على ابنه وما ألحقه بنفسه من شقاء.

وكانت جدّتها تجلس رافعة الرأس وقد لوت شفتيها بازدراء وهي تنظر إليها بتشفٍّ لأنها سمحت لفلّاح ضئيل بالتقرّب منها..

وقد تندّر الناس كثيراً عليه آنذاك.. وجعله الصبية المدلّلون من الإقطاعيين محوراً لتندّرهم ونكاتهم وبات للصبية الفلاحين عبرة يخيفون بها بعضهم بعضاً فيما يتعلق بقسوة أسيادهم فيتهامسون: "هل تريد أن يصيبك مثلما أصاب متّى"؟؟..

بماذا يختلف بطرس عن متّى؟ لا شيء.. إنّهما متماثلان في الحرمان وفي القسوة التي أُلحقت بهما وفي الظلم الذي سدّ بهامته باب حياتهما.. وبالتجريج الذي أرهق قلبيهما وأثقلهما وجعاً..ومتطابقان في العطاء اللامحدود الذي لا يُبصر الأنا بل يتخطّاها للطرف الآخر بكلّ حب.

ومنذ فُضح أمر الهدية ومات والده لم يعد متّى يجرؤ بأن يمرّ بجانبها.. بل كان يهرع بعيداً كلّما تراءى له طيفها ويختار زاوية بعيدة في الحقل ليسبح في ملكوت خاص يبتدعه في دنياه المنعزلة التي جعلت له مناخاً خاصّاً.. هادئاً ساكناً يتحلّى بالأناة والحكمة..ولم يعد ينبس ببنت شفة أو يطلب منها أن يرافقها كما كان يفعل في الأيام الخوالي..كأنّه يصرخ فيها صامتاً:"العين لا تعلو عن الحاجب..شكراً لك"..

كانت تراه يقرأ كثيراً ويتنهّد في وقت راحته بشرود وكأنّه يدفن حزنه في كفّ السماء التي تسبّح بملكوت الرب..ويستعيض عن خيبته بالغوص في بحر العلم والمعرفة علّه يعوّض هذا النقص الذي خلّفه جرحه الكبير.

وقد عشقته فتيات كثيرات من طبقته لحسن وجهه وطيبة سريرته..وكنّ يتجمهرن حوله كلّما رأينه متودّدات..فيشيح ببصره عنهنّ بعيداً راضياً بعذابه مؤمناً بأنّ قلبه لم يختر إلّاها وهي لم تحس به يوماً إلّا كفلّاح فقير مسكين يعمل لديهم.. فلاح يكدّ ويكدح ويتعب في سبيل لقمته التي تُغمس بعرق التراب وعطر الأرض..ربما أحبّت فقط أن تطبّق عليه بعض التجارب لتتأكّد من صحّة هذه الفروقات بينهما ولكنها لا تدخل عالمه ولا تسعى أن تقترب منه..وعندما اقترب هو صاحت به:"كيف تجرّأت"؟!

لم تتعود هي الحياة الخشنة الصلبة بل عاشت الحياة الناعمة الدافئة التي تتمرّغ معها على وسائد من حرير وترفل فيها بعباءات ساحرة سبقت عصرها وزمانها في الحبك والتطريز.. ولم تركب إلا على ظهر أقوى الأحصنة وأجود أنواع المركبات خشباً.. فلماذا لم ير متّى عمق الهوَّة التي تفصله عنها وتحرّم عليه الدنو منها؟

والفضل الكبير في اكتشافها لكهفها الصغير كان له.. فقد عرّفها سابقاً على كل ما تزدان به الطبيعة من حلي وكهوف وممرّات وصور.. كان من فرط ثقة أهلها به قبل حادثة "القماش البيروتي" يشاركها في ترحالها بين السهول والبساتين وقد يتجرّأ أحياناً ويمسك بيدها عندما يشعر بأنّها على وشك الانزلاق وهما ينحدران من مكان مرتفع وتشعر بحرارة يده تنصهر في يدها فتسحبها بسرعة وبخجل.. ولا تلبث أن تلمح ابتسامته السعيدة التي توحي بأنّه امتلك الكون لتوّه وبأنه ارتقى

إلى أعلى درجات السماء لمجرّد أنه حظي باحتواء يدها ولمسها.. فيأخذها من أمره العجب..

لقد شعرت بأنها تتعرّف على مدينتها زحلة لأول مرّة وهي معه.. كأنّها لم تلد في كفّي رحابها ولم تتدثّر بغيمها الربيعي الحليبي ولم ترقد في حنايا هضابها المنثنية على كهوف أسطورية بقدمها...

مع متّى كان التوغّل أعمق والتقرّب من معالمها أوضح.. ولهذا تيقّنت بأنّ الأرض تبارك الفلاحين أكثر من الأسياد والقدّيسين أنفسهم.. وأنّها تحنو عليهم حنوّ الأمّ على أطفالها وتسبغ عليهم بدثارها الموسمي ليكون قلبها أرقى وأجلّ إنسانية من قلوب البشر...

وقد عثرا ذات صباح على هذا الكهف الذي منه بدأت قصّتها مع عابد فراقتها تفاصيله وموقعه النائي ووقع في قلبها وقعاً عجيباً وسحرها بقوّة.

ولم يعرف متّى بأنها اتّخذته محراباً لصمتها وأنها تتردّد عليه دائماً وتناجي الله فيه لساعاتٍ طويلةٍ أو هكذا ظنّت آنذاك..

وحفرت مأساة الحادثة التي وقعت له وجعاً دامساً ما برحت أنفاسه تتردّد في نواحي روحها وأشفقت عليه أشدّ الشفقة..ولم تستطع أن تدنو منه أو تبرّر ما حدث.. اكتوت بالصمت واحترقت بدمعها وحيدة...

مرّة واحدة فقط بعد هذا الحادث الأليم بشهر وذات صباح اقتربت منه لتعزّيه بوفاة أبيه الذي مات وهو يغرس فأسه في الأرض..

- البقية في عمرك يا متّى..

أشاح بوجهه عنه صامتاً، ثمَّ واجهها بكله وهي تهمّ بمتابعة سيرها إلى كهفها قائلاً بنبرة فيها الكثير من التهكّم الأليم:

- لماذا سرّبتِ أمر الهدية يا ميرا.. سؤال يلحّ عليَ وأردت أن أسمع الجواب منك..مع أنّي أعرفه سلفاً..

تلعثمت خطواتها قبل كلماتها وهمّت بأن تفتح فمها فقال وهو يقهقه بصوت ضعيف فيه الكثير من المرارة:

- ولكنّي لن أسمع منك الجواب الصادق بل محض أكاذيب.. ستقولين بأنّ أباك اكتشف الأمر بمحض الصدفة.. أو أنّه أرغمك على الإقرار باعترافك.. والحقّ أنك أحببتِ بأن يعلم الجميع بما فعلته..بل ربّما سعيتِ من غير قصد منك بأن ينتشر الخبر..هل تعلمين لماذا يا ميرا الجميلة؟

لاذت بالصمت وهو يلفظ اسمها بازدراء ومن غير ألقاب منصتة لوقع كلماته بقلب مشفق واجف وتابع هو كلامه قائلاً وقد ازدادت لهجته حدّة:

- سأجيب عنكِ لأنّك لا تجرؤين بأن تقرّي بالسبب، أنتِ التي تدعين للمساواة بين الفقراء والأغنياء دون أن تعني هذا حقّاً..ففي قرارة نفسك لم يعجبك بأن يتجرّأ ابن فلاح فقير بسيط على مدحك وإظهار عاطفة إعجاب أو حبّ نحوك.. فقد تطاول كثيراً وهو يستحقّ أن يعرف حدوده..وقد عرفت حدودي.. عرفتها جيداً يا ابنة الحسب والنسب العظيمين.. فاعذري لي هفوتي واعذري قلبي المسكين الذي تمرّد من أجلك على عادات وقوانين أبدية صارمة..ولكن كفاكِ ادّعاء بأنّك تؤمنين بالديمقراطية..أنتِ ابنة آل شاور بشحمهم ولحمهم، بروحهم وظلمهم..فأقرّي بهذا..

شلّتها كلماته ولم تدرِ بماذا تجيبه لو سمعه والدها يقول مثل هذا الكلام لقتله على الفور..رمقته يبتعد مهرولاً عنها وهو يداري دموعاً لمعت في عينيه وكادت تنحدر بانهيار لولا أنّه نجح في كبح جماحها ونأى بها وبنفسه إلى مكان منزوٍ يبثّ فيه أحزانه.. تمنّت يومها أن تلحق به وتسأله الصفح وتبكي معه ولكنّها لم تستطع.. فالتقاليد هي التقاليد.. وهو محقّ في كل ما قاله.. لقد ورثت هذا العرق الإقطاعي الاستبدادي رغم محاولتها الآثمة بإخفائه بين طيّات روحها وإقناع نفسها بأنّ الفروقات الطبقية ما هي إلا وهم جارف زُرع في الرؤوس منذ القدم ويجب إزالته وإبادته.

أُعجبت بفصاحة متّى واستيعابه لما تعتلج به جوارحها رغم ضعة قدره الإجتماعي..وفكّرت به في بعض الليالي التي قضتها مسهدة مؤرَّقة وبما سبّبته له من آلام.. ودهشت لسريرته الصافية ونقائها الدافئ..وقد أُعجبت به كصديق وإنسان ولكنّه لم يستطع أن يأسرها كما فعل عابد..

إنّ أفكار عابد تجعلها تتساءل من هو وماذا يمثّل لها؟ هو كالنور يومض في ظلمة محتشدة بالآهات يؤثّث كونها بأمل سرمدي أفقي ربما لا يأتي من الخارج بل ينبعث من داخلها ويعود الى داخلها.. تماماً كنظرية الإنسان في دين المسلمين من التراب وإلى التراب يعود..بينما أفكارها اتجاه متّى تنبع من داخلها إلى خارجها فقط دون أيّ رجع ذاتي..

لم تخبر أحداً عن عابد حتى صديقتها راجحة التي تعلم معظم أسرارها.. كان هذا السر بالنسبة إليها حياة كاملة بفقدانها تفقد هويتها وتفقد نفسها.. فقد أصبح السرّ عشقاً وهذا العشق تحوّل لأنفاسها التي تتردّد في صدرها وتنفثها جوارحها..

سألتها راجحة مرة عن سرّ شرودها فلاذت بالصمت واكتوت به.. تمنّت لو تقدر أن تبوح لها بكلّ ما تئنّ به جوارح قلبها ولكنها ارتعدت حتى من فكرة أن يُذاع السر لأقرب صديقاتها..وهي تعرف بأن راجحة ستثور وتعترض وتضرب لها مثلاً عن قصّتها مع الشاب المسلم الذي تركها في النهاية وستطلب منها نسيان عابد وهذا هو المستحيل بعينه..

وعندما تزوّجت راجحة وأقامت عرساً جميلاً تغنّت به نساء زحلة ..يومها تخضّبت النساء والفتيات بالحناء وتعطرن بالمسك وزيت اللوز..وغُمّستْ أيدي الصغار بالحلوى وتبارى الرجال بالعصي في حلقات توزّعت بين رقص بديع ودبكة متقنة..وتمايلت أجساد النساء ترقصن بنهم وغبطة.. كانت معتكفة في داخلها على حلم مستحيل.. يضمّها مع عابد..

ذاك الصباح ذهبت مع صديقتها إلى الكنيسة... شيّعتها بنظرات حزينة وهي متأبّطة ذراع زوجها بثقة وسعادة..لقد كانت موقنة وقد هبّ خيالها يرسم لها صورتها في مثل هذا المشهد مع عابد بأنّ الأمر محض خيال.

إنّها لا تستطيع أن تكون لإنسان آخر غيره ولن يسمحوا لهما بالزواج ولهذا فهي لن ترى هذا اليوم الموعود في حياة كلّ أنثى..كم تحسد راجحة لأنّها استطاعت أن تتجاوز حبّها القديم وأن تسخّر كيانه للإنسان الذي سيكون زوجها حتّى إنّها ندمت أنّها أحبّت غيره في لحظات نزق وجنون ليتها تستطيع أن تنسى عابد مثلها وتهب نفسها للآتي..

إنّ العشق هذيانٌ أحمق لا يحفل بسلطان المال ولا النسب ولا الدين.. هو عرقٌ متمرّدٌ متأججٌ من نار.. يعتدُّ بعناده وثباته حتى الأنفاس الأخيرة.. وقد أصابها هي.. هي الإنسانة الرقيقة الحالمة الناسكة الخاشعة في تصوّف وانبهارٍ بنور

الرّب.. أصابها هذا الشعاع القاتل المضطرم الذي يسمّونه عشقاً وتسمّيه هي موتاً..

وقد لمحته من بعيد وهي تهمّ بمغادرة الكنيسة يومها.. كان يقف خلف الباب يتوارى قليلاً حتى لا يلمحه أحد ويرمقها بنظرات الحنين الذي حرّمته الأعراف وشرّده الواقع..نعم هو عابد بعينه يتتبّعها بنظراته وقد خيّل إليها أن دموعه قد أوشكت أن تنهمر على ضفاف خدّيه..

وقد أخبرها فيما بعد بأنه أحبّ أن يعرف كيف تتم مراسم الزواج في دينهم وأنّه نازع من الشوق إليها حتى غلبه وأتى إليها..

ولمحت متّى أيضاً يقف من بعيد يتأمّل المشهد صامتاً متألّماً تُراه يُفكّر مثلها في حبّه المستحيل؟..هي تحبّ عابد ومتّى يحبّها وما من أمل في قصة حبِّ كلٍّ منهما.

وبعد أن تزوجت صديقتها بقيت هي وحيدة وعزاؤها الوحيد هو عابد.. تعمّقت في عالمه أكثر.. أخبرها عن ماضيه وحاضره..قال لها بأنّ دفاعه الصارم عن الفلاحين مردّه بأن أمه كانت هي الأخرى تنتمي إلى عائلة درزية متوسّطة رغم ندرة هذه الطبقة في أيّامهم.. فقد كان أبوها من الإقطاعيين الّذين يمتازون بالغنى الفاحش ولكنّ نكبة ألمّت به والتهمت النيران أراضيه ومرّت بهم ليالي من شظف العيش وأوشكوا فعلاً على الهلاك وشمت بهم الكثيرون ولم يبال بهم أحد حتى تلقّفهم أبوه البيك الغني الذي تقدّم لخطبتها وأنقذ العائلة من الهلاك المحتم.. وقد شفع لأمّه في هذه الزيجة شيئان: جمالها وحسبها الرفيع..

ولأنّ أمّه ذاقت الفقر يوماً وأحسّت بسياطه تلهب روحها أحبّت من يومها الفلّاحين البسطاء وتعاطفت معهم وأحبّت أيضاً زوجها القاسي وتحمّلت بطشه

وصرامته المفرطة رغم أنّه لم يحاول أن يسعدها يوماً..ونشأ هو على هذا الحب..حبّه لأبيه وحبّه للبائسين..بعكس والده الذي كان يمقت أن يتحدّث بالرحمة عن أحد الفلّاحين شأنه شأن أعمامه الإقطاعيّين وإخوته الذين يكبرونه سنّاً فقد كانوا في المنزل حسبما روى لها خمسة ذكور هو أصغرهم ولم تُرزق أمّه ببنت مع أنّها تمنّت هذا..

وحدّثها عن صرح متيّم بقوارير الياسمين المتدلّية من جدائل متسلّقة على عرائش دارهم الكبير المكوّن من دورين.. وعن خمائل زمرّدية ترتعش مع الريح وتتمايل مع نسيم الحنين الذي يرافق عشّاق الدرب في قريتهم..وأخبرها عن طقوس دينهم وتقاليدهم وكتاب الحكمة الموقّر لديهم بالإضافة لقربهم بعض الشيء من دين المسلمين.. ولكنّه تجنّب أن يحدّثها عن ابنة عمّه شهب التي عرفت منه فيما بعد بأنّها تحبّه منذ الصغر وأنّ أباه وأعمامه قد خطبوها له من دون علمه.. وحتّى من غير موافقته ولكنّه رفض وهو يعضّ على نواجذ روحه.. فثارت ثائرتهم..

أحسّت بأنّ حماسة عابد لحقوق الفلاحين متدفّقة جارفة..ولطالما أحسّت هي أيضاً بأنها تشفق عليهم أيضاً مسيحيين كانوا أم من الدروز.. ولكنّها لا تستطيع أن تدعم ثورتهم علناً لأنها تنتمي إلى الطبقة التي يحاربونها وهي طبقة النبلاء الشرفاء البكوات..

فكيف يجازف عابد بما يملك من أجل أفكار يؤمن بها؟..هو يحارب وحيداً بلا شك في عرين الأسود الذين يفوقونه تجربة ومقدرة فكيف ينحاز للضحايا البسطاء وعائلته تتكوّن من الذين يفتكون بها وينهشون لحمها على محراب الذات والأنانية والتسلّط المخزي؟.. من يمكن أن يتصوّر بأنّها هي وعابد رغم أنّهما

بالكاد بلغا سنّ الشباب ورغم أنّهما الحلقة الأضعف في عائلة كلاهما قد ثارا على مبدأ الظالم للمظلوم وسلّطا ضوء بصيرتهما على حقوقهم المنهوبة؟ ها هو بطرس يفرض نفسه في هذه الصورة الّتي سعى لرسمها بإتقان..إن حبّها لبطرس يتسلّل إليها الآن رغماً عنها ويملأ قسمات روحها ويجعلها تبكي لذكر اسمه دون وعي منها وكأنها تؤرّخ آلامه بدموعها وصموده بحزنها.

وما يوجعها حقاً هو أنّها لا تستطيع أن تغضّ الطرف عما يحدث خارج بيتها أو كهفها الصغير.. فها هي الأسلحة تنتشر بشكل كبير بين الطائفتين الدرزية والمسيحيّة.. وها هو اللغط يكثر والوجوه تكفهر بغشاوة من التعصب الذي تضطرم ناره بالكره والنفور..

"يا مسيح صلِّ لنا"... كلمات تردّدها دائماً وهي تصلي إلى جانب أمها في الكنيسة صاغرة خاشعة.. وكالعادة لم تكن أمها حاضرة الذهن عندما تسألها عن بطرس ومعنى ثورته وعلام يسعى إليها.. هناك شحوبٌ يتدفّق على وجه أمها ثم يعتريه صمت غريب ويتبخّرُ الدعاء من شفتيها لتحلّ مكانه همهمة خفيفة.. بماذا تفكّر أمها ولماذا تهمهم؟

إنّ أمها من آل شاور.. تلك العائلة التي ظلمت وأهدرت دم أبي بطرس..وظلمت ابنه فهل لأمها من ذكريات شهدتها لهذا الحدث المؤلم؟

تساءلت كثيراً وهي موقنة من شيء مهم سمعته بالصدفة من إحدى قريبات أمها عندما كانت تزورها.. وهي أنّ أمّها كانت تراود صحو الأمير بشير الثاني وأحلامه بعد أن رآها وتعرّف بها في زيارة له إلى مدينة زحلة، وأنه عشقها حتى نخاعه رغم فارق العمر بينهما ولمّح لها بهذا الحب في اللقاءات التي كان يدبّرها سرّاً عندما يطلب من جدّها أن يحضر معه عائلته ليقضيا نهارهما في الصيد،

وكانت جدّتها بالطبع ترفل بأبهى ثياب وأغلى حلل وكذلك تفعل أمّها مروى التي فهمت إشارات الأمير الهائمة بيد أنها صمدت أمام هذا الحب وتصدّت له وأشاحت بقلبها عنه لغيره.. ولكنّ هذا الغير لم يكن والدها..

وبالرّغم من أنها لم تبادل المير بشير العشق كانت مثل أبيها تجلّه وتحترمه وتعتبر حكمه طاعة ونعمة لهم كمسيحيّين..وكلبنانيّين أوّلاً..

تمنّت أن تخبر أمّها بكلِّ ما تدّخره من أشجان ومشاعر وتبكي على صدرها وتردّد اسم عابد في أذنيها ولكنّها خافت على أمّها من الاحتراق بنيران القلق إن عرفت مذهبه.. والتزمت الصمت وهي تئنُّ منه كما يئنُّ الجلد من هبّات الألم للقروح التي تحته.

وشغلها أمرُ بطرس كما شغل الجميع في تلك الفترة فجلست يوماً إلى جوار أبيها وقد أضاء القنديل وجلس يقرأ في كتاب الإنجيل بخشوع.. تسأله واجفة حائرة:

- أبي ماذا يجري في لبنان؟..هناك صراع يدور قلوب فائرة..العثمانيون من جهة والدّروز من جهة أخرى وبطرس الذي يتزعّم ثورة الفلاحين ...

قاطعها بحدّة:

- كان يجب أن ينتهي بطرس على جذع الشجرة الذي علّقه عليه نحّاس بك شاور.. كان يجب أن تُزهق أنفاسه يومها..

وجمت وقالت:

- لم يفعل شيئاً يؤخذ عليه يا أبي..

لم تعتقد أنّ الغضب سيستبدّ بأبيها لدرجة الجنون عندما ذكرت له اسم بطرس ولكنّه فعل.. حدّق بها صارخاً فيها:

- لماذا تدافعين عن بطرس هل تعرفينه؟...

ردّت بسرعة بلهجة مستنكرة وكأنّها تنفي تهمة خطيرة عن نفسها من دون أن تدري سبباً لهذا:

- أبداً ولكنّي أراه يا أبي من منظور الإنسانية..إنّه في النهاية إنسان ومن يجب أن ننقم عليه فعلاً هم العثمانيّون الّذين استحلّوا سفك الدماء ونشر الفتنة وتدمير البلاد.. كيف لا نشفق على بطرس وهو إنسان بسيط كلّ ما أراده هو أن يرى الضعفاء يتسلّحون بالقوّة ويتمسّكون بالكرامة..لو أنّنا يا أبي وُلدنا فقراء لكنّا سنسعى إلى ما سعى إليه بطرس نفسه..صدّقني يا أبي الحبيب..

حذّرها وقد رفع إصبعه غاضباً:

- إيّاكِ أن تذكري هذا الاسم ثانية..إنّه حشرة من حشرات المجتمع السفلي يريد أن يرتقي إلى عالم أسياده بأي طريقة وقد امتلأ قلبه حقداً وكرهاً..سحقاً له ولأفكاره الجهنمية الشيطانية..الدروز يكيدون لنا من جهة وبطرس من جهة أخرى..الله يستر...

تكدّر وجه أبيها حتى قارب لونَ الوحل الأسود فتجنّبت محادثته وغيّرت دفّة الحديث حتّى يسكن جانبه ولكنّه لم يفعل.. اعترته موجةٌ من الذكريات قاتمة حزينة فكاد قلبها ينخلع من أجله وندمت عمّا فرط منها من كلام..

لقد كاد كلّ من حولها ينسى المحتلّ العثماني بكلّ ما فرط منه من عدوان وظلم وما فرض من جزية باطلة ليركّز حواسه مع بطرس فقط..

الفلاحّون معه لينصروه والإقطاعيّون ضدّه ليرجموه..والحقيقة أنّ من يستحقّ النصر هو الوطن ومن يستحقّ الرجم هم العثمانيون أوّلاً وأخيراً..

كيف تهبُّ نداءات الدم بين أبناء وطن واحد.. فيتربّص الفرد للآخر ويحتدّ الصراع الوطني والدولة العثمانية تقهقه عالياً وضحكاتها ممتزجة بالوعيد الآتي وبما سيتكبّده الوطن من المآسي..

هناك أطيافٌ لظلال قانية تتراءى لها من بعيد.. لشهداء سيرقدون على صدر الوطن دهراً بعزّ وامتنان ولتاريخ لن تعيش طويلاً ربّما كي تراه ولكنّها تلمحه من ثقب لحواسٍّ متحرّقة للغد..ولزمن لا يشبه زمانها..

هناك حقدٌ أعمى يظلّل الأرواح واحتباس للأنفاس يزداد إرهاقاً للقلوب وأهوالٌ من الحروق الشنيعة الآتية تكاد تحسُّ بها تنهش في جلدها فتصرخ في صمتٍ ليسوع بأن يرحمهم...

باتت الآذان ترقص ثكلى على وقع أخبارٍ تفدهم كل صباح عن جرائم قتل بين الطرفين -المسيحي والدرزي- حتى استحالت إلى جزء روتيني من الحياة وكأنّ الدم لم يعد غالي الثمن..

ومن قال إنّها سعيدةٌ لأنّها غنيّة؟ إنّها تلمحُ السخط في عيون القرويات اللّواتي يهششن في وجهها وقلوبهنّ تضمر الحسد والحذر..

والإنسانية؟ أين هي والضمائرُ في رقدة أبدية من لظى الخيانة التي تنتشر في كلّ البلاد؟..العثمانيّون خائنون لأنّهم يبيعون بلدها بثمن بخس لمصالح الأوروبيّين

ولِمَ لا والوطنُ ليس بوطنهم؟ والإقطاعيّون تجرّدوا من حسّ الوطنية وانقادوا لمطامع العثمانيّين والأوروبيّين على حدّ سواء..والضريبة ثقيلة على عاتق الشعب المسكين..

سيشهد التاريخ يوماً بلا ريب بأنّ الإنسانية باتت جزءاً من طاحون الكره الصاخب أو المذهبية الرعناء..

تسمّرت ذكرياتها بغتة على وقع خطى الأخت زلفا تقترب منها من جديد.. فالتفتت إليها بابتسامة جاهدت بأن ترتسم على وجهها..سألتها زلفا بقلق:

- ألاخت ميرا ما بك شاردة ساهمة اليوم هل كل شيء على ما يرام؟

أجابت وابتسامتها تفيض على شفتيها وتمنحها سحراً رائعاً من الطهر:

- نعم أختاه.. اليوم شعرتُ بأني أحتاجُ لمزيد من الصلاة لتطرد عني شبح كلّ الشكوك التي قد يسرّبها لنا الشيطان...

لاحت ابتسامة رضا على وجه الأخت زلفا وقالت:

- فليباركك الله.. وليبعد عنك كل وسوسة وشر محتمل..ولكن موعد الإفطار قد حان.. ويجب أن تأتي معي فجسدك يزداد نحولاً.. وأشدّ على يديك الحانيتين بأن تقبلي رجائي بتناول الطعام معي..

هزّت برأسها واتجهت معها إلى غرفة الطعام مؤجلة ذكرياتها إلى موعد آخر رغم أنها ما زالت ترفرف معها..

كانت الراهبات متحلقات بشكل دائري حول طاولة مستديرة من خشب السنديان عليها بعض الأطباق من أصناف المأكولات الخفيفة من الجبن والزيتون واللبن والفاكهة.. أكلت القليل مرغمة مع إلحاح الأخت زلفا والتي كانت رئيسة الدير..

لم تكن العلاقة التي ربطتها بها علاقة عابرة كأي راهبة تمتثل لأوامر مرؤوستها.. بل كانت علاقة ودَ جارف تطوّر مع الأيام لتصبح لها ملاذاً من الماضي البعيد الذي تسعى لنسيانه..

لقد احتضنتها زلفا في وسط الأعاصير التي أحاقت بكيانها...طرقت الباب ففتحت لها وولجت في أعماق الدير الذي يصلها بالله بشكل عامودي بحت.

لا غرو أنّ لزلفا ماضياً .. ماضياً لا تبحْ به مثلها.. بل إن لكلّ أخت هنا ماضياً، وإن اختلفت أسبابه ودواعيه..وكلهنّ تألّمنَ..إنّها لتكاد تجزم بهذا.. "من منّا لم يتألّم..وإن لم نتألّم لم نتعلّم".. سمعت هذا في خطبة الأخت زلفا من شهر على الأقل ولكن كلماتها رسخت في ذهنها رسوخ النقش على سفح الأرواح وتأثّرت بها.. تراه تألّم كما تألّمت هي؟

" يا مريم العذراء احضني جرحي وطهّري روحي وجسدي من كل دنس باسم يسوع المسيح"....

تمتمت بدعائها وقد غادرت مكانها لتعود إلى خلوتها.. إنّ الهرج الذي يحدثه همس الراهبات وقت اجتماعهنّ يقلق راحتها ويبعدها عن الله..وهي تريد أن تبقي روعها في دائرة يقينه وانعكاس نوره..

في طريقها إلى غرفتها أقبلت الأخت زلفا لتعرض عليها أن تتجوّل معها قليلاً حول الدير..ربما آنست منها حزناً شفّافاً ينسدل على وجهها كما تنسدل الأهداب

على المآقي الدامعة.. اعتذرت برقّة لأن الصداع كان يداهمها.. شدّت على يدها وقالت لها بلهجة يفضحها الحنان رغم جدّيتها:

- تذكري بأنّك عاهدت الله على جرف الماضي في هوّة النسيان.. فلا تدعي الذاكرة تخون هذا الميثاق وينازعك الحنين للخارج.

تلعثمت وارتبكت كلماتها وهي تنسلّ ببطء من باطنها إلى فمها:

- أبداً أختي الفاضلة.. ما رمت نشوزاً وما قصدتُ خيانة لحياتي المنعزلة التي أهداني إياها الرب.. ما انتابني إلا شرودٌ عابر وزّعت خلاله تأملاتي بين الطبيعة التي وهبنا إياها الرب في الخارج وبين الهدوء الذي يلفّ نسكنا في داخل الدير..

ابتسمت رئيسة الدير وندّت عن يدها حركة سريعة كأنها تنهي ما بدأته من كلام حتى لا تعطيه أهمية كبيرة:

- لا علينا.. هل سمعت بما يقال في الخارج؟ لقد انتهت ولاية رستم باشا وعُين مكانه واصه باشا كمتصرف شرعي في لبنان.. ويقال بأنه سيشيّد سراي في زحلة مدينتك يا ميرا...وسيبني مستشفى في بيت الدين..هذا أمرٌ عظيمٌ حقّاً..

زحلة.. تعيدها تلك الكلمة من رحلة بعيدة سحيقة تغيب فيها كالأحلام الصارخة فتهزّها بكل كينونتها وتطير بها هناك.. حيث طفولتها وأهلها وذكرياتها مع حبيبها وحتى مع الآخر الذي يحبها..

أجابت ودقات قلبها تتسارع:

- ما عادت مدينتي أختي الفاضلة.. إن مدينتي هي صومعتي التي اخترتها لأنأى بها عن كل حدث دنيوي وأتنيّح فيها عندما يدعوني الربّ إليه..

ابتسمت الأخت زلفا قائلة:

- أنت فتاة طيبة وعانيتِ الكثير من الفتنة الكبيرة التي حلّت بنا.. لا تقلقي يا ميرا فإن الله يختار من يحب للتصوّف في كنفه.

هزّت ميرا رأسها مؤمنة على قولها وندّت عنها تنهيدة حزينة.. فعادت الأخت زلفا تقول وهي تضغط على كلماتها بوضوح:

- تذكري قول الرب المسيح يا ميرا:"الإنسان الذي يصوم عن خطاياه ثم يعود يفعلها، مَنْ يستجيب لصلاته؟"

ماذا تقصد رئيسة الدير من تلميحاتها؟ هل تلمّح بقصة هروبها من الدير وعودتها إليه من جديد وتحذرها من مغبّة تكرارها؟ أم تلوح لها بحرب ضروس على ذكرياتها المريرة التي قد تجذبها إلى أحضان خطيئة أخرى؟

لقد دخلت إلى الدير لكنها غادرته ثم عادت إليه ثلاث مرات..في المرّة الأولى استقبلتها الأخت زلفا بابتسامة فاترة بعد أن أبدت ندماً وتوبة لا تُرد فشفعت لحالها ومنحتها ثقتها بعد تردد بسيط.. وفي المرّة الثانية عانت الكثير حتى تقنعها بيأسها وإحباطها ورغبتها في الاستغفار وتوسّطت لها صديقاتها الراهبات ووقعت تحت وطأة المرض وباتت تهذي وأوشكت على الهلاك فرقّ لها قلب الأخت زلفا وأدخلتها الدير واعتنت بها حتى استردّت عافيتها، وفور أن رجعت إليها بعض قواها أكّدت بأنّها المرة الأخيرة التي ترتكب حماقة الخروج اللامُبرّر والعودة النادمة التائبة.. فجزعت أن تمنع عنها التوبة بتبرّمها من تصرفاتها

وسامحتها بعد وعد حثيث بالتوبة الدائمة..حاولت يومها أن تصدّقها على ملل..ولا بدّ أنها تنبّهها الآن من إتيان هذه الحماقة بعد هذا العمر الطويل وخاصة أنها لا تأمن لتقلّب أحوالها..

كم تقرأ الأخت زلفا أفكارها بوضوح!.. فماذا دهاها حتى ترجع لما فات؟..ولماذا تحصد العار بمنجل الذكرى.. لينتابها صداع المرارة الحارقة التي تتكاثف كما يدلهمّ الظلام في عقر المساء؟..

إنّ النسك في لغة يسوع ليس فقط في التأمّل والشغف بالملكوت الأعلى بل في تحرير النفس من كلّ الظواهر الدنيوية التي تلحّ على المرء وأهمّها الذكريات.. فهي لا تصبّ في خانة الروحانيات بل تتجلّى كالحقيقة ترتسم حيّة ثائرة نابضة جائرة...

لا بدّ أنّ الأخت زلفا تملك من الذكريات الكثير ولكنّها تدفنها في أغوار سحيقة ولا تستحضرها حتى لو عاث بها العذاب ولوّعها بإلحاحه الدؤوب.. فقد نذرت الروح للربّ مع كلّ ما يحيق بها من الملموسات والمحسوسات.. فالمحرّك الأول عندها هو الإيمان الذي انبثق منه السبب والمسبّب ومنه وإليه تعود النفس الفائرة بالتقوى والخائرة من مقاومة إبليس.. ولا شكّ أنها تلحظ تواطؤه مع ذكرياتها فترفع لها التحذير حتى لا تنغمس فيها وتحنّ إلى ما لا يجوز العودة إليه.. الحقّ كله معها ولا تستطيع أن تلومها على عدم ثقتها فيها بعد رحيلها عن الدير لثلاث مرّات..ليتها تستطيع أن تغرس الثقة في نفس الأخت زلفا اتجاهها ولكنّها لا تقدر على هذا لأنّها لا تثق حتّى في نفسها..

لم تحر جواباً.. استأذنت بأن تعود لغرفتها فأذنت لها الرئيسة وابتسامة صافية تلوح على شفتيها كما يلوح الأفق في عرض البحر قريباً للعين بعيداً عن الإدراك..

الفصل الثالث

مع أنفاس الغروب وهي تشيّع آخر خطّ متموّج لأشعة الشمس جلست على حافة فراشها تمسك بمسبحة خشبيّة بيدها اليمنى وترنو ببصرها إلى الخميلة الممتدة على طول البستان المواجه لنافذتها..هنا تلتف أعناق الياسمين في عناق حارّ يسلب الألباب ويتوه الفكرُ في ملكوت السماء ساكناً خاشعاً لا ينصت إلا لصوت الضمائر الحية..

منذ أتت دير مار انطونيوس وهي تبصر جبل الباروك شامخاً لا يهتز.. "الباروك" قرية لاسمها وقعٌ في قلبها..كأنها تهتف تبارك الله رب الكون.. لم تعد تبصر إلا الله ولم تزرها إلا ملائكته ولم يعبث بضفائرها سوى نسيم الفجر الوردي عندما يبشر ببعث الشمس لتحتلّ صدر السماء..

من كان يحب أن يسرّح لها ضفائرها سواه؟ هو الذي عبدته بعد المسيح وشرّعت له مكاناً في الروح لا يرقى إليه أحد...عشقته في النور كما عشقته في الظلام..لم تأبه للديانة التي تفرقهما ولا للحواجز التي تعترض سبيلها إليه.. بل سرّحت عنان الروح لتعانق مملكته ووهبت له كلّ شيء..

"كلّ شيء"؟ همست لنفسها كالاستغفار.. لقد بدأ الأمر بقبلة عابرة مسّت خدّها الأيسر فسرت في بدنها رعشة ثائرة حيّة كنذير طوفان من الشهوة الحانقة على نفسها.. ثم ما لبثت تطغى على كلّ جسدها فانتفضت بلهيب متدفّق لم يسعفها

عقلها على صدّه إلّا بعد أن هبّ عابد واقفاً ليغادرها وقد عيّن لها موعد اللقاء الثاني...

هل أحسّ هو أيضاً بتلك الحرارة المنبعثة من أركان كلها فسرت إليه ومسّه اضطرام نارها فانتفض مذعوراً خائفاً من التمادي؟

من في العشق يحرص على التمادي؟ إن القلب يسلب الإرادة والنبض يسرق العقل من عرشه ويودعه في ضِجعة اللاصحو..

ولكن عابداً كان حريصاً في بداية علاقتهما بل كان مذعوراً لتلك العاطفة التي تشب بينهما بنار متّقدة لا تعبأ بالدين ولا بالعرف ولا بالتقاليد..

فهل أخطأ كلاهما في وهب قلبيهما للحب أم إنَّه القدر المحتم؟..القدر نفسه الذي جعلها تلتقي به في كهفها المنزوي البعيد عن العيون والذي دفع به إليها رغم أنف الصدف لتصبح قصتهما معجزة وليست صدفة عابرة؟

من المؤكد أن عابداً لا يؤمن بالأساطير ولا بقصص العشق اللاهبة فهو يحبّذ أن يضع المنطق في خدمته حتى لا يحكم عليه اللامنطق بالتلاشي..

ولهذا قاوم مثلها وقاوم كثيراً.. قاوم حبها وعينيها وجسدها الرائع.. كان يستبسل في الدفاع والحفاظ عن الحدود القائمة بينهما..علّ قصتهما تبقى في إطار الصدفة والصداقة البريئة..ولكنّ مقاومته تلاشت مع الأيام.. وصار متلهّفاً للقائها أكثر ومشدوهاً من نفسه واندفاعه نحوها أكثر وأكثر..

إنّ أكثر المقاومين نضالاً هم من يتخاذلون في لحظة عشق تصنع من القلب ذخيرة ومن الخطيئة فضيلة..وتدحر القيم في لهب العواطف..

فهل كان يجب عليها أن تصمد أمام تيّار عشقه وتتأهّب للقتال مستندة على ذراع الإيمان الذي صاحبها مذ كانت صغيرة؟

حدّثته بعد أن طال بهما الصمت ذات صباح عن متّى.. روت له القصة بحذافيرها فلم يبدِ أيّ اكتراث وكأنه عهد هذه القصص المأساوية التي تشهدها قريته كلّ يوم.. الفلاح البسيط يقع في عشق بنت سيده فيُجلد ويحنّط في ضريح إثمه الكبير.

أخبرها عن ابنة عمه شهب التي تفرض اهتمامها له فرضاً يحرقه ولكنه يواجهه بالصمت القاتل.. ولولا خوفه من إغضاب أبيه لوضع لها حدّاً وثار في وجهها ونبذها من حياته إلى الأبد..

لم تنم تلك الليلة من شدّة القلق والغيرة.. بل إنّها خالته يطبع على ثغر شهب قبلات نارية فهبّت من سريرها فزعة كمن مسّها مس..

هل كانت تلك الغيرة التي لدغتها مسبّباً كي تسلّمه نفسها وتذرف شرفها في لحظة عري داخلي؟ أم إنَّ حبهما الذي يقبع في دور المحال تغلّب على ضعفهما اتجاه قدرهما فقرّر أن يجمعهما ولو لدقائق من عمر الزمن؟

كم احتاجت للقوة لتعهد إليها برغبتها فيه ذاك اليوم البعيد ولكنها تلاشت في لحظة خذلان خدّرت إرادتها...

لم تكن تعلم أن ممارسة الحب يصحبها شهقات دافئة وفجور هادئ ورعشة تشبه عزف الأنامل على قيثارة السكينة والصخب معاً..

عندما جالت أطراف أنامله في جسدها ومسّت مواطن الحميمية فيها ندّت عنها آهة جميلة نقلتها من عالم البراءة الحالمة إلى عالم الوقاحة الحارقة.

وعندما وهبته تفاصيل جسدها لم يعبث بها كعابر سبيل عابث بل تركها تعبث به لتستشعر معه مزيداً من النشوة.. وكثيراً من الخفقان الحسّي..

"ميرا.. توقفي" سمعت صوتاً حاسماً آمراً يهبّ من أعماقها ليمنعها من ترتيل ذكرى تصبُّ في كتاب الخطيئة.. ولكنها تعترف.. ليس على المذنب من حرج..وهل للاعتراف من ضرر؟

لكنه الجسد.. الجسد الثائر السائر في طريق النشوة لا يحدّه حد ولا يرصده عقل.. وهو إطارٌ للشيطان ينهب فيه حتى يتركه إناء طافحاً بالرذيلة.. من يردّ إليها شرفها الذي تشتتَ في كهف أحلامهما هي وعابد.. ولكن.. مهلاً..ما هو الشرف؟ سيفٌ عقيمٌ يحارب به أهل القبائل بعضهم بعضاً وهو لا يساوي إلا الحبّ بين اثنين وهبا نفسيهما لبعضهما البعض.. ولكن هل كان عابد يستحق كلّ هذا الشرف وكلّ هذه التضحيات؟..

لقد شهد كهفهما الصغيرتلهّفاً كحرِّ الجمر المستعر بنار الهوى... حتى كان اللقاء الكبير.. اللقاء الذي أسرفت فيه العطاء حدّ فقدانها عذريتها.. ونسي هو فيه نفسه وحدوده وانجرفا في تيار الإثم....

لا..لم يكن تيار الإثم بل بحر العشق..الإثم هو انغماس جسدين بلذة الجنس وحدها كأنّه الرقص مع الشيطان.. ولكنّ العشق هو انصهار قلبين داخل جسدين ذابا حدّ التوحّد والارتقاء إلى صوفية العشق..

لقد سُحِقَ جسدها بجسده سحقاً عامراً بالدفء والنشوة.. نشوة لم تكتشفها إلا وهو يمرّر بشفتيه على أنحاء جسدها فيزيد روحها ارتقاء لأعالي الجبال لتصل إلى قممها وتستريح هناك.. وتلملم أنفاسها وتعاود الهبوط بعد أن تشبّع أوصالها بلهفة

الوصال..هذا التشابك كان يمنحهما مزيداً من اللهفة لإشباع جسديهما إشباعاً كاملاً..

لم يكن عابد أنانياً في الحب فقد أراد لها السعادة القصوى كما أرادها لنفسه وأدخلها عالماً يحفل بأضواء لازوردية محترقة بالمتعة.. فتاه وتاهت معه..

لم تفق من نشوتها في ذلك اليوم إلا بعد أن أحسّت بوخز الألم وبدماء تتدفق...فجحظت عيناها وارتبكت وخافت ثم بدأت تشهق بدموعها..

حاول تهدئتها وهو يرتجف.. فسألته واجفة واجمة:

- ما هو مصيرنا بعد أن فقدت عذريتي وأنت تنتمي لدين آخر.. وشريعتكم كما شريعتنا تحرّم زواج أبنائها من غير دينهم؟

ازداد اضطراب أفكاره وردّ وقد استغرق في همٍّ عميق:

- لن أتزوج غيرك ما حييت.. علّ الله يحدث معجزة تزلزل الكون ويرحم حبّنا ويرأف بنا..

حملقت في وجهه بسخرية وقالت بصوتٍ باكٍ:

- هل تريدني أن أنتظر من الله رحمته وقد سلبني حبك أغلى ما أملك يا عابد؟ قل لي بربّك هل يرضيك هذا الحل؟

وجم ولم يرد... تمنّت لو تنقضّ عليه وتهزّه حتى يعرف مدى الخطأ الذي ارتكبه بها ولكنها كانت شريكة له فيه ومشجّعة عليه.. لقد اشتهته أكثر مما اشتهاها وحثّته على المضيّ في علاقتهما الجسدية الحميمة لتبلغ أوجها وتصيب كلّ ما هو ممنوع أو محرّم.

كانت علاقتهما كالفاكهة المحرّمة التي نهى عنها الله آدم وزوجته ولكنّهما استلّا سهم الطمع واغترفا منها بنهم فهلكا وهبطا بعضاً إلى بعض إلى الأرض من دون فرصة للتكفير والغفران..

لم يملكا حولاً ولا قوة فيما اقترفاه سويّاً سوى بأن يكتما السرّ ويغلقا عليه زوايا هذا الكهف الصغير ويرميا المفتاح في نهر البردوني الغائر في الطبيعة الخلابة..الشارد في لبّها بمفاتيح جنانه..

عادت إلى القصر وهي ترتجف من الخوف.. وكأنّ أمها قد اطلعت بطريق الحدس عمّا بها فلحظتها بعين خرساء غاضبة.. أو هكذا خيّل لها.. وحتّى أباها حدجها بنظرة استوائية غريبة.. لا.. لا بدّ أنها تهذي..

وفعلاً كانت واهمة.. فقد كان أبواها حزينين لأنّ الوضع يتأجّج في الخارج والفلاحين يعلنون حالة من الهيجان.. فتنفّست الصعداء ودخلت غرفة النوم لتشهق في بكاء مرير تخلّله تأنيبٌ من ضميرها لخيانتها ثقة أمها وأبيها والأهم ثقة المسيح فيها وأمّه مريم العذراء الطاهرة الناصعة التي منحت عمرها للنقاوة والمحبة بعكسها هي.

كان هذا في شهر آذار..في ذروة ربيع سنة 1860 وقد نضج جسدها وتكوّر نهداها وعطف جمالها على ذورته وبات إغراء جاذبيتها لا يقاوم..

وحينها كانت تقرأ هذا في العيون التي ترمقها باشتهاء والشفاه التي تتودّد إليها بمعسول الكلام والفعل...

ولكنّها لم تهب هذا الجسد الفائر بحسنه ودلاله إلا له وحده.. هذا الشاب الدرزي الذي ثملت بحبّه واكتوت بجرحه لاحقاً..وقد سحره جسدها سحراً جهنّميّاً آسراً

فمضى يغترف منه كالشريد المطارد الذي وجد زاداً يكفيه شرّ الجوع القاتل.. فانتشيا معاً حدّ الهذيان..

قبّلها في كل نقطة قد تخطر في البال.. من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها فمضت تتأوّه بين ذراعيه وقد تأجّجت رغبته أكثر فأكثر..

لم تكن تعرف أنّ لجسدها ثورة تجتاح كل كيانها وتتفجّر على يدي حبيبها..هذه الثورة لم ولن يعترف بها مجتمعها الذي يرهقها بسلطة خرقاء لا معنى لها إلّا في الشرق لأن الفتاة خُلقت فيه للزواج والإنجاب..ولكنّها تهبُّ في الجسد إعصاراً عاتياً مهيب الجانب..

وتكرّرت هذه اللقاءات الجسدية المتأجّجة بينهما بل باتت تحسّ أنه يرغب فيها كل يوم أكثر من اليوم الذي مضى وأصبحت هي أيضاً تحتاج إلى جسده في رغبة عارمة متصاعدة.

وكأنها اطّلعت معه على كلّ أسرار العلاقة الزوجية الحميمة فتعامل معها على أنّه زوجها فهو يصرّ أن ينقدها المال رغم عدم حاجتها إليه ويمدّها بالهدايا حتى يحسّ بأنه مسؤول عنها وأنّها له وحده.. ولكن.. هل كان يدفع لها ثمن لذّته ونشوته معها بحجّة المسؤولية؟ بيد أنه يعرف أنّها ليست بائعة هوى وهي من عائلة فائقة الثراء وعظيمة الحسب فلماذا تخامرها مثل تلك الأفكار السوداء القاتمة؟ هل هو وخز الضمير يعنّ في بالها؟ وهل أحسّ بأنها رخيصة حتى تعطي ظهرها للعادات والتقاليد والشرف وتفرط معه في كلّ شيء؟ أم إنّه قدّر حبها الكبير له وهيامها به؟

لم تنكر بأنّ سعير الرغبة التي تأجّجت بينهما قد ضاعفت حبّهما ونكّهته بطعم الفرح.. ولكنّها خلقت لهما همّاً جديداً...كيف يتصرّفا بعدما وقع ما وقع؟ وما هي يا ترى نهاية المطاف في قصّتهما المستحيلة؟

لقد اعتادا على ممارسة الحب وأدمناه حتى شعرت يوماً بأنّ تفاهمهما الجسدي بات أقوى من تفاهمهما المعنوي..إذ كثيراً ما تشابكا في كلامهما في مواضيع شائكة حول الدين والزواج المستحيل والأهل والتقاليد..

تصاعدت نيران الرغبة في جسدها وأحست بالدماء تتضرّج بالحياة في وجنتيها الذاويتين وكأنها عادت لمرح الشباب وزهوه وهي تذكر هذه اللقاءات الحافلة بالاستمتاع والعشق بينهما وحاولت أن تتشاغل عن ذكراها بالصلاة والترتيل... إنّ مسامات جسدها تشتعل عندما ترنّ ذكراه في بالها وينتصب طيفه في خيالها قويّاً فتيّاً عارياً يحتضنها في لهفة ويتّحد بها وينسجُ من عظامه امتداداً لجسدها.. فلا تنتمي إلا إليه ولا تسكن إلا فيه.. علام يشذّب الإنسان جذوع الشجر ولا يشذب الشرور عن نفسه بل يحبّبها إليه في لهفة وتناحر لرؤياها؟ لقد كان يثير فيها اهتياجاً جامحاً فيعلو وينخفض فوقها كالحصان الجامح وهي تخفق في جوانب ضلوعه كجزء من نبض قلبه الذي لا يفتر وهو معها بل يتهافت بحنوٍّ زائدٍ..

كانا يبلغان الذروة متّحدين وفي الثانية ذاتها وكأنّ جسديهما قد اتّحدا كروحيهما وانتفضا كتلة نارية لا تخبو إلا عندما تحتدم بانهمار المطر..

وكان مطرهما زخّاً خافتاً عطراً بالرغبة مفعماً برعشة الحب العجيب..

وقد سألته بعد ممارسة الحب يوماً:

- هل تعتقد بأنّ مضاجعتك لي ستثبط من حبك لي ؟

عقد ما بين حاجبيه مستنكراً من سؤالها وردّ بحزم:

- طبعاً لا يا ميرا.. إنّ ما يعنيني هو أنتِ بروحك وجسدك.. إنّ اللوحة لا تقاس بجمالها بالخارجي فقط بل بمعانيها الصارخة فيها وهذا ما أستنبطه فيكِ..الألوان والحب والقدسيّة والرمزيّة..

لم يرق لها جوابه فتردّدت ثانية ثم قالت:

- ولكنّي لست لوحة تُعلّق على الجدار يا عابد.. أنا امرأة.. بأحاسيس عارمة وشرايين نابضة.. ولست للفرجة ولا للعرض..

ضحك وقال مداعباً:

- لم أقل أبداً إنَّك للفرجة حبيبتي.. أنتِ لوحة خالدة مثل لوحة الموناليزا التي أخبرني عنها يوماً القنصل الفرنسي في بيروت وهو صديق أبي.. فقال لي إنّ دافنشي رسمها لامرأة لم يدرك أيّ ملامح يستخرجها من وجهها.. فهي تتأرجح بين الدمعة والابتسامة.. ولا تبوح بالغموض الذي يكتنف أعماقها. وأنت مثلها لوحة إنسانية نادرة.. حتى أنا لا أملك مفاتيح لغزها..

ابتسمت وضمّته إلى صدرها فداعب شعرها بأنامله الطويلة ثم تسلّل بها رويداً رويداً إلى صدرها ليغازله..

وتنبّهت جدّتها يوماً إلى جسدها الذي بدأ يعلن فورته الأنثوية الطاغية ويرسم تضاريس خارقة، فقد كبر نهداها بشكل كبير وملفت ونهضت ملامحها من التفتّح الأول إلى مرحلة النضوج الرائع..

وسألتها يوماً وهي تدنو منها هامسة:

- إنّ جسدك ينمو بسرعة خارقة وكأنّه جسد امرأة وليس جسد فتاة يانعة فتية..وهذا النموّ السريع يقلقني يا بنيّتي..

أصابتها شظايا كلامها بالغثيان وتلعثم لسانها وكاد يفضح سرّها وهي تجيب ببطء وقد احمرّ وجهها انفعالاً:

- ماذا تقصدين يا جدتي.. وهل لي من سلطان على جسدي حتى أمنعه من النمّو ؟...لماذا لا توضّحين كلامك؟

قالت جدّتها بعد تردّد:

- هل لك علاقة بأحد الشبان يا ابنتي؟

صرخت باستنكار وكأنّ رئتيها تستجديان الهواء الذي نفد منها"

- كيف تتّهمينني بشيء من هذا القبيل يا جدتي؟.. هل وصل بك الظلم وسوء الظن إلى هذا الحد من الإثم فتشكّين في شرفي وأخلاقي؟

صمتت جدّتها ولكنّ عينيها كانتا ترمقانها بشك، وبكلام مقذع لم تستطع أن تبوح به علناً.. وكأنها تطلع على خباياها بحذر..فزاد كرهها لجدّتها وازداد بعدها عنها وتجنّبها إياها.

وسمعتها مساء تتكلم مع أمّها همساً وتنبئها بمخاوفها وتصرّ عليها بأن تزوّجها بأسرع وقت ممكن.. ولم تكن ردّة فعل أمها مبالية فهي تعرف أنّ ابنتها تعشق السكون والتأمّل ولا شيء سواهما يأخذ من حيّز تفكيرها فطمأنت الجدة وأكّدت لها بأن مخاوفها محض سراب..

وقرّرت جدّتها بأن تحذّرها أكثر فراحت تتحدّث أمامها عن الجنّة والنار وعن شرف البنت وعقابها إن اقترفت الحرام.. وذهبت في تقريعها بأن لمّحت لها بقسوة عن الرجم والقتل الذي ينتظر الفتاة الزانية وكأنّها تعدها به وتقرّر لها مصيرها الأسود.

ربّما شكّت جدتها بمتّى فهو الوحيد الذي فُضح أمر غرامه في القرية كلّها.. فالفقير دائماً مذموم ومكروه وتحت مجهر الظلم تطوف أخطاؤه للسطح ببساطة بينما الغنيّ في منأى عن الحكم والمحاكمة لأنّ أمواله هي الغطاء وهي الدواء لكلّ علة..وهذا بالظبط ما كان عليه منطق جدّتها والأسر الرأسمالية التي عرفتها في زحلة.

وكيف يخطر في بال جدّتها بأنّ حفيدتها قد تعشق شابّاً درزيّاً وضعه القدر لها على باب كهفها السرّي من باب الصدفة البحتة؟

لم تكترث لكلام جدّتها وتركتها تشكّ بمتى وتلهبه بسياط نظراتها وغرقت هي أكثر في خطاياها وفي لذّتها مع عابد.. وكأنّها بها ترتقي لعوالم أكثر تحرّراً ونضوجاً..وتتحدّى كلّ تقاليد عصرها باستخفاف وطيش..

" أخطأتِ يا ميرا.. أنت ملعونة..ملعونة.."... الصوت اللعين يئن ثانية من أعماقها فكيف تسكته؟ كيف تهرب منه وإلى أين؟

ستقفز بالزمن إلى ما بعد خطيئتها وما حدث... ولكن.. ها هو الصوت يعود ثانية فاغراً فاهه بضراوة: "هل ستتحدثين عن حسن؟"...

تنفض الصوت من أذنيها بشدّة.. ترتعد كزمهرير صفعته قبضة الريح فشهق بعمق مفزع.. يا الله أين تلوذ من كلّ هذا الوجع المتلف لأعصابها والمرهق لحواسها جميعاً؟...

إلا حسن..لقد عقدت النية على أن تتناساه رغم أنه يحيا في داخلها ويتلوّن مع الشمس والريح والمطر ويطرق بلور شباكها كل صباح بابتسامة حانية كتلك التي منحها إياها عندما زارته بعد أن هدّها الشوق..

لقد راودتها مرة فكرة الانتحار حتّى تتخلّص من شوقها له تماماً كما حدث مع عمتها زلفا ولكنّها خافت من غضب الرب لتحريمه في كتابه المقدّس.. إذن أين الملاذ؟..وكيف تنسى؟

الغريب بأنها لم تعترف بخطاياها أمام الكاهن فقد خافت على سرّها حدّ التغلغل فيه فباتت مبهمة في كلّ تصرفاتها وأفعالها وأقوالها..

بطرس.. عابد... متّى... و.....حسن.....أسماءٌ تنخر ذهنها في القيام والقعود حتى وهي تجثو على قدميها والمسبحة في أناملها ترتعش بتسبيحات للحي القدوس.. لن تستسلم لحوافر الصوت في مخيلتها ستفرّ منه بعيداً كما فرّت في السابق من كلّ شيء حتى من نفسها..

لم يأتِ بعد الوقت لذكر حسن...هناك صمتٌ عارمٌ يكتنف اسمه كالسكون الذي يشمل الكاهن وهو يدنو من الصليب واهناً خاشعاً..

وهذه المرّة ستداوي الروح بدائها.. داء الألم.. إنّ الذكريات هي أكثر الأماكن إثارة للألم وقد لا نكبت الألم إلا بماهيته التي إن ارتفع علوّها في إناء القلب تفيض حتى الثمالة فتهن وتذوي رويداً رويداً..

هي الخاطئة الزانية الهاربة التي أخطأت كثيراً تجول الآن في الدير وكأنها ملاك طاهر يرشح منه النسك.. إنّ حبّ أهل القرية هنا لها محض أكاذيب بنتها لهم بنفسها عندما أوهمتهم بأنّها فتاة لا ماضي لها ولا غبار عليها وبأنّها ولدت لتحبس روحها في صومعة الرب..

لو تعلم الراهبات اللواتي يرمقنها بنظرات الحب والإعجاب عن ماضيها لكنّ طردنها من الدير شرّ طردة.. ولو تعلم الأخت زلفا بحقيقتها الآثمة لأمرت بنفيها إلى الطريق وبمنعها حتّى من حضور القداس..

متى تصبح قادرة على أن تقرّ بالحقيقة مهما كانت عواقبها وتعترف للكون كلّه بما جنت واقترفت حتى ترتاح وتغمض جفنيها إلى الأبد وضميرها لا يعرف الوجع الأقصى؟ متى تستطيع أن تنحر الوجع الذي يتبخّر كالماء في المحيطات ويتصاعد عبر الهواء فيتكاثف ويتكوّن غيماً يرشح مطراً ينهمر على الأرض ثمّ يتبخر ويتصاعد من جديد؟..

في الطبيعة تكرار من غير بداية ولا نهاية ولكنّ قصّتها لها بداية والنهاية آتية لا ريب فيها ولا تعرف متى.. فقط تنتظر قدرها كالمستكّع الذي أضناه التعب وهو لا يعرف أين وجهته لأنّه متشرّد لا منزل له يبيت فيه..لقد استسلمت لقدرها طويلاً ولم تقاومه إلّا قليلاً وتمنّت لو أنّها عرفت كيف تظهر بسالتها في الحياة وتقاوم قدرها..

لقد قرأت كثيراً وحلمت أكثر وها هي الآن تجوب ذهنها في كلمات نبعت من صميم قلبها فتردّد بكلّ جوارحها:

"أنتِ يا مريم العذراء عرفتِ حبّ الأم لطفلها فاعذري شوقي الجنوني..الفرق بأنّك أطعتِ وأنا عصيت.. قد أسدل أهدابي على وزرٍ واحد بأنّ فتنتي كانت

الحب وخيبتي كانت الوجع ولم يخامرني الا جنون ما فعلت.. في كل صباح يوغل في لظى السراب سرٌّ وهمسٌ لسيد شوقي الذي أهرق عمري على قطرات مطره...يرتّل مع لهاث طيور الهجرة ترانيم الحنين وهو يرسم في عقر السماء جنون ترحاله مع أهازيج عاصفة الصيف وينثرها في خزائن الدهور..يقول الإنسان إنّه قدري...فهل الحب قدر؟...تشح لحظات بين الآه واللا...بين النبض والصمت...يا عذراء كيف ترتحل الصبابة في عروق الروح تشدو الحبيب...حتى في أحلك هبّات الألم؟ لقد عرفتِ أنّ الرحيل صعبٌ عندما فارقتِ يسوع مصلوباً في عيون من نكروه وقبل أن يقوم حيّاً..وأنا صُلبتُ لأنّي أحببت ونُهب شرفي لأنّ شوقي للمحبوب كان أكبر.. فأرجوكِ..اغفري لي يا مريم العذراء فوداع الماضي صعب ففيه نودع قلوبنا رهينة النسيان لعلّه يبلسم الوجع بترانيم الصبر ويحلّ ضفيرة الآه في زغاريد المساء الذي يبشر بالغد القريب...الوداع هو أن نحيا ونحن نلوح للذكرى دون أن نجرؤ أن نحيي رفاتها....فما أمرّ الوداع وما أجرأ النسيان وما أطهركِ أيّتها العذراء القابعة على هضبة الطهر"..

هي لا تقول شعراً ولم ترمِ إلى نظم خواطر حالمة لكنّ المناجاة وضعتها وجهاً لوجه أمام سيدة الكون مريم فباحت لها بهذيانها..

ثم تمتمت بخفر وهي تمسحُ دمعة ساحت على خدّها حارّةً كالمعصية، مرّةً كالصبر الطويل الذي اختزنه صدرها: "اعْتَرِفُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ بِالزَّلاَتِ، وَصَلُّوا بَعْضُكُمْ لأَجْلِ بَعْضٍ، لِكَيْ تُشْفَوْا. طَلِبَةُ الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا".

إذن ستدواي نفسها بالذي كان هو الداء.. وليذهب خوفها إلى الجحيم ولتواجه ماضيها وهي تقبع في ظلمة لا يراها فيها إلا وجه الله.

الفصل الرابع

في شهر أيّار كانت الفتنة بين الإقطاعيين والفلاحين قد نشبت أظافرها في عنق البلاد ولم تقبع في حيّزها العام حيث الفلاح يثور على سيده، ولكنّها تجاوزته إلى فتنة طائفية كبيرة حيث ثار فلاحو الموارنة على الإقطاعييّن الدروز وثار فلاحو الدروز على الإقطاعيين الموارنة..

لم ينجح بطرس رغم محاولاته في كبت الفتنة المدسوسة في الصدور وهو الذي بدأها بنيّة المساواة بين الطبقتين وانتهى متّهماً وخاصة من قبل اللمعي بالتسبّب بالفوضى العارمة والمجزرة التي لحقت بالموارنة..

وصلت أخبارٌ إلى زحلة بأنّ بعض الرجال الموارنة قد أطلق النار على رجال من طائفة الدروز عند بوابة الدروز.. والبعض أكّدوا العكس.. لا غرو بأنّ لعبة الكيّ والعيّ قد بدأت في طيّ الحقد الدفين..

كان هناك الكثير من اللغط والوشوشات الحائرة القلقة والتوجّس من موقف العثمانيين إزاء ما يحدث وهم الذين دأبوا على تذكية النفوس بالحقد والنميمة.. وقد حاول أعيان المدينة ومن ضمنهم أبوها إرسال وفد إلى القرى الدرزية المجاورة لمقابلة أعيانها لمعرفة الوضع هناك.. ولكنّ الوفد عاد منكّص على أعقابه يشي بالخيبة الكبرى..

وقد انقطع فجأة عابد عن زيارة الكهف.. كانت الأجواء تنذر بغيم أسود يجتاح القلوب بمطر من سجّيل..

وفزعت إلى نفسها ترقب الآتي بعين ضامرة من الحزن.. لم يكن هناك من أمل سوى الصبر.. ريثما تنقشع هذه السحب الغاضبة..

ولكن..أين هو؟ ألا يفقه مدى عذابها من دونه؟..هي من وهبته الروح والجسد وردمت كآبتها من دونه بمعول التصبر الأليم.. ماذا عساه قد ألمّ به.. هل هناك ما يعوقه من المجيء حقاً أم إنّه ملّ عشرتها وسئم جسدها فانطلق إلى حال سبيله؟

الأحداث تتواتر والقلب حزين.. وكلّ خبر يفد إلى مدينة زحلة له وقعه الجبّار.. حيث يتحلّق الأهالي حول القدّيسين في الكنيسة يُقلّبون آخر الأخبار ويسترقون النظر في وشاح الغيب الأسود الذي يلوح جهراً.

كانت الصلوات هي شعار الجميع والنبض يزداد خفقاً.. واسم بطرس تتفوّه به شفاه الأسياد ساخطة حاقدة.. وتترنّم به شفاه الفقراء خاشعة حاضرة..

صادفت في طريقها متّى يوماً وهي تمشي في طريقها إلى الكهف الذي كانت تذهب إليه كلّ صباح على أمل أن يكسر عابد سور انتظارها ويأتيها كعادته..

لم تشعر من سماكة إحباطها بقدرتها على أن تومئ له بالسلام فأكلمت طريقها والدمع يكاد يثب من محجريها وعيناها توشوشان سرّاً باسم حبيبها.. جاوزت الفلاح المسكين دون أن تأبه للمصادفة التي تجمعهما دائماً..

سمعت صوته من ورائها وهو يخاطبها بكلمات جعلتها تتحنّط في مكانها وترسل بصرها في نظرة زائغة متعجبة..

- إن كنتِ قلقة بشأنِ عابد سوف أذهب بنفسي إلى قريته لأستطلع لك عن أخباره لأنّي لا أحب أن أراكِ حزينة..

تهدّلت خصلة من شعرها على جبينها ثم تطايرت مع نسائم الربيع الطريّة التي تبعث في النفس سحراً يناقض القلق المنثور في جوّ المشاعر المضطرم.. وتيبّست شفتاها ولم تحر نطقاً..

فكرة واحدة اخترقت رأسها ودارت فيه حتّى العجب.. كيف عرف اسمه؟ بل كيف عرف ما بينهما؟ وهل عرف كلّ شيء؟.....

شيئاً فشيئاً بدأت الأمور تأخذ نصابها والوعي يتفتّح في رأسها كالزهرة التي أضناها ريح الخريف... لقد آل إلى التنصّت والتجسّس إليها.. ولا بدّ أنه يعرف الكثير وأكثر ممّا تتصوّر.. لم يكن سرّاً إذن لقاؤها مع عابد ولم تكن همساً حكاية عشقهما الصامتة.. ها هو متّى يجاهرها بالقليل ممّا يعرف ويكتم الكثير عنها..

لم تدرِ كيف تتصرّف.. هل تدير ظهرها عنه وتذهب بغير مبالاة؟ أم تلتفت إليه وتلطمه لطمة قوية على خدّه لتفقده صوابه وتعيده إلى حجمه الطبيعي كعامل عندها وليس كجاسوس عليها؟ ولكن في كلتا الحالتين ستخسر كثيراً.. فهو ربّما أفشى سرّها وربّما ذهب إلى أبعد من ذلك فمرّغ بشرفها الأرض..فهو إن عرف اسم عابد فمن المُحتمل بأنّه يعرف أسرارهما الكبيرة التي حرصا كلّ الحرص على كتمانها..ولكن.....

يا لعارها وخزيها.. ودّت لو تنفرج الأرض عن شقٍّ كبير لتغيب تحت دركه بكلّ رغبة.. إنّه لمن الجنون أن تجيب.. فطال صمتها حتى ترامت إليها كلماته ينطقها بصدق من جديد:

- ميرا إني لصادقٌ فيما أقول وسأذهب من فوري لأسأل عنه.. لم أعد أطيق السكوت وأنا أراكِ ساهمة شاحبة تزدادين نحولاً كلّ يوم وأرقبك بعين ساكنة..لا تعتريكِ الدهشة يا ميرا فقد مررتُ يوماً بطريق الكهف وسمعتُ

همساً.. كنتُ فيما مضى ألمحك تتّجهين إليه فيزداد توقي بأن أتبعكِ ويأخذني الخجل من إزعاجكِ ومن العهد الذي قطعته على نفسي بأن لا أضايقك بعد أن جرى ما جرى من أبيكِ.. فأقبع في مكاني واجفاً.. ولكنّي في ذلك اليوم أنصت فسمعت اسمه يتردّد في شفتيك بحبٍّ ودلال.. وذهلتُ ولكنّي ابتعدت..إنّ سعادتكِ بالنسبة لي هي أكبر من خيبتي..

أحقّاً ابتعد؟ سألت نفسها والخجل يضرب خمار رأسها بجنون وحبّ الانتحار يراودها كما راود عمّتها الجميلة يوماً.. سمعتها باتت ملكاً لهذا الفلاح المسكين الذي عرف الوجع من عشقها دون أن يتأوّه.. لم تلتفت بعد.. هي تسمع فقط وتعطيه ظهرها كتمثال فائق الجمود..

- ميرا.. لا تضطربي ولا تجزعي.. لقد أترعت قلبي من كأس الحبّ سمّاً زاعفاً ولكنّي لم أحقد.. ولا أريدك أن تتلوّي من قلق العشق مثلي..سأبحث لك عن عابد.. دلّيني على قريته قبل فوات الأوان.. الحرب قادمة إلينا يا ميرا.. إن لم تطمئنّي عليه ستفقدينه وربما إلى الأبد..هيّا لا وقت هنا للتردّد ولا للخجل..

من يلملم لها مشاعرها المبعثرة على قدمي متّى الذي يمتلك مفتاح سرّها.. وحده يستطيع أن يقضي عليها بكلمة واحدة.. كلمة يشي بها لوالدها انتقاماً عمّا بدر منه في الماضي فينتهي أمرها....

ولكنّها تراه أمامها محبّاً عطوفاً يمدّ لها يد العون بثقة.. ليس بيدها حيلة.. عارها كبير وفضيحتها أكبر وعشقها يكبر على الاثنين معاً.. فليس هناك بدّ مما لا بدّ منه.. التفتت إليه أخيراً وهي كالغائبة عن هذه الدنيا وقد ضمّت يديها لصدرها وكأنها تدرأ عنها خطراً آتياً...

تقدّم منها متّى وتناول يدها وهو يرتجف رهبة من حضورها وضغط قليلاً عليها مطمئناً وقال:

- أنا معكِ لا تخافي مني يا ميرا..

اشتدّ خفقان قلبها ولكنّه أحدث نوعاً من الطمأنينة عندما مسّ يدها سرت في جسدها وجعلتها تنطق أخيراً:

- أنا لا أعرف ما الذي تعرفه يا متّى.. وسواء كنت تتلصص علينا أم سمعتنا سهواً كما تقول فإنّ عابداً صديقٌ فقط وأنا قلقة عليه لما جمعنا من الصداقة والأخوة.. وأخشى فعلاً من أن يكون قد أصابه مكروه..

رانت نظرة الشك من عبارة "صديق"على عينيه ولكنّه تجاهل جوابها قائلاً في لهفة صادقة:

- الأمر سيّان.. سأسأل عنه فهلا أعطيتني اسم قريته؟

وبإرادة سُلبت منها أعطته اسمه الكامل واسم قريته.. مرّت على وجهه آيات الدهشة عندما عرف أنه درزي وهزّ رأسه بحركة خفيفة وكأنّه يأسف على هذا الحبّ المستحيل وودّعها ليذهب إليه ومضى.. فأصابتها بغتة نوبة من البكاء انخرطت فيها وهي تصرخ في أعماقها... هل يعرف متّى بزلّتها أم إنّه يجهلها؟..آه لو عرف بأن شرفها هُدر في سبيل الحبّ المحرم الذي سلبها أغلى ما تملك وقدّمها ضحية على مذبح العشق الدموي.

ولماذا تسأل عنه؟.. هل تركض وراءه لتتوسّل إليه أن لا يتركها بعد أن عرّت نفسها أمامه وجعلت من جسدها معبراً لحرارة جسده؟.. هيهات أن تأسف أو تندم فما حدث قد حدث ولم يبق لها إلا أن تنتظر ما سيحدث..

لم يعد متّى حتى المساء.. وانتظرته بقلق مضنٍ وقلبٍ خافقٍ عليل.. هل يكون محبوبها بخير؟.. إنّ العار يهون أمام تدفّق شلال الحبّ الذي تستنزله السماء كغيث الأحلام الراقدة في عبّ الكون الحافل بصخب البشر..لم تكن سوى ناسكة جرّتها السكينة لهذا الكهف الصغير لتتملّى وجه الله من خلال ثقوبه وتناجي السماء برحيق الإيمان فاعترض حبيبها دنياها ودخل فيها هيّاباً فيَاضاً بالحب فاستسلمت بقلبها وجسدها...

منذ عرفته عرفت الشعر الذي يبثّه نايُ راع ممتزجاً بنغم العشق من وادي زحلة البعيد..واستنشقت عبير الحنين من طيّات الزهر الحالم.

هرعت إلى الكهف لتبثّ نجواها وحدها إلى اللامرئي..اللامحسوس. فهو في نظرها لا تضاهيه قوة..تمتمت في سرّها كالصلاة:

"هناك مدن لا تفي بوعودها تماماً كالسحب الممتدة بين المدى والأفق تشي بنذير المطر ولكنها لا تهب منه إلا ما يرطب حلق السماء كأنها تضنّ به وتشح فيه حدّ العجب..تلك المدن فيها ضعت ومنها بكيت ولها عدت...تصوّر يا صديقي ويا حبيبي كم يلزمني من عهود حتّى منها أتوب ولكنّي لا أتوب...قد أبكي...قد أتأوّه..ولكنّي شريدة فيها حتى آخر رمق..لأن دمي اختلط بزبدها وجسدي تكوّر بين رحاها...وها أنا أكتب إليك من سجن من سجونها..سجن أبدي أهرب منه الى مدينتك التي هي أيضاً تعد ولا تفي كلماتي... أحنُّ إلى صدرٍ حنونٍ ينبش من قلبي كلّ الآهات ويحرق بعض الذكريات أو كلّها...لا بأس، عميقٌ حزنها كثيراً.. وقد يلجها النور يوماً قبل الرحيل.. سأحبّكَ كملكة تأوهت في قوارير العشق.. وأنساكَ كجارية تمرّدت على أسوار الحريم في عهد الأتراك...حتّى أودع في حواسّكَ رحيق الذكرى وطريق النسيان.. ما من أملٍ في الحبِّ المستحيلِ إلا

النهايات.. النهايات هي التي ترسم حتفه وتوقد جمره ليستحيل رماداً يودعه القلب في ترتيب الماضي وليس العدم..لأن هبّات الماضي تعودنا حيناً بعد حين..وفي صباحٍ يوغل في لظى السراب سرٌّ وهمسٌ لسيد شوقي الذي أهرق عمري على قطرات مطره...يرّتل مع لهاث طيور الهجرة ترانيم التوق وهو يرسم في عقر السماء جنون ترحاله مع أهازيج عاصفة الصيف وينثرها في خزائن الدهور ..."

مرّ الوقت حتّى المساء متلعثماً غائماً مثلها.. حتّى لمحت متّى أخيراً قادماً من بعيد وهو يجرّ قدميه من التعب.. فخرجت إليه..هل خانه الحظ ولم يعثر عليه؟...هل هناك خبر حزين منه أو عنه؟

تجلّدت بالخطوات القليلة التي تفصلها عنه وبغياب أبيها وأمّها عن البيت لزيارة قريب أمها تزوّج حديثاً.. حتّى وصل إليها لاهث الأنفاس.. حملقت في وجهه باحثة عن خبرٍ ما وقد تضوّر نبض قلبها خوفاً.. ابتسم لها مطمئناً فندّت عنها تنهيدة سهواً لم تدر كيف تخفيها..

استراح قليلاً وقد تربّع على الأرض.. ثم رفع رأسه إليها وقد ازدادت ابتسامته اتساعاً ليشيع الاطمئنان في قلبها وقال:

- عابد بخير وهو يقرئك السلام.. وقد عاقه عن الحضور إليك ممانعة أبيه له من التجوّل في القرى المسيحية بسبب الوضع الذي يسري في الخارج.. وهو على العهد كما كان.. وكلمة السر هي بطرس..

العجب يأخذها والقهر يتملّكها.. هذا الفلّاح المسكين الذي يعشقها خاطر بنفسه وذهب بقدميه إلى منطقة أهلها من الدروز جميعاً حتى يطمئنها عن حبيبها وقد تخلّى عن أنانيته وطمس غيرته في جنبات قلبه من أجلها.. بينما حبيبها يرضخ

لأمر والده بأن لا يعرّض نفسه للخطر ولا يأبه لقلقها ولا يندى قلبه شوقاً إليها أو حتى يفكّر بما آل إليه حالها في غيابه؟...

هل هذه غطرسة أم قسوة أم هجران؟ سألت نفسها وهي تكاد أن تقع مغشيّاً عليها.. الذنب ذنبها فقد سلّمته كلّ ما هو محرّم وختمت على قلبها بالشقاء الأزلي.. تمنّت أن تأتيها الشجاعة التي تحلّت بها عمتها لحظة انتحارها..

وكأنّ متّى قرأ ما يدور في رأسها فابتسم مشجّعاً مخفّفاً عن ألمها قائلاً:

- لا تحزني يا ميرا.. الأيام القادمة كثيرة.. وسوف يأتي.. إنّ طريقكما واحد..وأنا واثق بأنّه يحبّك..

ولكن الأيام تمضي وعابد لا يأتي.. القلق في الخارج يتكاثف كالسحب المنذرة بالطوفان والغصات معلّقة في الحناجر المتجمّدة على قسوة ما يحدث وما لم يحدث بعد.. إنّ أباها يزداد تجهّماً وقسوة خاصّة مع الفلاحين في أرضه الذين يندّدون ببشاعة الإقطاع ويشيدون ببطرس..وأمّها شاردة واهنة الذهن.. وجدّتها تحوم في منزلهم كالفراشة التي تهوى النور الساطع القوي كي تلهب حواسها.. وهي مكدِّسة جسدها نهاراً في الكهف ترقب الغائب البعيد وليلاً في دارهم ترقب من النافذة عربات الأحصنة الوافدة من القرى المجاورة...

لا جديد سوى أنّ هناك المزيد من القتل والنهب والفوضى.. أين ذهب بطرس؟ أوَ ليسَ هو بزعيم الثورة؟ لماذا لا يهزم هذه الدسائس ويحمي ثورته من زلّتها في دنيا القتل والخراب؟

تأوهات تتسرّب إلى الأرواح ونداءات وابتهالات.. ذهبت ذات أحدٍ إلى الكنسية فوجدتها تغصّ بأهالي مدينة زحلة جميعاً وكأنهم أقرّوا أن خلاصهم الوحيد سيكون بالصلاة...

متى ينتهي الانتظار؟..

ومرّ شهر على غيابه وجاء شهر حزيران بلظى يميل إلى الاضطرام في بعض الأحيان مع برودة في الليل وقيظ استوائي نهاراً، وهذا الطقس يمقته أهل زحلة ويتململون من غباره الكثيف..أتى ذاك الشهر بشوقه الملحّ الذي لا ينام في عينيها له.. بسهدها الطويل المؤرق وهي تتلمّس موضع لمساته القديمة على جسدها.. بندمها بأنّها أغضبت الرب وأقدمت على ما تُشنّع عليه في عرفها وتقاليدها.. كان هو المستحوذ على الذاكرة..على جميع المحسوسات والملموسات من النكرة والمعرفة..هو المدبّر لكل هذه المكائد العشقية في أرجاء قلبها والتي تقع حبائلها صاغرة صامتة...

إنّه يكيدها ببعده عنها.. وكأنّ عدوى الدسيسة الطائفية قد تسرّبت إلى نفسه فاستبدّت به وعمّت حواسه..أم تراها واهمة؟ إنّ عابداً هو أرقى وأسمى من أن يمسّه سحر الحقد وحرائق النقمة..

في مدينتها نحُرت الفضائل عندما اجتاحت جحافل النقمة الأسياد والفلاحين فبات كلّ يتربّص بالآخر.. وازدادت كراهيتهم للدروز في المناطق الأخرى واعتبروهم الأعداء الذين يتحيّنون الفرص للقضاء عليهم..

ولا أخبار عن بطرس أيضاً.. كمن يكون متخفّياً تحت قناع سميك لا قبل لأي انسان بمعرفته من خلاله..وقد برز اسم بطل جديد يدعى الزعيم يوسف بك كرم والذي سيعيّن لاحقاً وكيلاً لقائمقامية النصارى في جبل لبنان. وقد عرف بحسن

الخلق والسيرة وأشيع عنه اعتزاله لخدمة الرب بيد أنه اختار أن يعود للسياسة بعد أن هبّت رياح الفتنة على سماء البلاد من جديد..

ويبدو أن الإقطاعيين انحازوا ليوسف بك كرم لأنه إقطاعي الأصل مثلهم كما انحاز الفلاحون لبطرس شاهين.. ولكنّ هذا لم يمنعهم من أن يكنّوا الاحترام لشخص يوسف بك كرم لأن مواقفه الوطنية في السابق مشهود لها بالحكمة والبطولة والإقدام.

ووضع أهل زحلة المتاريس على بوابتهم وأخذوا الاحتياطات لأيّ هجوم مرتقب.. لم يكن أحدٌ في زحلة خاصّة يهاب بطرس لأنّ أهدافه مسالمة وواضحة وليست دموية أو فاضحة.. بل كانوا يحذرون من غدر الفلّاحين الدروز الذين احتقنت دماؤهم شرّاً لأهل الصليب.. وذكّى هذا الاحتقان العثمانيون والدول الأجنبية الحاقدة على وحدة اللبنانيين..

كانت في دارها ذات مساء بعد عودتها من كهفها الصغير الذي ذهبت إليه ساعة الطراوة منهمكة في رسم ما يتهادى في بالها من كلمات تتلوها كالصلاة: "آن لك أن تلقي عصاك يا صديقي لتتلقّف همومي...فهل أحدّثك عن الحب أم عن الشغف؟..ما الحبّ سوى محرقة للنبض ومقصلة للصمت تهتزّ أوتادها كلما جنّ المطر...فقد أضرم لهيب ذروتها أملٌ فانٍ...أما الشغف فهو فتات عمر اقتاتت عليه طيور الهجرة قبل الهزيع الأول من الويل...لقد أحببتُ وشُغفت ولكنّي رُجمتُ وصلبتُ في الخلاء حيث ترتفع السحب في خلوة فيحاء...هنا تطأطئ الجبال رؤوسها تنشجُ حنيناً بعد أن كادت تعانق السماء...وتتفجّرُ عينٌ زمرّديةٌ من حجر النهر الخالد...هنا تتعانق أرواحٌ تفرقت رغم الوعود...وتشرّدت رغم القَسَم...نحن لا ندرك مثقال ذرّةٍ حبّاً نموت..رحل الحبيبُ في ضبابٍ غافله

الخريفُ فاحتدم وارتطم بالسراب..هيّا يا صديقي خذني من أنشودة الحزن في حنو المطر...وألهبْني شوقاً لابتسامة لم أعد ألمحها حتى في الحلم"..

أفاقت من شرودها على صيحة خافتة آتية من الحقل القريب.. تكاد تتعثّر لتشقّ طريقها إلى مسمعها.. خفق قلبها بسرعة..استشعرت الخطر أو تسرّبت ريحه إلى بلور روحها فطرقتها إيذاناً بالنكبة..

نفذت إلى الخارج بسرعة جنونية ورأت أمها من بعيد واقفة تتحدّث إلى شخص يرتدي زيّ الفلاحين ولكنّ ملامحه توحي بالقوة والسيادة..ويحيط به على مسافة قريبة نسبياً بعض الفلاحين الذين يحملون في أيديهم البنادق.. كأنهم يحرسون المكان..

اقتربت منهما على حذر وهي تتوارى وراء جدار السور الفاصل بين القصر والحديقة.. وأرخت لأذنيها السمع... تشنّجت قدماها في الأرض متيبّسة وكلمات أمها ترد إلى مسمعها ثاقبة نافذة:

- ماذا أتى بك يا بطرس.. بعد كل هذا العمر.. أجئت لتنتقم أم لتفسد جوّ مدينتنا؟...لم أعهدك متدثِّراً بهذا الحقد الأعمى... كنت أخالك طيّب السريرة..

استطاعت أن تلمحه من ثقب جدار السور..رجلاً متوسّط الطول شاربه يتدلّى بعزّة وأنفة فوق شفاه غليظة وتطلّ تحت جبينه عينان لامعتان تنمّان عن ذكاء حادٍ دفين.. لم يكن وسيماً بما للوسامة من معنى ولكنّه جذّاباً بكلّ ما للجاذبيّة من معنى.. ونظرة عينه وادعة ثابتة لا تشي بأيّ حقد مما تكلّمت عنه أمها.. بل تشعّ قوة غريبة...قوّة ملأت الجوّ بضياء عجيب نافذ.. ردّ وابتسامة تشرق على محيّاه وجسده يهتزّ انفعالاً إيجابيّاً:

- لقد عدتُ من أجل الفلاحين يا مروى...من أجل الرازحين تحت نير الإقطاع وسلطته الظالمة.. ألا تذكرين ما فعلوه بنا عندما أحببنا؟ وكيف طردتُ شرّ طردة وصُلبتُ بحكمهم على ألسنتهم اللاذعة فمثّلوا بسمعتي لمجرّد أنّ أبي كان رجلاً حكيماً طيّباً ذا شعبية نافذة ثمّ ثورتهم عندما أردت أن أتزوّجك بمباركة الرب يسوع الذي لا ينظر إلى الفقير أو الغني إلا نظرة الراعي لرعيته على حدّ سواء؟

أجابت أمّها بهمس وخوف:

- أخفض صوتك...أرجوك.....تكاد تفضحنا.. هذه حكاية قديمة خدّرها الزمن حتى هوت في قاع النسيان.. حسبنا ما عانينا.. وأرجوك أن ترحل بجنودك الفلّاحين من هنا.. أكمل ثورتك في مكان آخر وابتعد عنا.. أنتَ رجلٌ ثوري لا تقدّر العواقب يا بطرس كعهدي بك مذ عرفتك..إنّك مقدام متهوّر ولم يغيّرك الزمن..كيف أتتك الجرأة أن تبحث عني وتأتي إلى عقر داري؟ هل جئت لتنتقم اليوم؟

كانت كلمات أمّها تنهمر في قلبها كالرّصاص..وخالت عندها أنّها تغرق في لجج محيط عميق هائل.. وأنّ الأصوات تترامى إليها من شاطئ بعيد..سيغمى عليها لا محال..يجب أن تسند مرفقيها إلى الحجر الكبير البارز قرب الجدار وإلّا هوت..تمالكت نفسها وتمكّنت من الثبات...

عاد صوته يقول غاضباً محتدّاً هذه المرة وقد برزت نبرة الغضب جليّة في صوته وكأنّ الماضي يجرّحه في كل ثنايا روحه:

- لم آت من أجلك.. أتيت مع أتباعي من أجل زوجك.. بصفته من أسياد آل شاور حتى نحذّره من الخطر الداهم.. إنّ الحرافيش وفلاحي الدروز يقتربون من مدينة زحلة وقد عقدوا النيّة على الشر المستطير بكم..

حلّت فترة من الصمت عقبها صوت أمها يهدر في غضب:

- اللعنة.. أوَ ليس لك من سلطان عليهم؟

زفر بطرس زفرة عميقة وأجاب ساخطاً:

- إن سطوة الأسياد المستبدة وحكم الإقطاع أحدثا زلزالاً عظيماً في نفوس الفلّاحين جميعاً على اختلاف طوائفهم.. ولكنّ العثمانيّين استغلّوا هذا الحقد الطبقي ليبثّوا رياح النقمة الطائفية.. فخرج الأمر عن متناول يدي...إنّكم إن لم تهربوا سوف...

قاطعته بعنف:

- هل سيأخذوننا أسرى؟ نحن أقمنا المتاريس على حدود زحلة..

ردَ بابتسامة حزينة ساخرة:

- لا.. سيكبّلونكم ليس بقيودهم ولكن بألسنتهم.. إنّ ما يهمّهم هو إذلالكم وليس أسركم..الأتراك تضامنوا مع الدروز للانتقام من الموارنة على مساندتهم السابقة لحكم محمد علي والدروز ينتقمون من انتقال الإمارة الشهابية الى الموارنة وأخاف أن يسوء الوضع أكثر...فالمتاريس ليست الحل ومن السهل إزالتها.. الشرّ في النفوس نقمة..والحيل كثيرة..

عادت أمها تصيح:

- بحقّ المسيح يا بطرس .. افعل شيئاً...

صاح جنوده من بعيد بأصوات عالية قبيحة..فسمعت شهقات أمها وأوامر بطرس التي بدأ بإعطائها لهم دون أن تدرك ما قاله.. ربّما سمعته يصرخ بكلمات مثل: "هؤلاء الأوغاد..انّها مكيدة حقيرة".. لم تميّز كلام أحد أو تدرك ما يجري فقد كانت دائخة..الخطر يزداد والموقف يتعقّد والخراب آت لا محال.. يجب أن تهرع إلى الكهف الصغير وتحتاط به من شرور الدنيا كلها.. ها هي أمّها تبرز أمام عينيها.. العاشقة المحرّكة في حياة بطرس والتي يلعنها الكثيرون..وهي من ألهمت ثورته وذكّتها.. لقد سخّرته ليحبّها ثمّ سَخِرت به وتزوّجت من غيره بلا رحمة.. حطّمته ثم لعنته فتحوّلت لعنتها إلى سحرٍ جنونيٍّ فيه أمدّه قوّة وشموخاً.

من يدري إلى أيّ حدّ تمادت علاقتهما.. ربما وصلت معه إلى النقطة التي وصلت إليها هي مع عابد..إنّها سمعت عن أقاويل الفلّاحين عنهما آنذاك..هل هذا معقول؟ لا..لا تريد أن تظنّ هكذا بأمّها.. أمّها التي وهبت عمرها للكنيسة والصلاة..ثمّ لو إنّها ارتكبت إثماً كهذا لكان مصيرها الذبح والرجم..لقد كانت عمّتها سعدى بريئة ومع هذا دفعوا بها للانتحار شكّاً بها مع أنّهم لم يلمسوا شيئاً بأيديهم ولم يبصروا بأعينهم.

وها هما يلتقيان بعد سنين طويلة ليقف أمامها في موقف التحدّي والقوّة.. لقد انتصر على كبريائها الزائف وتعجرفها الظالم وغرورها الأحمق.. كيف تخلّت عنه وخدعت أباها وتزوّجته وهو لا يدري أنّها تَمُتُّ بقلبها لغيره؟ لكنّ أباها من أقربائها فلا بدّ أن الحكاية قد تعمّمت بين أبناء الأسرة كلها...فكيف ارتضى على نفسه بأن يتزوّج من فتاة تعشق رجلاً آخرَ؟.. أم تراها خدعته فأوعزت إليه بأنها لم تبادل بطرس أي مشاعر وأنّه فلاحٌ مجنون يتوهّم ويصاب بتخيّلات جمّة؟ لقد

كان أبوها يثق بأمّها ثقة عمياء..فابنة الأكابر لا تكذب ولا تتجنّى على أحد في عرفهم بل كلّ ما تقوله حكماً ودرراً وصدقاً.. ولكنّ أمها في نظرها الآن هي مجرد عاشقة خائنة وزوجة خائنة أيضاً.. فقد خانت حبيبها بتخلّيها عنه وخانت زوجها بمداراة حبّها لغيره عنه.. فقتلت عاشقها بصدّها وهدرت كرامة زوجها بكذبها..وضيّعتها بالحقيقة التي عرفتها عنها..

استدارت من حول السور إلى الجهة اليمنى كي تنجو بنفسها من وقع العيون إن شاهدتها.. وإذ بها تلمح غباراً كثيفاً آتياً من البعيد.. إنّها أحصنة.. أحصنةٌ كثيرةٌ هائلة.. لم تدرِ كيف تعدّها ولم تقدر.. هي تقترب أكثر وأكثر..جنود بطرس ينادون آخرين مختبئين خلف الهضاب البعيدة.. ويصيحون بأنّ الدروز قادمون بل لقد أصبحوا على قيد أنملة منهم..وأنّ الحرب أصبحت على وشك الاندلاع.. الغبار في الجوّ يتلاطم ويتكاثف..الخناجر تخرج مسنونة والبنادق تستعد..الغبار يجتاح حلقها ويتربّص في صدرها.. يجب أن تركض بأقصى سرعتها إلى الكهف...لن يحميها إلّا مكوثها فيه...لا أحد سيعثر عليها هناك..

هناك من يلحق بها.. لا بدّ أنهم شاهدوها تخرج من القصر فعرفوا أنها من ساكنيه...ها هي تسمع أصواتاً متناثرة تأتيها من بعيد.. "توقّفي يا فتاة..توقّفي وإلا أطلقنا النار"..هناك صراخ يتجمّع في الأفق.. صراخٌ مبحوحٌ قوي..لكنّ قدميها لا تستطيعان أن تتوقّفا..قُضي الأمر إذن.. سيلحقون بها وستكون هذه نهايتها..إنّها إذن آخر لحظاتها في تلك الحياة ثمّ ينتهي الأمر.

ها هو الكهف يتراءى لها كالمخلّص من خلال غشاوة في عينيها بدأت تتجمّع والتعب قد هدّ قواها.. من المدهش أنها ليست خائفة.. إنّ يسوعَ لم يكن خائفاً وهو يواجه الموت.. لقد تعلّمت أن تتمثّل به حتى في أخطر أوقات حياتها.. مضت

تكرر هذا الابتهال "لأَنَّ اللهَ هذَا هُوَ إِلهُنَا إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. هُوَ يَهْدِينَا حَتَّى إِلَى الْمَوْتِ"...أصابعها متشنّجة في الهواء بلا مبرّر وهي تركض وتركض..

نعم هي تقترب من الكهف ولكنّها لا تدري إن كان دنوّها من الحياة أو الموت أقرب..على قاب قوسين تركض والدنيا تركض معها.. والحياة والموت يتصارعان من حولها وهي الضحية في كلتا الحالتين..

الموت يعني الصمت الأبدي الذي لا ألم بعده والحياة تعني أن تشهد الكارثة تحلّ بها وبمدينتها وأهلها.. لكنّها تركض.. يعترضها شوكٌ منتثرٌ في المروج ولا تأبه به يجرّح قدميها وينخر في جلدها الأبيض الجميل..تتألّم ولكنّ هذا الوجع أرحم من الموت الذي سيطالها بعد قليل..

ويكاد قلبها يتوقّف عن الخفقان وهي تشعر بيدين ثقيلتين تضغطان على كتفيها وتوقفها.. جفلت وتجمّدت وأغمضت عينيها وتمتمت بصلاة صغيرة وهي تودّع الحياة.. وإذ بها تسمع صوت عابد يهزّها :

- ميرا.. لا تخافي أنا هنا.. سأحميكِ..لا داعي للهرب سيلحقون بك على كل الأحوال هم وراءنا مباشرة..

التفتت فرأت الأعناق مشرئبّة إليها والوجوه الكالحة التي تقدح من أحداقها شرارات الغضب تحوقها من كل صوب.. لم يعد هناك من منفذ.. صاح صوتٌ مزعجٌ غاضب:

- إنها من آل شاور.. رأيتها تأتي من دار خازن شاور.. حيث يقف بطرس وجنوده..هي من تلك العائلة الإقطاعية الشهيرة في زحلة كما

تعلمون..فجدّها نعيم شاور الّذي لطالما مقت إقطاعيي وفلاحي الدروز على حدّ سواء..هم يتنعّمون بالقصور ويصبّون جام نقمتهم علينا..

سادت همهمةٌ فيما بينهم قطعتها أصواتٌ متنافرة وهي تتناقش بحدّة وغضب..

ردّ صوتٌ آخر مزمجراً:

- اقتلوها...اقتلوها...

رنّت الكلمات في أذنيها تنبح كريحٍ عاتيةٍ تقرع بوتر الخزي.. في الإنجيل استشار القومُ المسيح في رجم امرأة زانية واستشهدوا بشريعة النبي موسى ليحرجوه فأجابهم: "من منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"..لقد أبى أن يأتوا فاحشة بفاحشة أكبر منها.. والقومُ هنا يريدون قتلها لمجرّد أنّها مارونية المذهب..ولكنهم لا يعرفون بأنها زانية أيضاً..أغمضت عينيها لتتلقّف حكم الإعدام بصمت يشبه العدم نفسه..

هتف بهم عابد وهو يرفل برداء من الغضب:

- هذه الفتاة هي عهدتي أنا.. ومن اقترب منها كأنه اقترب مني.. اسمعوني جيّداً..إنّكم تعرفون بأني أساندكم في ثورتكم وأتمنّاها ثورة سلمية على رغم ما تحبّذونه من سفكِ الدماء.. فلا تدعوا الانتقام يرديكم في مهبّ الريح الآثمة فتهتكوا أرواحاً بريئة..تذكّروا بأنّ ثورتكم هي ثورة حق فلا تحيلوها ثورة باطل.

التفت الرجال إلى بعضهم وسرت همهمات وتمتمات.. ثم أجاب أحدهم:

- لقد طلبت أن تأتي معنا ورحّبنا بالفكرة لأنّك ابن معين بيك.. أفندينا المحترم..وأنت من ملّتنا.. ولكنّك تتصدّى لنا وتقف مع فتاة مارونية إقطاعية ابنة إقطاعي ماروني من أكبر العائلات استبداداً وظلماً؟...

ردّ بصوت حازم آمر:

- الفتاة بريئة لا ذنب لها في نزاعكم وإراقة الدماء للمظلومين لن تجدي نفعاً لأحد.. دعوها بسلام.. حسابكم مع الرجال وليس مع النساء.. وحربكم مع الإقطاعيين وليس مع الديانات.. لقد جئنا في مسيرة منظمّة بهدف التفاوض مع الفلاحين الموارنة من أجل ثورة حقيقية على جميع الإقطاعيين لكنّكم غدرتم بي وحملتم السلاح واخترقتم متاريس "الزحالنة" بالخداع..

إذن لقد أفسح لهم الفلاحون المسيحيون الطريق وفضّوا من أمامهم المتاريس لثقتهم بهم بعد أن تنكّروا بأنّهم تحت راية الزعيم يوسف بك كرم وقد أشيع يومها بأنّه في طريقه إلى زحلة.. فنكثوا عهدهم وخلعوا أقنعتهم وشهروا سلاحهم بوجه الفلاحين والإقطاعيين على حدّ سواء.. وبيّتوا نية حالكة السواد أظهروها فور دخولهم المدينة..فكانت مذبحة سيدوّنها التاريخ بكلّ تفاصيلها.

ها هم يتهامسون.. الغضب يتصبّب من حواجبهم الكثيفة ويسيل كالسمِّ الزاعفِ فوق خدودهم وعند ذقونهم.. هناك غضبٌ كبير عارم هائل تستطيع أن تشمّ رائحته وتدرك خطورته.. هذا الغضب لو تحوّل إلى دماء لفنيت مدينتها وقُضي على أهلها...دقّ قلبها وهي تتذكّر بقلق أمها وأباها...

بدا لها فجأة وبعد نقاش حاد بينهم وبين عابد بأنّهم هزموا واقتنعوا على مضض بكلامه.. أو ربّما أُجبروا على هذا حتى لا يغضب منهم والده معين بيك..وبدؤوا بالتراجع.. ولكنّ أحدهم ظلّ متربّصاً وراء شجرة السرو الضخمة التي تنتصب

على الجهة اليمنى من المكان الذي وقفا فيه دون أن يراه أحد متشبّثاً ببندقيته بإصرار وحقد عجيبين وبسمة خبيثة تلوح على وجهه وتنفذ من قسمات وجهه.

تنهّد عابد بارتياح وضمّها إليه بقوّة.. فبدأت تشهق باكية.. تشبّثت به كالغريق الذي ينشب أظافره في عنق خشبة تطفو على الماء..هوذا عابد بشحمه ودمه يأتيها بعد شهور من القطيعة والبعد لحظة الموت...

فجأة، تحرّك الرجل المتواري وراء الشجرة بعد أن تأكّد من خلوّ المكان واقترب ببندقيته منهما..لمحته فشهقت وارتعد جسدها النحيل واهتزّ من الخوف فجفل عابد ونظر إلى حيث تنظر في غير تصديق.. كان هذا الرجل قد عقد النية على قتلها وانتظر الفرصة حتى ينفّذ مهمّته..لقد كانت هدفاً لإظهار بطولته بينه وبين نفسه وكأنّه يفجّر حقده وغلّه فيها وحدها..في اللحظة التي كان الرجال يغادرون كان يتشبّث أكثر في موقعه وراء جذع الشجرة العريض حتّى يخفيه كليّاً عن العيون..لقد كان يحملُ أكثر من ثأر في قلبه وأعمق من حقد وأسوأ من انتقام..

لم يأبه لصراخ عابد فيه ولا لتهديده ووعيده ولا حتّى لرجائه..تأهّب وضغط على الزناد وأغمضت هي عيناها بكلّ ما امتلكت من قوّة وهي تسمع صياح عابد ونادت:" يا مسيح باسم الصليب..خذني بلا ألم".. ثمّ....اعتقدت بأنّ قوّةً هائلة سحقتها وطحنتها..فقد سقطت على الأرض وسمعت أزيز الرصاصة تنطلق ولكنها لم تستقر في جسدها...لأنّ هناك جسماً ثقيلاً قد ارتمى على صدرها ليتلقّف الرصاصة عنها..لا بدّ أنه عابد خفق قلبها مرتعداً باكياً حبيبها ولكنّ صوته يأتيها منقضّاً على الرجل خاطفاً منه البندقية وهو يشتمه ويركله ويصرخ فيه..من الذي يخنق أنفاسها بجسده الثقيل المسجى فوقها؟...إنّ فيه أنفاساً تتردّد..

إنّه حي.. تكاد تسمع زفراته وهي تتجمّع في لعابه الذي يسيل فوق خدّه بعد أن فتح فاه من الألم..نعم إنّها تسمع أنفاسه بوضوح وترصد تحرّكاتها.

مدّت يدها لتمسح على شعره من غير وعي..تمنّت لو تستطيع أن تكلّمه ولكنّ الكلمات تجمّدت في حلقها وحشرجة الحروف لا تسع حنجرتها التي تطبق عليها.. ها هو عابد يعود إليها مسرعاً بعد أن هرب الرجل المسلّح.. تسمع صوت خطواته التي تعرفها جيّداً... الجسد يتقهقر عن جسدها بعد أن أزاحه بكلتا يديه عنها.. تلتفت بسرعة ووجل فتعثر عيناها على متّى ملقى والدم يسيل منه بغزارة.. إنّ ظهره ينزف.. لقد أصابوه من الخلف..أو لعلّه كتفه هو الذي ينزف.. لم تستطع أن تحّدد..هي فقط تشمّ رائحة الدم ينفذ إلى أعماقها..

هل هي حيّة أم ميتة الآن؟...إنها تتحرّك وتتنفس وترى.. ولكنّها صمّاء.. لا تسمع شيئاً الآن إلا صوت خفقات قلبها تهرول في رعب مؤلم.. وضجيج مؤلم يأتي من بعيد ينبئ عن مجزرة حقيقية تحدث من حولهم..

أين والدها وأمها وجدّتها؟...هي وحيدة مع جسد متّى الممدّد إلى جانبها وقرب عابد الذي يتحرّك كالنّحلة حولها قلقاً واجماً..

الدماء القانية ورائحتها النافذة.. الأسلحة.. الرجال القساة مع أحصنتهم الشرسة.. الوجوه الكالحة.. الغبار الكثيف...بطرس وأمّها..عابد ومتّى..الخطر..الخطر يحومُ ويزأر كالأسد القاتل..هي في غابة من الثعالب..احتشدت الصور في عينيها فشعرت بدوار عنيف وما لبثت أن أغمضت عينيها وغابت عن الوجود..

الفصل الخامس

غرقت في لجج أحلامها فرأت نفسها تمشي على بساط وردي منمّق بالزهور يتضوع منه العطر البنفسجي.. وإذ به يحلّق بها ويطير بعيداً حتى تكاد تبلغ السماء.. وتلتفت فترى عابد بغتة يبتسم لها من خلال السحاب الأبيض.. وجهه نقيٌّ وعيناه ناعستان.. تمدّ له ذراعيها كي يتلّقفها ويغيب بها في المدى ولكنّه يشيح بوجهه عنها بملل.. ثمّ ينشقّ وجه السحاب المكفهر فيطالعها وجه متّى بين ثناياه مبتسماً بحب.. تنشج بالبكاء.. تريد أن تتيقّن بأنّه لم يمت.. إنه بخير.. الطيف يتلاشى ببطء..تستيقظ وهي تصرخ وتصرخ..

ترى في ما يشبه اليقظة نساء موشحّات بالسواد.. الأسود يلف المكان والظلال الداكنة تملأ الجوّ.. يطالعها تمثال السيدة العذراء ينتصب حارّاً كقبلة صوفية صافية السريرة.. تناديها لحضنها فتهرع إليها ضاحكة باسمة.. ثم تغرق في نوم متقطَع.. وتحلم بأنّ الحمى تصيبها وأنّ العلاج متعذّر وأنّها تموت.. ثمّ ترى بأنّها تغرق في نهر البردوني والمطر ينهمر بعنف فتتجمّد أوصالها من البرد وتحتكم لله علّه ينتشلها من هذا الغرق...ويستجيب الله لدعائها فتنتفض على موجات دافئة تبثّها الشمس في جسدها فيعتمره الدفء الربيعيّ الساحر.. ولكنّ جسدها ملطّخ بالدماء.. دماء صاخبة قانية..تنظر فوقها فترى متّى مصاباً ينزف والموت يصطاده بمخالبه المشعّثة.. والحياة تنسلّ منه شيئاً فشيئاً..فتحدب عليه وتحرّكه وهي تصرخ...وتبتهل للرب بأن يعيده للحياة..

ومن بعيد يلوح بطرس كرجل فارس ينادي بالعدل والحرية فتركض صوبه وتهزّه لتسأله عن معنى الذي سمعته منه ومن أمّها فيبتسم لها ابتسامته الحانية ويصمت..فتشعر بأنها محتاجة لأن تشهق بالبكاء على صدره..

ثمّ تبصر عابداً وقد وقف مشبوك الذراعين يحيقها بنظرة جنونيّة نهمة.. كتلك النظرة التي تُعقد في عزّ التماس الشهوة وفي عمق التخبّط الصاخب بها.. ويقربها ويحدث ما يحدث دائماً بينهما.. ولكنّ وجه أبيها يطلّ من فوقهما والغضب يتلاطم في وجهه عنيفاً كالموج الصاخب ويشهر في وجههما خنجره المسنون ويطعن عابد ثم يهمّ بطعنها فتصرخ..

"ميرا...انهضي يا حبيبتي"...بدأت عيناها تستجيبان للنداء الذي يأتيها من أعماق مكان ما.. إنّه صوت تعرفه جيّداً.. فتحت عينيها ببطء وهي تنفض عنهما الغشاوة بدمعٍ يبرق ويسترق النظر.. وكأنّه يعيدها إلى الحياة...

ها هو وجه أمّها وصوتها الحبيب الذي لطالما هدهد إحساسها وأسكن روعها.. تتمتم كأنّها تهذي:

- أمّي.. أنتِ بخير؟.. أنت حيّة؟..أنا حيّة؟...أين أنا؟

ترى ابتسامة أمّها تتّضح رويداً رويداً... وشعرها الأسود الغزير الذي يتصبّب فوق رأسها كالمطر المغرورق بالليل..

تتلفّت برأسها ببطء شديد.. كمن يزحف تحت كمين الخطر.. معالم المكان غريبة عليها... إنّه ليس القصر...تراها نسيت؟ ولكنّها لم تفقد الذاكرة لدرجة أن لا تميّز القصر الذي نشأت فيه.. أين هي... ما الذي أتى بها هي وأمّها إلى هذا المكان؟... يجب أن تحاول أن تتذكّر.. هناك سحب داكنة تقبع مقرفصة على ذاكرتها تسدّ

عنها سيل الذكريات..ماذا حدث؟...ها هو وجه جدّتها يتجلّى لها إلى جانب أمّها ينقبض بألم وهي تحدّق فيها كأنها لا تصدّق بأن حفيدتها قد عادت إلى الحياة..فتبتسم رغم حزنها المرير.. ولكن مهلاً لماذا ترتدي ثوب الحداد؟..

مرّ في خاطرها المشهد الأخير... متّى .. والدماء....كأن الزمان قد أعاد عليها سمفونية عيّه وغيّه من جديد.. انتفضت ورفعت رأسها رغم عيائها بقوّة وسألت أمّها بلهفة:

- أمّي.. مات متّى.. مات... صحيح؟.....

حرّكت أمّها رأسها ببطء وهي تضغط على كتفيها لتمنعها من بذل أي جهد وأجابت بابتسامة مطمئنة:

- اطمئني يا ميرا.. لقد أصيب فقط.. إنّه حيّ يرزق..

هتفت من أعماقها وقد حلّ الفرح في قلبها رغم الإعياء: "الشكر لك يا يسوع المسيح.. الشكر لك"...

تردّد صوت جدّتها يرنّ في شحوب الموقف ممتعضاً جافّاً كعادته:

- لا ينقصنا إلا متّى الفلّاح حتى نحمل همّه.. يكفينا ما حلّ بنا.. تشرّدنا وذُبحنا من أجل بطرس وحاشيته من الفلّاحين..صحيح لكلّ زمانٍ لُبْسة.. ولكلّ حيّ أوان..فكري في همّك وفقط.. دُمّرت زحلة يا حفيدتي عن بكرة أبيها..والرهبان شُرّدوا من الكنيسة وذُبح من رجالنا أشدّهم عضداً وأقواهم ساعداً..ولعلمك فهو لم يفعل إلّا واجبه اتجاهك..نحن لا نُطعم الفلّاحين ونسقيهم ونأويهم إلّا من أجل حمايتنا ورعايتنا..واليوم يريدون ثورة

شاملة..ثورة على من؟ الأوغاد المجرمون لقد شرّدونا من ديارنا وأهالوا علينا الحجارة والدماء من كلّ صوب...لقد...

قاطعتها أمّها تقول بحزم:

- كفى يا أمّي...ارحمي حفيدتك..إنّها مريضة مرهقة..أنتِ تنكئينَ جراحها الآن..دعيها ترتاح قليلاً أرجوكِ..

صمتت جدّتها على مضض أمّا هي فحدجتها بنظرة لاذعة وهمّت بأن تردّ عليها وتصرخ في وجهها بأنّ الفلاح الذي تستصغر من شأنه قد أنقذ حياتها التي كادت تهرق على يد رجل حاقد..وأنّ جبروتها وجبروت مثيلاتها هو المسبّب الرئيسيّ للثورة الشعبية وليس بطرس..إنّ ما تحسه جدّتها هو الحقد الذي يغلي في شرايين الأغنياء اتجاه من استعبدوهم وأذلّوهم من الفقراء الضعفاء..ولكنّ جسدها ضعيف ولا يقوى على الكلام..

كيف تستغرب من جدّتها هذا الكلام وهي أوّل من فرّق بين أمّها وبطرس ودفعتها للزواج من قريبها حتّى تتخلّص من ذكراه ولكنّها لم تدرِ بأنّها حفرت بيديها ذكرى حبّهما على صخرة الأزل فتناقلتها الألسنة وضجّت بها القرى المجاورة..وبلغت الإشاعة حدّ اتهام أمّها بأنّها باقية على حبّه إلى الأبد..لكن هل هذا ممكن؟....لا لا ...ستنفض هذه الأفكار إنّ أمّها متعلّقة بأبيها إلى حدٍّ كبير ومستعدّةٌ للموتِ من أجله..وهل تنسى عندما همّ ثعبان صغير بأن ينقضّ على قدم أبيها كيف وثبت أمّها عليه وداست عليه بقدمها مراراً وتكراراً حتّى لفظ النفس الأخير؟ كانت صغيرة عندما رأت هذا المشهد ولكنّه طُبع في ذاكرتها وشماً.

أعادت التحديق بأمّها بحنق وغيظ..ليتها تستطيع إجابتها عن أسئلتها الكثيرة تلك..ولكنّها لا تقدر على مواجهتها وربّما على استيعاب الحقيقة.

آه مهلاً..لماذا ترتدي أمّها ثوباً أسودَ مثل جدّتها ..و.. هذا المكان الغريب؟...لقد انثالت عليها تساؤلاتها فزادتها وهناً.. نظرت إليها وقد لاح الحزن العميق متجليّاً في وجهها.. وبعد أن أفلحت في تجميع بعض الكلمات همست بصوت بالغ الضعف:

- أمّي.. أين نحن..ماذا حلّ بنا.. وأين أبي؟.. هل أنا أحلم؟ هل ما حدث لي محض حلم؟ أجيبي يا أمي.. أنا لست بخير..لا أشعر بأنّي بخير..

تنحنحت جدّتها في جلستها متمتمة بكلمات غير مفهومة ونفرت من عين أمها دمعة جرّبت أن تكبتها بسرعة فائقة ولكنها لم تفلح فقد لحظتها من فورها..سألتها بإشارة من يدها عن سبب بكائها وألحّت في السؤال.. أعادتها أمها برفق إلى النوم.. حاولت مقاومتها ولكنّ السقوط في شرك اللاوعي أصبح ملاذاً لها من كلّ الهموم.. الضعف في الجسد هو ملجأ للمرء عندما تهن ذاكرته وتهون كرامته وتتبدّد آماله..جدّتها ترمقها بتجهُّمٍ وهي تجلس بوجه محتقن من الألم والقلق إذن فإنَّ النوائب قد حلّت بلا شك.. كيف تستطيع أن تسألهما عن عابد من دون أن تثير الشك في داخلهما؟ ترى ماذا حلّ به؟...وبطرس.. هل أصيب في المعركة أم قتل؟ وأين الباقون؟ إنّ أعمامها وأباها لا يأتون لزيارتها وهي عليلة فهل من خطبٍ ما؟ هل احتُجزوا في مكانٍ آخر؟

إنّ أمها لا تعلم بأنها اطلعت على سرّها وأنها سمعت كلّ ما دار بينها وبين بطرس من الكلام.. لهذا لا تقدر أن تستفسر عن مصيره من دون أن تحرجها لهذا آثرت الصمت المؤقت..لقد شعرت بأنّ الرصاصة التي استقرّت في جسد متّى أصابت قلبها مباشرة.. وشعرت بأنّ رأسها قد بدأ يدور ويتفاقم فيه الإعياء

وتتراكم فيه الصور..حاولت أن تبقي عينيها مفتوحتين من دون جدوى ففقدت وعيها من جديد وأغمضت عينيها وهي مطمئنة بأنّ متّى ما يزال حيّاً..

- ميرا..ميرا.. كيف تشعرين اليوم؟..

هذا صوت عابد يأتيها في اليقظة وليس في المنام.. تفتح عينيها ويهلّ وجهه كالضياء يُلقى في جنبات روحها المظلمة بالأحزان فيشملها بالطمأنينة.. لكن..... مهلاً.. ما الذي أتى بعابد إلى هنا.. إلى هذا المكان الغريب أيضاً؟... وكيف يكلّمها وأمها تجلس على مقربة منها تنصت إليه باستسلام ودعة..غمغمت لنفسها بدهشة كبيرة..ترى هل تعرفه أمّها؟ هل هي تحلم..أغلقت عينيها وفتحتهما أكثر من مرّة..وما زال منتصباً أمامها كالشّمس في وضح النهار.

لم يجبها أحدٌ من قبل على هذيان أسئلتها الكثيرة التي كانت تطرحها بلسان محموم وجسد هزيل شاحب.. فلا جدوى إذن من إلحاح أسئلتها لأنّها لن تحصل على أيّ جواب ..ستسألُ عندما تتماثل للشفاء.. فتركت نفسها للنوم والصحو معاً..وللأحلام التي لا معنى لها في كثير من الأحيان.

وتوالت الأيام...بين يقظة وكابوس.. ووجوه تحتشد وتحتدم وتتفرّق وتتعدّد.. واللون الأسود لا يبارح مخيّلتها وهي راقدة..وحتّى في يقظتها تراه في الوجوه التي أتت زائرة وهي بالكاد تصحو لتنام من جديد..

وأصاخت السمع ذات يوم إلى النساء من حولها يتكلّمن وقد ظنّ بأنها تستغرق في نوم عميق.. تمتمت إحداهنَّ بحزن:

- الحمدلله أنها لم تعرف بعد برحيل والدها...وإلّا لكانت ساءت حالتها وتكدّر مزاجها..مسكينة تلك الفتاة لقد تعرّضت للموت لولا إرادة الربّ الذي أنقذها..لقد ذبحوا والدها بعد أن أُغمي عليها..ونكّلوا بجثّته..

ردّت أخرى:

- مسكينٌ البيك.. قتله الأوغاد السفلة..لكنّ رجالنا عائدون إليهم ليسترجعوا زحلة بعد أن شرّدونا من ديارنا ودمّروا بيوتنا وحرقوا مدينتنا.. ودم أبي ميرا لن يذهب هدراً...

قاطعت أمّها كلامهما بلهجة حانقة:

- توقّفا... قد تصحو ابنتي وتعرف ما نحاول جاهدين إخفاءه عنها... لن تحتمل صدمة أخرى.....

جاءهما صوتها كالصاعقة الواقعة وهي تصرخ مولولة:

- لا بأس يا أمي.. لقد عرفت.. قُتل أبي وأصبحت يتيمة...

شهقت النسوة جميعاً بالبكاء وضمّتها أمّها إلى صدرها وهي تئنّ أنيناً موجعاً..وتمسح دموعها بقبلاتها..

حدث كل شيء وهي غير مدركة ما يدور حولها.. فقد شملها اللاوعي وصحبها في رحلة بعيدة حتى لا تشهد تلك الأحداث الموجعة وترى بأمّ عينيها أبشع مذبحة في تاريخ لبنان...تحلّ في زحلة المعلّقة على سفح العنفوان..

بدأ الأمر عندما اجتاحت جموع من الدروز الفلاحين الغاضبة مدينتها بعد خديعة قاموا بها بأن أوهموا الفلاحين هناك بأنهم آتون للتفاوض والتعاون..فأضرموا

فيها النيران ولم يُعط أحدٌ الفرصة للدفاع عن نفسه.. فقتل الكثيرون.. بل حدثت مذبحة حقيقية.. حتّى القدّيسون الذين لاذوا ببيت الله قتل منهم الكثيرون.. لم ينجح بطرس بتحذيرهم قبل وقوع الخطر.. كان الأوان قد فات.. تطايرت الرؤوس وأُهرقت الدماء واحتدَمَت السماءُ بالأرض في معركةٍ دموية لا تنتمي للإنسانية بصلة.. هي مذبحة من مذابح عام 1860 م.. مذبحةٌ تضاف إلى عار الإنسانية المنتهكة التي تُرتكب باسم الحرّيّة... أي حرّيّة تلك التي يُحمل رأسها على طرف حربةٍ نافرة مسنونة ليُقتل على يدها الإنسان؟.. لم تقرّ الأديان بهذا ولم تعط الحقّ للإنسان بقتل أخيه الإنسان..الحرية تصبح أشرّ أنواع الهوان والهوان مذلّة والمذلّة سقوط والسقوط انتحار..

صلبوا أحد الرهبان على طريقة صلب المسيح ومثّلوا بجثته.. أهكذا يجهزون على نظام الإقطاعيين؟ بأن يبرموا أحكام الإعدام والخراب بلا واعز ولا ضمير؟...ما ذنب هذا الراهب المسكين سوى أنه أراد العيش بكرامة على مذبح الرب وسخّر العمر لخدمته؟...

كيف قُتل أبوها؟.. لا أحد أجابها ولكنها عرفت.. لا بدّ أنه سُحل قبل أن يقتل لأنّ الصمت الشامل دلالة على مدى العذاب المهين الذي أذاقوه إيّاه قبل رحيله.. وقد أسرّت إليها إحدى قريباتها بعد إلحاحها بأنّه هرع إلى القصر كي يسأل عنها وعن أمّها فوجدها تنتحب وأخبرته بأنّها أرسلت متّى في أثرها بعد أن شاهدتها تركض في الحقل فثار وهرول في الاتّجاه الذي ذهبت منه.. وتلقّفه هناك جماعة من الدروز حاول مقاومتهم ولكنّ نيران أسلحتهم كانت أسبق إليه وقضى وهو ينادي اسمها.. اسم ميرا ابنته الوحيدة الغالية..

قفزت من السرير وانتحبت.. ضربت رأسها بالحائط حتَى انفجرت منه الدماء...فهرول الجميع إليها وأعادوها إلى السرير وشرعوا في تهدئتها..

مضت عليها أيام طويلة وهي تترنّح ثكلى من الألم.. ثم عاودها الحقد الأعمى المجنون.. الحقد على كلّ رجل تورّط في دم أبيها..إنّ دمها يغلي.. إنها تريد أن تنتقم..لكن تنتقم من من؟ وكيف؟

هي الآن موجودة في قرية من قراهم هم وبين بيوتهم.. فقد أخبرتها أمها بأنّ عابداً قد نقلهما مع بعض أقربائهم من آل شاور إلى قريته أثناء المذبحة، فأقاموا في دارواسعة كبيرة، منحهم إيّاهت والده، قريبة من قصره، بعد أن أشار عليه عابد بهذا ورحّب بهم وأكرمهم لأنّهم ينتمون إلى طبقته..الطبقة الإقطاعية الحاكمة..

إنّ النيّةَ السوداء التي بيّتوها قبل حرقهم لمدينتها وقتلهم لأبيها كان لعابد علماً بها.. ربّما لم يعرف بأنّ الأمور ستنحدر إلى هذا المجرى الدنيء ولكنه توجّس شرّاً فطلب منهم أن يرافقهم وكان محبوباً لقربه من الفلّاحين ومعاملته الحسنة معهم فرحّبوا به..

ولعلّه شعر بأنّ الخطر يحيق بها لأنها تنتمي لأهم عائلات مدينة زحلة.. فتصدّى لهم عندما حاولوا قتلها..

وقد أخبرتها أمها فيما بعد بأنّها رأتها وهي تعدو بعيداً عندما كانت تقف إلى جانب بطرس قرب جدار السور فصرخت بمتّى داعية إيّاه أن يلحق بها فاستجاب سريعاً.. وحدث ما حدث...

"ولكن.. أين متّى الآن؟".. سألت بصوت واجف حائر.. فران الصمت العميق.. لا أحد يدري ما حلّ به.. لقد طمأنهم عابد بأنّه ما زال حيّاً وعهد به لبطرس وجماعته وغادره حيّاً..

الفوضى تعمّ بها..رحل أبوها.. ومتّى مفقود.. وعابد موجود.. ولكنّه كالمفقود أيضاً في عينيها... لقد فُقد عابد لحظة غاب عنها في الشهور التي مضت.. وعبث بأفكارها التي هامت تبحث عنه.. واعتكف على نفسه فلم تعد توجد في مساحة دنياه.. ولم يفلح في الدفاع عنها وكادت تموت لو لم يتدخّل متّى ويرمي بجسده فوقها دفاعاً عنها...

لو كان أبوها حيّاً لاغتبط لما فعله متّى أشدّ الاغتباط.. ولندم أشدّ الندم على تشنيعه إيّاه أمام الفلاحين الآخرين في القرية ..

"انظر يا أبي ماذا فعل الفلاح الذي كنت تحتقره"... هتفت في سريرتها وهي تخاطب أباها بإحساس الشوق واللوم..

حتى عابد الذي عشقته لم يستطع أن يحميها بكلامه فحماها متّى بجسده.. قدّم حياته عربوناً لوفائه وحبه لها..

لم تكن حياتها رهينة الصدف في يوم من الأيام.. كانت تسير على نظام ثابت لا يتزحزح كشروق الشمس من بين كسرات السهاد في عيون الليل.. وتلويح الليل بخطاه بعد ذبول الشمس من نترة المغيب النافذة.. ولكنّها اليوم تتوكأ على الصدف.. أو لم يكن لقاؤها بعابد محض صدفة أتبعها عشق فزلّة فندم فانكسار فموت ثم حياة؟

وراعها أن تأتي فتيات من عائلة عابد ليعدنها في مرضها وأن تقدّم إحداهنّ نفسها إليها على أنها شهب ابنة عم عابد وخطيبته!... يا لقهقهة القدر على خيبتها وعليها هي التي أعطت بسخاء مؤرق وحصدت جفاء مفرطاً.. إذن لقد تمّت الخطبة وانتهى الأمر وهذا هو سرّ ابتعاد عابد عنها.. لقد غرف من رحيقها وهجرها ليحطّ رحاله عند وردة أخرى راقت في عينيه.. كظمت غيظها ولم تقابل نظرات الفتاة اللاذعة بمثلها...لا بدّ أنها شكّت بسبب إفراط عابد في الاهتمام بها ولا بدّ أنّها تطرح عليه مئة سؤال وسؤال... "يا يسوع المسيح.. أخرجني من هنا"....

هي نكسة حقيقية لا تناهضها أعلى قمم الجبال بشموخها وصلابتها فكيف لها أن تقاومها وتجابه مآسيها؟...

أصبحت يتيمة الأب وفقدت صديقها وخسرت حبيبها وتشرّدت عن مدينتها التي دمّرت وكهفها الذي اغتصب وهُدر شرفها بمحض إرادتها ففقدت عذريتها..وفوق هذا كلّه تعيش في بيئة عابد وبين عائلته وخطيبته وهي غائمة الحواس غائبة القلب شاردة الفكر..

وبرزت صورة بطرس أمامها فانتفضت وألحّت عليها الذكرى.. وهو منتصب القامة يرنو لأمها بعينين لا زال للحب أثرٌ فيهما...ماذا حدث معه؟ وكيف قابل كلّ هذا الانكسار للثورة وتحوير مفهومها الحقيقي الذي سعى من أجله؟..

رغم كل ما جرى لها هي لم تكرهه بل تجلّه وتحبّه.. وزاد من حبها له عندما رأته شامخاً لا ينكسر أمام أمها التي أحبها فجفت له..

لقد حوّروا مفهوم ثورته وانتفاضته وأحالوها إلى منازعة طائفية دينية تُراق لها دماء وتُهدر أرواح..

كانت تتمنّى أن تقع عيناه عليها.. لقد أخبروها بأنه في ذاك اليوم "يوم المذبحة" استبسل في الدفاع عن أهل زحلة.. كان يقاوم ويحاول تهدئة الخواطر مرة ومرة يلجأ للعنف والشدة..ولكنه لم يستطع أن يمنع تدفق الدماء وتراجع عن رغمه...

بطرس هو الحقيقة الوحيدة التي تبرز لخاطرها جليّة تنفض عنها سكرات الموت لتستجلب نور الحياة من رحم الحرية...

إن حلمه لم يمت وقد يدكّ روح الإقطاعية ويرسم خطى المظلومين والبؤساء على درب من نور.. رغم كل ما حدث ما زال يقاوم كما أخبروها وما زال يسعى في انتفاضته..

لم تبال بأن كلّ من حولها يلقي اللوم عليه فيما حدث.. حتى أمها.. إنّ سيل الاتهامات تحيقه وترميه بأقذع التهم.. ولو اطلعوا على ما تكنّه له من تقدير عميق لاتهموها بالخيانة....فهل نسيت أنها تنتمي لهذا الحصن الإقطاعي الذي تحثّ بطرس على هدمه وتفنيده؟...

لا لم تنس.. ولكنّها لم تنس أيضاً بأنّ المسيح لم يميّز بين غني وراعي غنم.. بين حاكم ومحكوم.. ولكنّه ميّز بين ظالم ومظلوم..

وهي لا تنكر بأنها سعيدة لأنها ولدت غنية ولا تتنكّر لهذه النعم.. ولكنها لا تطيق بأن تسحق جماجم الآخرين في سبيل أن يزداد عنقها ارتفاعاً.. من حقّ كلّ إنسان أن يقتني الأراضي ويدّخر الأموال ويسعى للثروة.. الثروة لا تقتصر على طبقة معيّنة بل تشمل الجميع بعين الرحمة في حال سعوا إليها بطرق ذكية سويّة..

والثروة ليست معياراً للفكر والإنسان.. ولا للطائفة والأديان.. لقد صَعَقت الأفكارُ البالية بطرس عندما أحبّ والدتها فحجّمته..وسرقت منها عابد بسبب الدين فأضاعته.. وكان ضحيّتها أيضاً متّى الشاب المسكين الذي افتداها بروحه وكلّ ذنبه أنّه فلّاح أحبّ ابنة الأغنياء..

حُكم عليها أن ترى عابداً وخطيبته كلّ يوم.. هو يأتيها في الصباح وهي تعودها في المساء..وقد تكوّمت شفتاه إلى الأمام في تكشيرة حزينة عندما باركت له خطبته ولم ينبس ببنت شفة..ثمّ حاول أن يبرّر نفسه بعد صمت طويل.. كانت حجّته الدين والأهل والعادات..تقريباً الأسباب نفسها التي تعذَرت بها أمّها عندما أعرضت عن حبّ بطرس..

تراه نسي العهد الذي قطعه على نفسه هناك في الكهف عندما وهبته أغلى ما تملك كل فتاة بأنه لن يتزوّج غيرها حتّى و إن تعذّر بينهما الارتباط؟....

أم إنّه كان يكذب لينهل منها حبّاً عابراً ولحظات متعة يدّخرها في ذكرياته لتؤنسه عندما يخلو لنفسه؟..إنّ شهب فتاة جميلة وتبدو قويّة الإرادة وشاخصة العينين عن ذكاء مبطّن...فهي تدرك بحاسّة الأنثى بأنّ عابداً خطيبها بالاسم فقط ولكنّ قلبه لا يمتّ إليها أبداً ولن يكون لها.. سيهبُها اسمه وجسده ولن يهبَها روحه أبداً.. وهي تقنع منه بهذا فقط لأنّها تحبّه أو ربّما لأنّها أُجبرت أيضاً على الزواج به.

وقد لاحظت بأنّ روح الإقطاع تسري فيها بحدّة فهي تكره بطرس وتمقت الفلّاحين والبؤساء وكأنّهم علّة الحياة .. حتّى فاض بها فقالت لها يوماً:

"شهب إن لم يُخلق هؤلاء المساكين من كان سيزرع لك الحقل ويحرثها ويحصدها ومن كان سيعمل على خدمتك؟"...

ودّت لو قالت لها أيضاً: "إن لم يأتِ بطرس من كان سيقمع حدّة الظلم التي تقع على المساكين"؟ ولكنّها لم تشأ أن تستثير حقدها وتزيدَ من كرهها لها... سترحل من هنا عمّا قريب.. فقد تجمّع أهل زحلة من كلّ القرى التي فرّوا إليها وقرّروا أن يرجع رجالها إليها ليطهّروها من الغزاة الدروز..

لقد تناهى إلى سمعهم بأنّ الدروز على وشك أن يحوّلوا زحلة إلى مدينة درزية ويطمسوا كلّ معالم الدين المسيحي فيها..

ها أصبح أبناء الوطن الواحد غزاة بعضهم على بعض.. والعثمانيون يقهقون عالياً والدول الأجنبية ترصد كلّ هذه المذابح بعين الرضا والاطمئنان..

تكاتف أبناء مدينتها زحلة وشنّوا حرباً ضروساً مع الدروز انتهت بنصرٍ حاسم وباسترجاعهم مدينتهم..

ثمّ بدأ الجميع برحلة العودة..أطلقت جدّتها أوّل زغرودة في حياتها على طريقة الفلّاحات من شدّة فرحها وحزمت أمّها أغراضهم وقد تهلّل وجهها جذلاً واتّفقت مع أقاربهم على العودة فجر اليوم التالي بعد أن شكروا عابداً وأهله على ضيافتهم لهم واحتضانهم إيّاهم في غربتهم عن مدينتهم زحلة.

أغمض الجميع أجفانهم المثقلة بخمر الفرح المرتقب إلا هي... انتظرت خلود الجميع للنوم وكتبت بعض الكلمات فقط على ورقة مبعثرة: "لقد قرّرت أن لا أعود إلى الحياة العادية.. سأصبح راهبة"..وضعت الورقة بين أمتعة أمّها وغادرت.. اندسّت بين حجب الظلام وهي تتستّر بالعتمة وانطلقت رغم الإعياء الخفيف الذي ما زال يرتسم على وجهها في رحلة هروبها نحو الدير..

لقد عقدت العزم ألاّ تعود إلى مدينتها بعد كلّ الذي حدث بدءاً من زلّتها واقترابها من الموت تلاه موقف متّى ومقتل أبيها وهروب عابد منها إلى غيرها..

لا مكان تطمئنّ إليه وترغب فيه الآن أكثر من الدير الذي يذكّرها بكهفها الصغير حيث كانت فيه في حالة نسك وشرود في اللامرئي فأتى عابد ليحيله إغراء ساحقاً من إبليس ويسقط شرفها في لحظة ضعف قارصة.

مشت كثيراً وهي لا تملك إلّا قربة ماء أخذتها من غرفة أمها وبعض النقود التي حصلت عليها من جدّتها بحجّة إرسال إحدى النساء لتشتري لها بعضاً من احتياجاتها من قرية كفرسلوان قبل العودة إلى زحلة.

لقد أخذت قرارها وصمّمت عليه ولن تعود أبداً إلى هذا العالم الصاخب المليء بالشرور والأحقاد، ولن ترضى بالعيش من أجل إنسانٍ جاحد هجرها من أجل تقاليده الخرفة وخوفه من غضب والديه.

تخلّى عنها بلا رحمة ولم يرض أن يحلّ خطبته التي فرضها عليه أبوه من قريبته شهب وأحسّت بأنّه يتشبّث بها لمصالح مشتركة بين أبيه وعمّه، وعرفت بأنّها بنت لنفسها وهماً مثالياً عنه لا يمتّ لحقيقته بصلة.

إنّها راحلة.. وليكن ما يكون.. فليتزوّج عابد من شهب ولتصرخ أمّها وتولول صباحاً بعد أن تكتشف رحيلها وليذهب غضب جدّتها إلى الجحيم وليفعل الآخرون ما يشاؤون وستفعل هي ما تريده وما تحبّه..

لن يملي عليها أحدٌ أيَّ قرار ولن تنصتَ إلّا لصوت الله.. والله يدعوها إليه.. سيغفر لها خطيئتها ويسبغ عليها من رحمته حتّى تنسى..

وقد عرفت وجهتها.. فهي تذكر بأن أباها أخبرها يوماً بأنّه زار قرية نائية جميلة في قضاء عاليه وتغمرها بساتينٌ غنّاء وتتوفّر فيها المياه العذبة من كلِّ حدبٍ اسمها رشميّا تطلّ على جبل الباروك..

بدأ الفجر يرفّ بأجفانه فوق حدقتي السماء ليمهّد لتثاؤب الشمس في الأفق.. فحثّت خطاها وقلبها يكاد يتوقّف خوفاً وهي تعبر القرى مشياً على قدميها.. وعندما يلوح لها جنودٌ عثمانيّون يحرسون مكاناً معيّناً كانت تتوارى عنهم وراء الشجر الكثيف الذي يغمر الحقول.. لم يكن في القرى التي تعبرها كهوفٌ خلّابة ككهفها هي.. هذا الكهف الذي عشقته وعشقه معها عابد لفترة ما قبل أن يسقط في شرك الغدر ويُصاب بعدواه..

لمحت من بعيد عندما وصلت إلى قرية قرنايل وكان الصباح قد بدأ ينهمر كالرذاذ بعد قيظ طويل حصاناً تجرّه عربة ويقودها رجل مسنٌّ يبدو من منظره بأنّه من أنحاء القرية.. استوقفته وسألته أن يقلّها إلى عاليه.. صفر الرجل بفمه مستنكراً.. فالمسافة طويلة بالنسبة لحصانه الهزيل الّذي قد يصيبه الإرهاق والتعب.. فنقدته ما جعله يرضخ في النهاية..

ها هي تجوب السهول على متن حصان تتمنّى لو يصبح حصاناً طائراً فيحلّق فيها بعيداً في عالم آخر لا يعرفها فيه أحد..

تراءى لها عابد فقطبت في خيبة سرمدية ثم تفكّرت في أمر متّى فاغرورقت عيناها بالدمع وخالت نفسها تخاطبه قائلة له: "كنت أعتقد يا صديقي أن الحبّ أهم من الحياة وأنّه يغرِفُ من زاد عشاقها ويرسم دوائر الحنان في مهبِّ العاصفة. ولكنَّ الخيبة كانت هناك تنتظرني بعمر آفل لم يعد يعي لململة أشلائي المتبقِّية في مدار السنين. كان معي ورحل عني كما يهرق الطير ندى الصباح ثم يهاجر في

سرب اللاعودة في صباح مبكر من صباحات أيلول. ألملم سنيني وخيبتي وأرحل قبل أن أتمرّغ في غبار الوحل الذي يخلّفه مطر الخريف الآتي عمّا قريب.. وما من أملٍ يتجلّى إلا في طريقٍ بعيدٍ ينأى به القلب عن أسفار البشر ويركن للمطر يرشُّ ما تبقّى من الدمع في أعماق القلوب الصامتة. .في السماء نداءٌ خفي يعِثُ الشوق بتراتيل منمّقة بزهد السكينة... فأندسّ في كمّ الألم أئنُّ ندماً.... هل أندم على الحبّ أم العبث الملح أو منعطف اللقاء؟ عجيبٌ أمري غريبٌ حرفي...لم أعد أعرف نفسي...لا نظيرَ للمطر ساعة الهطول...هو يحيي ويميت فينا أحلاماً ولّت وأصداءً غربت وأقلاماً ذابت من الدمع..هو ملجئي الذي لم يستطع الحب أن يمنحني إيّاه وصديقي الذي لم يحفل حبيبي بأن يهبني حماه.... أودّع نفسي قبل أن أودّعه... فقد كان نفسي.. وأبحث عن روح أخرى في روح المطر...هيهات أن تمحو السنون خيبتنا وأن تغفر وجعنا...أفل الصبح وأشرق الليل.. كلّ الموجودات تتحرك عكس واقعها عندما يصبّ الوجع حيرته الأزلية.. لا معادلة في العشق إلّا مع الموت ولا اكتمال له إلا في الحياة الأخرى....للحبّ فصول القرى الشمالية الحارقة المتجمّدة..ففي عمره عمر وفي سرّه سرٌّ وفي همسه وشوشةُ الحكايا..فلندع الحيرة يا صديقي وأروي لك بسمةً تدهشك حتّى لا تنغمسَ في صريرِ قلقي وتحتدمَ في نواقيس عشقي الغابر..فهيّا حدّثني عن ربيعٍ لم تبصره عيناي حتى أزيّنَ لكَ باقات الورد في دوحِ الحلم.. لو ترى يا صديقي بعيني أنا...كنتَ استرقتَ من دمِ اللّحظة نقطاً لا نهاية لها.. وأدرتَ دفّتها لوثبات الروح الثكلى بروافدها...ذنبي انّني كنت أكثرَ من طيّبةِ الرّوح وأحلى من أميرة الأرجوان..سرقوا عالمي الصغير وأخمدوا لهفة قلبي للحب..وأحرقوا آخر ما تبّقى من أحلامي...مذنبة أنا لأنّي أحببت...ومذنبة أكثر لأنّني لم أحقد يوماً...فمن

يبصر أكثر يا صديقي...أنا أم أنت؟ أم عساها الحياة تبصر أكثر منّا...فتدعنا نرتطم بصخب الموج ونتفتّت أحزاناً".....

ليت متّى يحدّثها عن ذاك الحلم البعيد الذي سُرق منها.. لقد أدركت بأنه هو من فهمها كلّ تلك السنين من دون حاجة لأن تتكلم..

لقد عذَبته وأرهقته ووشت عنه وسخرت به سخرية مبطّنة تماماً كما فعلت أمّها ببطرس فقد أخذت عنها قسوتها ولكنّها لم تعده بالحب كما فعلت هي..

عندما ذهب إلى قرية عابد ليستقصي لها عن أخباره تعمّد أن يكتم عنها خبر خطبته حتى لا تحزن وكان يبكي عوضاً عنها.. فعندما سأل عنه كان أوّل وجه طالعه من أقاربه هو وجه خطيبته شهب ولكنّه أبى أن يتحفها بمثل هذا الخبر المؤلم المخزي لعاشق وعدَ ثم خذلَ..

متّى...كم تحتاج إليه اليوم وكم تتوق لأن تضع وجهها بين كفّيه وتبكي.. حتّى تشعر بأنه ما زال إلى جانبها سارقاً منها ضوضاء نفسها المكربة مودعاً إياها في سكون عجيب وصمتٍ حالم..

مثل تلك الجبال التي تلوح لها يغشاها ضبابٌ رقيق تتلفّع به كما تتدثّر البصيرة بحلمٍ لامرئي تتخضّب هي بأحاسيسها المتلوّنة بين الحب والكره.. بين الشغف والنسيان.. وحده المسيح من تلجأ إليه وتتلمّس منه الغفران..

أين هي الآن...حريٌ بها أن تعيد ترتيب حواسها من البعثرة التعيسة..ها هو جبل الباروك يلوح والدير ينتصب من بعيد في أعلى التلّة المواجهة له كالبلسم الشافي.. ولم تشعر أنّ الوقتَ قد مرّ وبأنّ خطاها تتّسع بعد أن ترجّلت من المركبة وتتقدّم بها بقلبٍ واجف خاشع ..حدّقت وهي تستقبلُ الدّيرَ بعينين غائبتين عن الوجود وفكرٍ حاضرٍ، فطالعتها صخورٌ ناتئة توهمُ النّاظرَ إليها بنعومة جلدها

ولكنّها متينة صلبة تجرح الأنامل إذا ما لامستها.. لقد اعتادت على هذا النوع من الصخور تماماً كما اعتادت غدر البشر وطعنهم للقلوب التي أحبّتهم.."هنا الخلاص وهنا النهاية"...

في الواجهة الشمالية للدير تتراءى قرية رشميّا عبر منحدر عميق ببيوتها ذات القرميد الأحمر وتتلفّع بكسوة جدران حجرية أثرية تزيد للناظر جمالها وفتنتها التي حفرت ملامح وجه القرية...

وفي الواجهة الجنوبية تلوح غابة أشجار السنديان باخضرارها المزهو ورونقها الذي لم تتغضّن تفاصيله رغم تقلّب الطقوس والمواسم..

ويكادُ نهرُ الباروك في انسيابه بين الواجهتين يفلت من عقاله وهو يرتّل عذباً عهوداً من التاريخ وفصولاً من الأعمار التي شهدت وطأة أقدام الإبل والجمال والأحصنة والمشاة والمسافرين الذين ارتاحوا على ضفافه قبل أن يعاودوا المسير أو الرحيل إلى بلاد أخرى...

عرجت إلى السكن أو الدير الصغير كما رأته المخصّص للراهبات قرب الدير وطرقت الباب بمقبض يدها الثابت..

وهي تذكر بأنّ أوّل وجهٍ طالعها هو وجه الأخت زلفا رئيسة الدير..لم تكن مبتسمة ولكنها لم تتّخذ صفة العبوس..بل إنّ ملامحها لم تكن تشي بشيءٍ محدّدٍ فقد غابت عن وجهها كلُّ المشاعر الدنيوية وحلّ مكانها صفاءُ الناسك المتبتل:

- كيف لي أن أساعدك يا ابنتي؟

كانت هذه أول كلمات تنطق بها الأخت زلفا..انسكبت هادئة دافئة...فردت برجاء:

- أنا ضالّة يا أختاه..ضالّة وأنشد التوبة...أتضرّع للمسيح ولك أن تفتحا لي الباب حتى أنصت لصوته العميق في ظلمات نفسي...لقد اخترت حياة الرهبنة وحبّذا لو ترضيها لي..

ران صمتٌ عميق وأطرقت الأخت زلفا تفكّر...رفعت رأسها وسألتها:

- هل لك أهلٌ يا ابنتي؟؟

ردّت بأسى:

- أبي قُتل في مذبحة زحلة ولم يتبقَّ لي سوى أمي...ولكنّ حبي لله أعمق من حبّي لها..لم آتِ إليكم شريدة أو جائعة فأنا من عائلة آل شاور أكبر عائلة إقطاعية في مدينة زحلة..ولكنّي أتيتُ من أجل المسيح ..

هزّت الأخت زلفا برأسها وقالت:

- ليس لي أن أمنع من اختار طريق الربّ من السير فيه..إنّ باب الدير مفتوح دائماً لملائكته...ولكنّي أحب أن تتخذي قراراً لا رجوع عنه في المكوث معنا...حتى تكون توبتك صافية مخلصة وسوف تكونين تحت التجربة لعدة أشهر وسنرى ما قد يريده الربُّ في أمرك...

وهكذا بدأت حياتها في الدير...في الثامنة عشرة من عمرها وحيدة..نادمة خاطئة تكفّر عن ذنب يؤرق عمرها..كان لا بدّ لهم من أن يبحثوا عنها ولم يطل الوقت حتى عثروا عليها..

وجاءتها أمّها ثائرة..حزينة تتعثّر بدمعها..وقد أوجعها فراقها حدّ الضياع..وناشدتها أن تعود معها وتوسّلت إليها..ولكنّها أبت...لن تعود لذكرياتها هناك في مدينة شهدت مقتل أبيها ومقتل عاشقيها...فقد شهدت في الزمن الأول

خيبة بطرس وغدر أمّها له...وفي زمنها قُتلت هي من داء الحب وكاد متّى يُقتل فيها..وضاع حبّ عابد منها...إنّها مدينة يضيع فيها الهوى وكأنّه محرّم ويعصف فيها الحنين وكأنه مشرّع في كل المواسم والفصول.. وقد قتلها الحنين فابتعدت عنه برهبنتها.

سألت عن متّى فقالت لها أمّها بأنّه لم يعد بعد وأنّ أهل زحلة لا يعرفون عنه أيّ شيء باستثناء عمّ والدها الراحل الّذي لمحه في سوق بيروت حيّاً يُرزق ولكنه لم يدركه من الزحام...أفرحها هذا الخبر وأنعش حواسّها فشكرت الله وحمدته..

وعلمت بأنّ أمّها تعيش الآن في قصر جدّتها الكبير الذي لطالما توجّست منه لبرودته القاتلة..وأن جدّتها راضية عن قرارها الذي اتّخذته في الرهبنة بعكس أمّها القلقة المضطربة.. ربما أخفت عنها أمّها بأن جدّتها تمتمت بحزم: "هذا أفضل من أن يتكوّر جسدها ويتدوّر بسرعة عجيبة تدعو للقلق"..

وحدّثتها أمها بما يشاع عن سعي الحكومة العثمانية لإنشاء نظام المتصرفية وبأنّ الاجتماعات بشأنها ستعقد عمّا قريب في بيروت..كان المنكوبون يئنّون من الخدوش التي ألحقتها بهم حرب الفتنة والمذنبون ما زالوا يتبخترون في الهواء الطلق بلا حسيب أو رقيب.. فلاح هذا النظام بمثابة إنقاذ..أو ربما شبه حل..

وفي الحقيقة فإنّ الأخبار دائماً تترامى إلى مسامعها من خلال الراهبات اللواتي يتحدّثن بما يجري في الخارج.. فلم تخبرها أمّها بما هو جديد.. وودّعتها بعد أن صلّت لها ورسمت على كتفيها علامة الصليب.

ومرّ شهر..أو ربّما أقل.. لم تعد تذكر لأنّها كانت غائبة عن الزمان والمكان وكلّ ما يدور في الخارج والداخل على حدّ سواء فقد كان شغفها لصلاتها وحدها حتّى إنّها لم تسع بأن تكتشف قرية رشميا أو تتجوّل في البساتين المجاورة.. وأحسّت

بأن شيئاً يشدّها لخلوتها تلك.. وأنّها في عزفها عن العبِّ من أنس الوجود راحة هانئة لها..وطمأنينة تبعدها عن ضميرها اللاذع..

لكنّ شيئاً غريباً بدأ يدبّ في داخلها.. لم تفقه من أين أتاها هذا الشعور المتلبّد بالنذير المفعم بالتهويل..

لم تنتبه كثيراً بأن العادة الشهرية قد مضى عليها أكثر من ثلاثة أشهر وهي منقطعة عنها.. هي تذكر أن آخر مرة أبصرتها فيها كانت في شهر أيار وهي الآن في أواخر شهر آب.. وتحسّ بانقباض دائم في معدتها وبغثيان مُلحٍّ وفقدان في الشهيّة.. كان لا بدّ لها أن تستشير طبيباً..

ولكنّ التوجس الذي يتخبط في داخلها يستحيل حقيقة تُلمس وتذر عينيها الخائفتين برماد الحرقة وتلذع مرضبها بمرارة الحقيقة الموجعة..

إنها متيقّنة بأن روحاً تتحرّك في أحشائها..كانت قد سمعت عن هذه الإشارات التي تحسّ بها همساً من صديقتها راجحة..وقد آثرت أن تستشير طبيباً من قرية أخرى تبعد عن الدير حتى لا يُفتضح أمرها ذهبت إليه ذات صباح وهي تتوجّسُ خوفاً..يجب عليها أن تتأكّد..وجاء الجواب الحاسم القاتل..

نعم إنّها حامل..الويل والعارُ لها...الزانية التي تُصلبُ بخطاياها في دنياها وتُفضح حتى يجلجل صدى سرّها في أعماق الكون العابث بأنامه..

أين أمّها لتشهد فضيحتها العاتية؟ أين جدّتها التي رمقتها بنظرات الشك القاتل كي تصرخ في وجهها بازدارء "أرأيتِ يا ميرا أنت زانية نكرة"..

أين عابد ليشهد ثمرة حبّهما الآثمة تنضج ببطء في طريقها نحو النور الساطع الذي سيجلو حقيقتها للكون كالشمس اللاذعة الفاضحة التي تكشف بثور العلل وتبثّ معالمها بلا رحمة؟كيف سيبرّر الأمر لأهله وخطيبته شهب؟

لو كان أبوها على قيد الحياة لقتلها لا محالة ومن دون أيّ تردّد..إنّ عمّتها زلفا كانت بريئة ولم يقم ضدّها أي دليل على ما اتهمها به زوجها زوراً ورغم هذا رجموها وهي حّية حتّى قضت نحبها بنفسها.. فماذا عنها؟ هي التي ستعطيهم الدليل القاطع على أنّها محض زانية تستحقّ العدم؟...

"ميرا...ها.. لقد تذكرتِ خطيئتك الكبرى..فلماذا لا تدعين الشرّ يسكنكِ وتقرّين بأنك تنتمين إليه؟"..الصوت يرنّ في أعماقها مقهقهاً شامتاً فتنهض من سريرها لتوقد القنديل.. كم يجب أن تطول بها تلك الذكريات حتى تصل للراحة الأبدية عندما تعترف بخطاياها لنفسها فتطهّرها منها؟ يا للألم الذي يفند راحتها ويقلق نومها.. لقد مرّ على وجودها خمس عشرة سنة في هذا الدير العارم بالحب والذي شرّع لها قلبه الدافئ رغم كلّ مصائبها.. عبثاً تبعد عنها صوت الشيطان الذي يتسلّل إليها في خلوتها ويلعب معها لعبة التحدي.. إنّه يتحدّاها بأسرارها ويحرق سهادها الطويل بنار حقده عليها فهو يكره أن يراها تائبة مستغفرة فالخاطئون حماة له ولعصيانه الأبدي..وهو يذكّي شروره بمعاصيهم..

لقد سمعت عن كاهن يُدعى شربل وهب حياته للربّ في دير كفيفان فهل تقصده لتغرف من روحه الناصعة ما تسدّ به رمق روحها العطشى لراحة الضمير؟ ستهزم الشيطان به بلا ريب ولكنّها لن تنصر نفسها عند الاعتراف لأنّها ستهوي أمام ناظريه إلى أسفل درك بعد أن تقرّ له بجريمتها النكراء.. ركعت أمام ضوء القنديل الشاحب وأطلقت العنان لدموعها..

تابعت ذكرياتها.. يومها نامت نوماً متقطّعاً تخلّلته بعضُ الكوابيس الغامضة وفي الصباح حاولت أن تقاوم شعورها بالانهيار ففكّرت واتخذت قرارها..ستهرب من الدير.. يجب أن تهرب قبل أن تسبي العيون حقيقتها بعد أن تكبر بطنها وتتدلّى أمامها وتصبح حديث الأجيال القادمة في القرية..

حزمت متاعاً خفيفاً في الليلة التي سبقت رحيلها وتركت رسالة للأخت زلفا نصّتها كالآتي: "الأخت المحترمة المبجّلة.. أضطّر مرغمة للرحيل فقد أُرهقت نفسي قليلاً من حياة النسك والزهد وأحبّ أن أعود لصخب الحياة حتى أقارن بين الحياتين لأرى إلى أيّ عالم أنتمي..وأرجو أن تكون أبوابك مشرّعة لي دائماً حتى تساعدينني على معرفة نفسي..والتقرّب من المسيح أكثر.. المخلصة ميرا شاور"..

طوت الرسالة على عجل ووضعتها على وسادتها..وانتظرت الفجر ونهضت من سريرها ووثبت خارجة من بوابة الدير متحجّجة بأنها تقوم بجولة بين الحقول وهي تبتعد رويداً رويداً حتى غادرت حدود القرية وانطلقت تعدو لتنادي سائقاً لعربة خيل يقلّها لقرية عابد..لكفرسلوان.. وهذه المرّة معركتها معه ستكون شرسة صارمة..ولن تدعه يدير ظهره لها..

ستواجهه بالحقيقة وتطلب مساعدته فهو شريكها في الجريمة النكراء.. لم ينطو الوقت ولا المسافة بسهولة بل كانت تحسّ أنّ كلّ ثانية تمرّ تكلّفها صبراً لا طاقة لها به..وأنّ حتفها يوشك أن يقع..

وصلت واتّجهت من فورها إلى منزل عابد.. مرّت الدقائق ثقيلة بعد أن طلبت من الحارس الرابض عند بوابة قصرهم مناداته..وبرز لها من خلال الإنتظار بوجه شاحب وجسد هزيل حتّى تصوّرت أنّ البعد قد ضمر من معالمه وهدّ من

عزيمته..حملق بها كأنه يرى حلماً قديماً يتألّق أمام بصره رافعاً حاجبيه بدهشة وكاد أن ينسى نفسه ويضمّها بين ذراعيه..لقد شرّدتهما الحرب وفرّقهما الدين ولكنّه لم ينسها يوماً ولم يجرؤ أن يسأل عنها خجلاً من نفسه التي لم تلتزم بوعده لها.. ابتعدا نحو الحقول المجاورة..وران صمت ثقيل تخلّلته أنفاسه المتسارعة التي تشي بقلقه عن السبب الذي جعلها تهرب من الكنيسة وتأتي إليه بانكسار وقلق وحزن..انتظرها لتبدأ بالكلام..

قطع الصمت الحارق بينهما كلمة لفظتها على عجل وبلا مقدمات:

- عابد..لم آتِ من أجلِ نجمٍ لحبٍّ أفل وخنقته بيديك..ولا تظنّ بأنّ الغيرة والشوق استبدّا بي من أجلك فقد نسيتك أو تناسيتك في لحظات الغدر التي أتحفتني بها..هناك أمرٌ خطير جئت أطلعك عليه يتعلّق بنا نحن الاثنين..

صمتت ونظراته تتبعانها بقلق مخيف..ثمّ أردفت قائلة وهي منكّسة الرأس:

- عابد..اصغِ إليّ جيّداً..أنا حامل..

خالت للحظات بأنّ الأرض قد مادت به وقد جحظت عيناه، وفغر فمه عن أسنان بيضاء خالت بأنّها من الذعر قد بدأت تصطكّ ببعضها البعض.. وكأنّه ينازع الرمق الأخير.. لم يكن هناك من كارثة يتخيّلها أعظم من التي حلّت به لتوّه..

تجمّدت نظراتهما وقد شلّته الصدمة.. ما من لغة أسلم من لغة الصمت في حينها ولا أبلغ فصاحة منها..تركته ليمتصّ الصدمة بعد أن هوت عليه بضربة الفأس القاضية.. وعرفت بأنّه يستجمع آخر ما تبقّى من قواه ليردّ عليه فانتظرته..

نطق أخيراً وقد أسعفه لسانه وسط هذا الزلزال الكبير.. وأحسّ بأن الهلاك يكمن في مكان قريب والعمر أوشك على الأفول في صحوة بين الماضي والحاضر

تعكس هول ما ارتكب من فاحشة..والعرق يتصبّب على جبينه كزخّات المطر ينذر بضبابية الغيوم وبقرب عاصفة وشيكة قادمة:

- لا حلّ عندي.. من المفترض أن أتزوّج بعد أسبوعين..و.. أنتِ تعرفين تقاليدنا..سيذبحونني ويقطعونني إرباً إن ألمّوا بالأمر.. وأنتِ يا ميرا.. سيقتلكِ أعمامُ والدك وتنكسين رأس أمك وجدّتكِ وتدوي الفضيحة في زحلة والقرى المجاورة لا بل في لبنان كله وتهبّ عاصفة هوجاء من الطائفية المذهبية الرعناء فيقولون ذاك الدرزي غرّر بالفتاة المارونية فنهبها شرفها وتقع مذابح لا نهاية لها في القرى المسلمة والدرزية والمسيحية على حدّ سواء.. لن يرضيكِ أن تُسال دماء بريئة من أجل جنين يولد عن طريق الزنا يا ميرا..أنتِ أدرى بالتقاليد والعادات في بلدنا. لن تنتهي القصة بأن يذبحك أعمام أبيكِ ويعلّقني أبي على المقصلة بل إنّ أمي وأمّك ستثكلان بعارنا. أمّا الطفل المسكين فإن لم يكن مصيره الذبح فيكون قتله هو التخليد لعاره فينشأ منكساً رأسه منطوياً على نفسه حاملاً عاره على كتفه كما حمل المسيح صليبه على كتفيه في دينكم..فكّري يا ميرا الحبّ لن ينقذنا بل سيغرقنا ولا حلّ هناك إلا بالتضحية به حتّى ننجو جميعاً منه..

قطبت ما بين حاجبيها وقد أعياها ردّه ووخزتها قسوته. كلامه صائب ولكنّها خائفة وتحتاج منه أن يسندها حتى لو كان الحل في قتلها..

أجشهت في بكاء مرير فبكى معها.. الحبّ بات سياطاً لاذعة يصبو لإراقة الدماء والارتواء منها.. إنّه محق..ستحدث مجزرة أكبر من مجزرة زحلة إن درى أهلهما بالأمر..وسيهلك أناس أبرياء من جرّاء غلطتهما.. إنّ نار الفتنة لم تُخمد بعد وما زالت شراراتها تنتفض وتتأهّب لتتّقد في أيّ لحظة.. سيُشاع في القرى

والمناطق المسيحية بأنّ شابّاً درزياً خدع فتاة مسيحية وأغراها بالحبّ فبذر في رحمها ثمرة الحب المحرّم..وتُعمّمُ في المناطق الدرزية بأنّ فتاة مسيحية أغوت شابّا درزيّاً مسكيناً فجعلته يرتكب الفاحشة حتّى تحمل منه..وستجرّ الخبرية الكوارث العظمى وتُسفك دماء وتدمّر بيوت بأسرها ولن تقدر حتى سلطة الآستانة على إخماد النار المندلعة..وسيكون عنوان الثورة الآتية ميرا.. ميرا التي جلبت العار لأهلها وبلدها بأسره.. ميرا التي شبّت على حسن الأخلاق والمثل وانتهت راهبة تحمل في أحشائها جنين الزنا..الانتحار رغم ذنوبه أرحم..

فكّرا سويّاً..لقد بقي لها أقل من ستّة أشهر حسب حساباتها لتنجب هذا الطفل..فلم يكن هناك من حلّ سوى أن تختفي عن الأنظار في بقعة نائية عن الجميع لتنجب هذا الجنين ويودعانه في مكان آمن ليتكفّل به أصحاب الخير..إنّ التخلي عنه خير من إبقائه في كنفهما لأنه في هذه الحالة سيُذبح معهما ويُقطّع أشلاء.. فلتصمت ولتضحّي لا من أجل عابد وحده بل من أجل الجميع..

اختار لها قرية نائية بعيدة تدعى أنصار في جنوب لبنان.. ذهبا سوياً وقد تنكّر هو بثياب تاجرٍ شامي ولبست هي الحجاب لتخفي شعر رأسها وما تيسّر لها من ملامح وجهها.. وصلا إليها بعد أيّام وليال قضياها في سفر شاق ليس أشق من المصيبة التي حلّت عليهما..

وقد اعتقد أهل القرية بأن الوافدَيْن الجديدَيْن زوجان من سكّان دمشق وقد جاءا إلى لبنان بنيَّةِ التّجارة..هكذا أوعز عابد للجميع حتى يحمي السرّ من أن يتسرّب.. استأجرا بيتاً صغيراً أشبه بالكوخ من صاحب أرضٍ شاسعةٍ بعيدة نسبيّاً عن القرية...مكث معها عابد هناك أياماً قليلة ثمّ اضطرّ أن يعود إلى قريته بعد أن أوصى بها رحيمة وهي شقيقة صاحب البيت وتعهّدت بالاعتناء بها.

وقد أوهم والده بأنّه يسافر إلى بعض القرى للاطمئنان على ما آل إليه وضع الدروز فيها بعد المعارك الشرسة الّتي جرت وأنه ينسّق للجنة تضمّ كبار الأعيان الدروز للوقوف على أحوال القرى وتعزيز عرى التواصل بين بعضها بعضاً..فسُرّ والده لنشاطه وشجّعه..فاستغلّ الفرصة وأقنعه بتأجيل عرسه بضعة أشهر حتى تستتبّ أمور الأمن في البلاد.. وبات يعودها كلّ شهر...يسافر إليها لأيّامٍ قليلة ويمدّها بمبلغ كبير من المال يكفي احتياجاتها ويفيض.. ويغدق عليها بكلّ حبّه فتقابله بالصدّ والجفاء..لم تعد تصدّقه أو تتقبّل لهفته وتهافته عليها..إنّ خطيئتهما منتصبة حيّة أمام أعينهما ووجه شهب يرتسم لها في معالمه وتحرّكاته..فقد خذلها في حبٍّ يفلح في أن يرى النور..فكان يعود أدراجه إلى أهله خائباً خائفاً قلبه معها وجسده معهم ومع خطيبته شهب.

وقد اعتادت هي على رحيمة واستأنست بها وتوطّدت بينهما خيوط الصداقة ولكنّها راعت الكتمان إلى أقصى حد..

كانت رحيمة فتاة مرحة مكتنزة الجسم..لم تكن جميلة لكنّها قريبة من القلب إلى حدّ كبير..تتكلّم كثيراً وتثرثر في أمور مهمّة وغير مهمّة..فهي آنسة شارفت على الأربعين ولم تتزوّج بعد وتعتقد بأنّ الرجال قد أصابهم العمى لأنّ أحدهم لم يتقدّم لطلب يدها، فكانت تشكو كلّ ليلة لميرا همّها وتحكي لها عن قصص فتيات القرية اللواتي بتبرّجهنّ ووقاحتهنّ تمكنّ من اصطياد أكثر الرجال شأناً وعزّاً.

وقد ألمّت ميرا في فترة إقامتها في القرية بالكثير من المعلومات عن الدين الإسلامي..كانت تسمع الأذان فتطرب أذناها وتتأكّد لها يوماً بعد يوم فكرتها بأنّ الله واحد في كلّ الأديان وما يفرّق الكنائس عن الجوامع يتبدّد أمام قوّة الإيمان بالرب..وتمجيده في السموات..

وأحبّت في القرية يوم الجمعة لأنّ الصلاة تقام فيه فتسير أحياناً مع راجحة لتدنو من المسجد وتسمع ما يصل إلى أذنيها من كلام الشيخ عن الأديان والمحبّة.

وكم عانت من الفضول أيامها فقد توافدت بعض نساء القرية لزيارتها في بعض الأحيان حبّاً منهن لاستطلاع خبايا الزائرين الغريبين ولكنّها كانت تؤثر الصمت في حضرتهنّ فيغادرنها خائبات المسعى وهنّ في جهل تام عن حياتها وأسرارها.

وفي تلك القرية الغريبة عنها كانت تتعبّد في صمت وتخرج بسرّية من الدار ليلاً تتلحّف بالظلام الدامس لتتلمّس خطاها بين الأحراج الكثيرة وضوء القمر ينتشر خافتاً على سفح الجبال التي تعكس بين طيّاتها أشعّةً فضّيّةً تلقيها على البيوت المتناثرة والجامع الصغير والحقول البعيدة المتمادية الأطراف والمترامية إلى البعيد وتسمع نداء الله يتردّد في كلّ شبر فيها.

كانت تدعوه باكية بأن تحدث معجزة تقلب الأحداث المتوقّعة رأساً على عقب..ولكن ما من ذرّة أمل تلوح في الأفق فتلجأ للدموع تناجي بها يسوع وتخفض جناحها للصبر الأليم.

ومرّ الخريف بعواصفه المتقلّبة المتعرّجة كالسلالم المعوجة..وبزمهرير ريحه التي تهبّ في خابية البرد الشديد.. وعقبه شتاء عام 1861 بأسماله المشعّثة ومطره الزّميع الذي تحرّكه الغيوم بثقلها كيفما تشاء واقترب يوم الوضع وكانت وحيدة مع رحيمة في الدار فهرعت لتحضر لها الداية..

كبتت صراخها في أعماقها وهي تحسّ بالألم القاتم يقطّع أحشاءها ولكنّها لم تشأ أن تخرج هذا الوجع اللامحتمل حتّى لا تفضح نفسها والدليل الأسطع لعلاقتها الآثمة يخرج إلى النور متدحرجاً من داخلها كأنّها الطبيعة تلفظه شاهداً حيّاً على آثام البشر..إنّه يشير إليها بالبنان صارخاً متّهماً..

كان يجب عليها أن تتألّم..ألم يتألّم يسوع وهو يُصلب بمسامير خشنة على صليب يحضن تأوّهاته ويحيلها زفرات رحمة تخلّص البشر جميعاً من خطاياهم؟ ألم يكبت كلّ هذا العذاب وحيداً باسقاً يرتوي من دمع السماء الذي يبرّد له جروحه الغائرة؟ وقد اجتاز الألم بالصبر والإيمان..

إنّ المزيد من الألم الذي تحسّه سيحرّرها من عذاب خطيئتها، فعندما يتألّم المرء فهو يكفّر عن بعض ذنوبه ويمسحها بهول ما يقاسي.

وأطلّ وجه المولود الصغير.."إنّه صبيّ ذكر يا ميرا ..ذكر" صاحت رحيمة بفرح وسمعت بعد ثوان صوت بكائه فانتفضت ولمست خطيئتها حيّة جليّة في النور فأغشي عليها ولم تعد إلى وعيها إلّا في صباح اليوم التالي.

ولد الطفل في غياب أبيه صغيراً شاحباً لا يبكي إلّا نادراً وكأن الدموع التي ذرفتها أمه وهو في رحمها قد كفته العمر كلّه.. حتى إنّها كانت تضطر إلى هزّه في بعض الأحيان لتتأكّد من أنّه حي..ولكنّه مع هذا كان مخلوقاً صغيراً جميلاً..

لم يخفق له قلبها إلا بحذر..كان التوجّس قد شدّ على نواجذ تفكيرها فنبذه ميتاً لا يدري كيف يخطّط أو يشعر..ولكنّها كانت تشفق عليه.. كانت تحرص بأن تقيه من البرد وتحميه من لفحات الهواء المتجمّد بالبرودة وتغدق عليه بعذب الكلام حتى لا يخال نفسه وحيداً.. وكان وحيداً بالفعل..

لم تكن تعرف شيئاً عن الأطفال لولا رحيمة التي علّمتها كيف تمسكه وكيف ترضعه وكيف تهدهده حتّى ينام. صحيح أن الفتاة غير متزوجة ولكنّها تملك خبرة من تربيتها لأولاد أخوتها فجادت بها عليها ووجّهتها التوجيه الصحيح..

ولهذا اعتبرتها بمثابة أمّها التي لم تعرف بأنّه بات لها حفيداً من لحم ودم.. وبأنّ ابنتها العزباء قد أصبحت أمّاً..

وتعمّقت الصداقة بينهما وتواعدتا على أن تكتب إحداهنّ للأخرى من فترة للأخرى بعد رحيلها عن القرية..لقد لمست رحيمة طرف الحزن في عينيها ولكنّها لم تستطع أن تحلّل سببه...

وحضر عابد بعد أسبوعين فرأى الطفل..بغته المشهد وتسمّر لدقائق حائراً واجماً وكأنّه يسير في طريق ملغوم لا حياد له عنه ويرى النهاية تلوح له أمام ناظريه والعار كلّه ينتصب مارداً جبّاراً في وسط روحه.

لم يفرح به ولم يقبّله..كان ينظر إليه كأنّه الخلاعة بعينها باستحياء وخجل واحتقار.. إنّه يحتقر نفسه ويحتقر دمه حتى خالت بأنّه قد يشهر سيفه ويقطّعه إرباً..فغضبت وودّت لو تنقضّ عليه وتخنقه بيديها..

وما ردعها هو أنّ العواقب وخيمة ولا تحتمل تصرّف أحدهما فالخطر يحدّق بهما من كلّ صوب وكانا هما كمن يحملان دمّهما على كفّيهما ويجريان به.

في اليوم التالي استغلّ عابد غياب رحيمة في دارها فاستيقظ مبكراً مع الفجر وهزّها بلطف من كتفيها.. حدّقت به متسائلة فقال من فوره:

- يجب أن نتخلّص من الطفل مثلما اتّفقنا..

كادت تصرخ بحدّة ولكنها خافت من أن يصل صوتها إلى أذنٍ فضوليّة. فردّت والهلع يزحف بثقل على صدرها:

- إنّه لا يزال صغيراً جداً..كيف تجرؤ؟ كيف سيعيش من دون أن أرضعه وأهتمّ به..لقد عَمَتكَ القسوة عن الشعور بالشفقة اتجاه هذا المخلوق الضعيف..سيموت إن أبعدته عنّي في فترة الرضاعة..

أجابها بحزم:

- كلّما انتظرنا سنكون في خطر أكبر من تسرّب الفضيحة وانتشارها بسرعة البرق.. لقد خطّطت لكلِّ شيء.. لفّي الطفل بأقمشة سميكة وسآخذه معي الآن إلى الجامع القديم في القرية لصلاة الفجر من غير أن يلمحني أحد..هناك يتردّد للصلاة تاجر عاقر لم يكتب له الله بأن ينجب أطفالاً والناس ينادونه بأبي حسن وقد أصبح صديقاً لي بعد تردّدي على هذا الجامع..هو لا يعلم عنّي شيئاً باستثناء أنّي تاجر.. لقد حكيتُ له قصّتنا فطلب مني أن أسلّم الطفل له.. لا شكّ أنّه سيعتني به..أما أنتِ فجهّزي نفسك للسفر فور عودتي إليك قبل أن تتنبّه رحيمة عندما يتسرّب أمر الطفل في القرية فتشير بالبنان إلينا.. ويفتح الأهالي تحقيقاً في الأمر..يجب أن نهرب في أسرع وقت..هيّا يا ميرا..هيّا..

أعجزتها الكلمات ولم تبصر من غلالة الدمع المتسرّب من عينيها إلا خيوطاً واهية من الحرقة والتجلّد المرير معاً.. تركته يلفّ الطفل ويخرج به من غير أن تلقي عليه نظرة وداع..

تمنّت لو تعدو خلفه وتنتزعه من بين يديه لتأخذه معها وتهرب به إلى آخر الدنيا.. ولكنّ الواقع لا يقرّ لها بهذا.. فهي تحميه من القتل عندما تلقي به بين أحضان الغريب وتحمي نفسها وتدرأ الخطر عن عابد..والفضيحة عن أهلهما.

عابد فتى أحلامها الذي هان في سبيله كلُّ ما حدث بينهما يلقي بفلذة كبدهما في الطريق على باب جامع.. ويسلّم طفله لأناس غرباء بنيّة التخلّص السريع منه..كم هو جاحدٌ للحب وخائنٌ للعشرة..

ألقت بعباءتها الثقيلة فوق كتفيها وركضت وراءه رغم أنّها ما زالت متعبة واهنة فلم تعترضها الريح والبرد والدرب..كان كلّ شيء رحيماً بها وكأنّ الطبيعة بجلالها تشهد على آخر وداع لأمٍّ لم يتسنّ لها أن تحبّ طفلها كثيراً فعجزت عن أن تحميه في وسط عالم لا يقرّ إلا بالشرف ولا يقتل إلّا من أجله..حتى القطط تحمي صغارها أكثر ممّا حمت هي طفلها الصغير.

تباطأت خطواتها وهي تلمح عابد ينعطف نحو باب الجامع ويختفي وراء شجرة سنديان كبيرة وينتظر خروج أبي حسن ثم يتسربل بخطاه وهو يلهث فور أن لمحه ليسلّمه الطفل مؤدّياً دوره بحذق..تابعت بعينيها أبا حسن وهو يحتضنه بلهفة ويربت على كتف عابد وكأنّه يشكره على الهدية الثمينة ثم يبتعد بخطوات مسرعة ويختفي في آخر الدرب كأنّ عمرها يختفي معه..

لم تسعفها قدماها عندما همّت بأن تنقضّ على الرجل لتأخذ منه طفلها فقد تسمّرت كاللّوح المتحجّر المنهك على قمّة جبل جليده الدهشة وبريقه الكآبة النافذة إلى العمق..ذهب الرجل وتوارى وراء الأزقّة البعيدة في القرية أمّا هي فقد عادت أدراجها لتلملم أشياءها وتستعدّ للرحيل مع عابد حتى يفرّقهما الطريق الذي بدآه سويّاً..كلّ الطرقات لم تستطع أن تجمع بينهما..إنّ الدرب لا يعاند القدر بل يخضع لمشيئته ولكلّ ما يترتّب عنه من صفعات وآلام..

تبّاً لها وتبّاً له.. تبّاً للحبّ الذي يبذر ضحايا ويحرثهم بمحراث الحرقة ويحصدهم بمنجل الظلم.. التقت نظراتها بنظرات عابد فور عودته وكأنّها نظرة المرارة الساخطة الأخيرة التي تضمّهما معاً.

تمنّت لو أنّها أخبرت رحيمة بسرّها لترتاح ولتطمئنها الأخيرة على طفلها وهي بعيدة عنه ولكنّها لم تجرؤ..رحيمة لا تستطيع أن تضبط لسانها وتمنعه من البوح بمكنونات الأمور..فقرّرت أن تكتب لها رسالة كي تخفّف من حدّة الشك في نفسها تخبرها فيها بأنّهما اضطرّا للسفر بسبب حالة وفاة حدثت في العائلة وبأنّهما سيحاولان العودة في أقرب وقت..

طلبت من عابد أن يأخذها إلى زحلة.. لا بدّ أن أمها وجدّتها قلقتان بعد اختفائها ستعرج عليهما ثم تعود إلى الدير.. ماذا سيتبقّى لها في الحياة بعد أن وهبت فلذة كبدها للغرباء..ساد الصمت بينهما طوال الطريق حتّى وصلت إلى قصر جدّتها..إنّ معالم القرية تغيّرت منذ تركتها..ومعالم القرية هي ليست في التضاريس من سهول وجبال ووديان بل في بصمة الوجوه الّتي أضناها كلّ ما حدث من النزيف الداخلي والخارجي..

وعدها عابد قبل رحيله بأن يطمئنّ على الطفل من بعيد وأن يزورها في الدير ليخبرها بكلّ جديدٍ عنه ثمّ تابع طريقه واجماً صامتاً يكاد الغمّ يقتله ويبدّده.

لم تصدّق أمّها عينيها عندما رأتها بخير وصاحت جدّتها بها تؤنّبها على اختفائها.. لقد بحثتا عنها طويلاً مع أعمام والدها ولم يفلح أحد في العثور عليها.. ادّعت أمامهم بأنّها ذهبت لدير بعيد في منطقة جبيلة وعرة بعيدة لتطّلع على بعض التعاليم المسيحية من الكتب المهمّة بعد أن داهمها الشكّ في تبيان الحقائق الروحانية الجلّية ونسيت أن تذكر هذا في رسالتها للأخت زلفا.. وأحاطها الجميع

بعناية كادت تخنقها..وتسابق أعمام أبيها في أخذ البركة من مجالستها ومحادثتها وهي تمثّل لهم تلك الراهبة الطاهرة التي تعتنق العفّة..إنّهم لا يدركون ماذا حلّ بها وماذا جنت يداها.. ومعرفتهم بالأمر تعني إبادتها هي والجنين وعابد بل تعني حرباً شاملة أخطر من الحرب التي شنّها بطرس بكثير وأعمق من هدير الفتنة التي عصفت بالبلاد..كم تكره حبّهم المزيّف القائم على الشرف وحده..

كرهت الذهاب إلى الكهف الذي شهد أوّل أحلامها وبكى آخر أحلامها.. بل لم تكن لتخرج من القصر أبداً.. وافتقدت متّى كثيراً..تمنّت أن تراه قبل عودتها إلى الدير الذي لم تكن متأكدة بأنّ الأخت زلفا ستفتح لها بابه من جديد.. وأتى بطرس ذات صباح ليطرق باب دارهم وفتحت له جدّتها الباب وصاحت به فور رؤيته:

- بطرس يا فلاح يا ابن الفلاح ماذا أتى بك إلى هنا ألم يكفك ما فعلت بزحلة ولم تقر عينك بالمذبحة التي حصلت فيها؟ عد أدراجك واكفنا شرّك أيها الحاقد الجاحد لآل شاور..تراك لم تتعلّم درساً يفيدك ممّا جرى لوالدك والمهانة التي أُلحقت به فجئت بقدميك إلينا لتحصل على ما هو أشر منها؟

ابتسم الرجل بهدوء حسدته عليه وهي تراه من خلال ثقب في النافذة وحيّا جدّتها باحترام كبير وردَّ برقيٍّ جارف:

- ما جئتُ متطفّلاً ولا حاقداً ولا طالباً لإهانة أو فتنة..إنّما أتيت لأطمئن على صحّتكم وأخباركم..إنّ ما جرى يا سيّدتي الكريمة في الماضي أمرٌ طواه الزمن ورحّله الدهر كذكريات تمرّ ومضاً في البال..وإن لم يتسنّ لي أن أفوز بيد السيدة مروى ابنتك فقد فزت بما هو أهم وأكثر راحة ألا وهو تأييد الناس البسطاء من حولي لي ولمبادئي ومحبّتهم التي لا تنضب لذكرى والدي أوّلاً وللتحرّك الشعبي الذي قدته بنفسي ثانياً..فما أنا بمتطفّلٍ

ولا بربريٍ يا سيّدتي بل أنا محض إنسان بسيط فقير يندى جبينه حبّاً لشعبه وينأى عن الأحقاد والتفرقة..وما حداني اليوم للعودة إلى قصركم الحافل بروح الرقي هو حرصي التام للاطمئنان على صحّتكم وتأكيد انتمائي لمدينة زحلة العظيمة..وصدّقيني بأنّ الماضي لم يعد يعنيني في شيء..

صرخت الجدّة في وجهه وهي تغدو كاللّهب المستعر:

- هيّا اغربْ عن وجهي يا نذير الشؤم وإيّاك أن تذكر اسم ابنتي على لسانك..هل كنتَ تحسب أنها ومثيلاتها سيرضين بمثلك زوجاً لهنّ؟ هل بلغتَ من الوقاحة أن يبادرك الأمل ولو ليوم واحد بأنّ ابنتي ستقبل بك زوجاً يأتي من الدرك الأسفل المبتذل؟ يا لأوهامك يا بطرس المسكين..إنّك فاشل كثورتك تماماً تلهث وراء أضاليل تخترعها لنفسك وللفلّاحين المساكين فيتبعونك ويهلكون. انظر إلى الذي سبّبته لزحلة وللناس الأغنياء والفقراء على حدّ سواء..بسببك قام عهد جديد في الحكم لا ندري أوّله من آخره..احجب نفسك في مغارة أو استر حقارتك في نهر جارف يأخذك معه فتنتهي ذكراك هنا..هيّا..ارحلْ من هنا..

قهقه بطرس وكأنّ كلام العجوز يسلّيه أكثر مما يزعجه وردّ قائلاً:

- أيا عجوزي المسكينة..(هنا نظرت إليه نظرة تضجّ بالحمق والكراهية) لماذا لا تستوعبين بأنّ التاريخ سينصفني ويخلّدني تماماً كما خلّد نابليون بونابرت ولن يخذلني بعد مماتي أبداً؟ هل تعرفين كم حقّقت تلك الثورة التي تظنّين بأنّها فاشلة من نجاحات وأرعبت قلوب القساة الإقطاعيين؟ بل ذهبتْ إلى حدّ ترويع دولٍ أجنبية بحالها..وترويع قلب الأستانة..إنّ الكرامة تصنع المعجزات يا سيدتي وهي تولد أكثر في بيوت المعدمين الفقراء

لأنّها تعويضهم الوحيد عن المال الذي تتشبّثون به أنتم معشر الأغنياء لاعتقادكم بأنّه الكرامة بحّد ذاتها..ولكنّ مالكم لن يغنيكم عن الكرامة..

لم تتمالك جدّتها نفسها فدفعته بكلّ ما أوتيت من قوّة ورفعت عصاها تلوح له بها مهدّدة ليبتعد بعيداً عن قصرها.

طردته شرّ طردة فاضطرّ إلى المغادرة ولكنّ أمها لحقت به حتى أدركته وسارا معاً في وجوم وصمت ثمّ رأتهما يتبادلان حديثاً خافتاً قبل أن ترجع باكية متحسّرة.. إنّهما يبكيان على الحبّ المستحيل الذي لم يستطع أن يهزم العنجهية الطبقية ويبدّد أثرها في نفوس الناس.. وجدّتها هي أوّل من حارب هذا الحب وخنقه في مرقده..وها هي أمّها ما زالت حانية الظهر لعائلتها تأتمر بأوامرهم وتحذو حذوهم صاغرة طائعة طاعة عمياء. فهل تلوم أمّها لأنّها لم تحفظ ذكرى أبيها فسمحت لنفسها بأن تكلّم حبيبها السابق أم إنّها غير ملومة لأنّ الحبّ يصنع المعجزات؟ وقد فعل عابد الشيء نفسه..ضحّى بها في سبيل أهله وأهدى طفله لأناس غرباء حتّى لا يثير غضبهم وجنونهم ولكنّه قضى عليها.

مسكينٌ بطرس ومسكينة أمّها..كان حبّهما بريئاً صافياً نشبت من خذلانه مع الأيام ثورة عمّت القرى اللبنانية بأسرها وكادت تهدّ الجبال الأكثر متانة و قوّة..

ستهرب من حبّها وماضيها مرة ثانية وتهرع إلى الدير تطلب الرحمة..هناك النور الساطع والقلب النيّر الذي يحضن الكثيرات أمثالها.

وأخيراً عادت إلى رشميا..عادت منهكة وقد سلبت منها الشهور التي مضت رحيق الطهر الراسب في أعماقها وأحالتها إلى إنسانة ثائرة ناقمة على الدنيا ومن فيها..ولكنّها فور أن تنشّقت رائحة الياسمين المنبعثة من حديقة الدير غصّت عيناها بالطمأنينة وطرقت الباب ودخلت ولم تصدّها عنه الأخت زلفا..بل عانقتها

وأعادتها إلى غرفتها.. وكأنّها معتادة على تلك المعركة الضارية التي تحدث بين الملائكة والشياطين لترحل بعض الراهبات ويعدن تائبات نادمات..

لقد فعلت الأخت زلفا الشيء نفسه عندما كانت راهبة صغيرة مثلها وامتثلت لأوامر قلبها يحرّكها بأهوائه كيفما شاء فتارة يقرّبها من الدير وتارة ينفره منه.

ولكنّها قاومت وشوشة إبليس وعادت خاضعة لمشيئة الرب تبخّر صلواتها بدمعِ التوبة الصادق وترشّ ياسمين الطهر على قدمي السيدة العذراء.

واعتقدت بأنّ ميرا تمرّ بالفترة الأليمة نفسها التي عَرَكتها فيما مضى، فمدّت لها يد العون بابتسامة طيبة وقلبٍ أوسع من البحر الغائر في همّه.. ولم تعدم طريقة تقرّبها فيها من المسيح وتعليماته..

الفصل السادس

هي ترقب الأيام تمرّ وعابد لا يأتي.. وحنينها لطفلها يكاد يسحقها.. إنّها توشك في كلّ ساعة أن تهبّ من مرقدها وتطرق باب غرفة الأخت زلفا لتجهش بالأنين وتقرّ لها بما تخفيه من الحقائق..ولكنّها ستحفر قبرها بيديها لأنّ العواقب قد تكون وخيمة وربّما رثت الأخت زلفا لحالِ الطفل وأخبرت أمّها كلّ شيء.. لكن السرّ يخنقها والقلق يردمها.. كيف تطمئن على طفلها؟..كادت تجنّ وتكتب لراجحة لتبثّ همّها رسالة مطوّلة تشرح لها فيها كلّ الحقيقة ولكنها عدلت عن الأمر لأنّ الفضيحة ستجلجل في القرى اللبنانية عندئذٍ..ثمّ فكّرت أن تكتب لرحيمة وتقرّ لها بالسرّ الذي كتمته عنها فتذكّرت بأنّ حسن أمانة لديهم في قريتهم وإن علم أهل أنصار الحقيقة سيعاملونه معاملة ابن الزنا وربّما طالبوا برجمه وطرده. الصمت قاتلٌ يجزّ أنفاس الورد في عزّ نضرته وقد قضى عليها بالألم المبرم الحارق.

والربيع يشقّ أنفاسه بصعوبة وسط أكوام الثلج وزفرات العاصفة والجبال تنفض عنها قصّاصات بيضاء كورق يصنعه الأطفال ثم ينفخون عليه فيحلّق طائراً ذائباً في الفضاء..وباب غرفتها يُطرَق فجأة ليطلّ وجه الراهبة سيلينا تعلن لها عن زائر صباحي أتى مبكراً لرؤيتها..

أسرعت تعدو في خطواتها حتّى وصلت إلى غرفة الضيافة..رأت عابداً يقف أمامها مبتسم الأسارير هزيل الوجه والجسد..حيّاها بلهفة تكاد تكون مطموسة في بيادر روحه القاحلة من الحنين الموجع...تناولت يده بين يديها بلهفة وشدّت عليها وقالت هامسة :

- تأخّرت عليّ كثيراً أخبرني هل الطفل بخير؟

لم يكن بمقدورها أن تلفظ كلمة طفلنا..فقد كان بالنسبة لهما كالغريب الذي أطلّ في مكان ضيّق لا يوجد متسّع فيه له.. ردّ بتأكيد:

- اطمئنّي يا ميرا.. الطفل بخير وقد تكفّل به الرجل وزوجته وسمّياه حسن وقد أُكلفا به أشدّ الكلف..وهو يعيشُ عيشة كريمة ميسورة..كلّ شيء متوفّرٌ له وهما يغدقان عليه كلّ الحبّ والحنان..

صمت قليلاً ثم عاد يقول بجدّية:

- أمّا أنا فقد تزوجت ابنة عمي شهب.. أقام لنا أبي عرساً كبيراً وزفّة لم يحلم بها أحدٌ في القرية وكنتُ فيها كالغائب الحاضر..لم تبث شفتاي أيّ ابتسامة ولم تغمر قلبي أيّ فرحة..إنّ السعادة تهرب مني وأنا بعيدٌ عنكِ يا ميرا.. ميرا أنا..

قاطعته وقد تبطّنت لهجتها بالازدراء والنار تتّقد في داخلها:

- ظننتُ أنّك قطعتَ وعداً ذات يوم في الكهف المشؤوم الذي شهد حبّنا بأنك لن تتزوّج غيري ولن تخون عهدي ولكنّ الغدر والخيانة في دمك يا عابد..أنتَ في الحقيقة إنسان لا مبدأ عنده ولا كرامة..لقد تخلّيت عنّي بكامل إرادتك ووهبت طفلك بكلّ مشيئتك..وفّقك الله يا عابد في حياتك الجديدة الّتي لا مكان لي أو للطفل فيها..

تجهّم وجهه وأجاب بحدّة:

- الدين والمجتمع والأهل.. كيف كنّا نهرب من كلّ هذا؟ لم يكن هناك من حلٍّ بديل يا ميرا..حتّى بطرس الذي أحبّ فتاة من دينه لم يستطع أن

يتزوّجها لأنّها من عائلة غنيّة فكيف تريدين من درزيٍّ أن يتزوّج مارونية؟ هل تعرفين بأنّ العشيرة ستحلّ دمي إن فعلت هذا؟

إنّها تعرف كلّ شيء ولكنّها لا تريد أن تؤمن بمثل هذا الكلام.. الله هو الله في كلّ عقيدة ومذهب ولا تستطيع أن تتصوّر بأنّه خلق الحبّ حتّى يعذّب به النفوس الحائرة الملتهبة شوقاً لبعضها البعض..فمتى تفهم البشرية هذا؟

إنّ الجنود العثمانيّين يتجوّلون في البلاد عابثين بها هانئين على مشارف أنقاضها لأنّ التفرقة تتّسع وتصبح شاسعة كالبحر وتتيح لهم المزيد من الهيمنة والسيطرة..وغداً قد تقوم ثورة حقيقية تسحق العثمانيين ولكنّها لن تقدر أن تسحق الحقد المذهبي العنيف الذي حلّ بالنفوس المتمرّدة..فقد زُرعت نبتة الطائفية وسُقيت من دماء جاهلة وحُصدت من أيدٍ حاقدة..وستنمو في كلّ عصر وكلّ زمان لتشهد على قدَمِها وأولوّيتها في نفوس الناس.

عابد تأثّر ببطرس ونادى مثله صادحاً بالعدل وإلغاء الفروق الطبقية فلماذا لم ينادِ بإلغاء قانون الزواج بين الأديان؟ هل لأنّه يعدّه قانوناً عادلاً يتوجّب عليه أن يخضع له أم لأنّه يبجّله كما بجّله أباه وجدّه من قبله أم إنّه يخاف من سواطير القبيلة إن تعرّض للدين ومطبّاته؟

ما من أحدٍ تجرّأ أن يتطاول على التقاليد وبخاصّة الدينيّة منها بل أمنوا عليها كأمرٍ مبرم لا يتيح لأيّ عالم أو فيلسوف أو مفكّر حتى مناقشته.

إنّها متيقّنة بأنّ الأجيال القادمة ستئنّ تحت وطأة هذا القانون الجائر وبأنّ المجتمع الشرقي لن يقيم للحبّ وزناً إن تطرّق الموضوع للزواج بين اثنين دينهما مختلف..فالطاعة واجبة والحبّ يختلف عن الزواج..

مجرمٌ من قالَ إنّ الحبّ لا دين ولا عرق ولا لون له بل إنّه مقيّد بالدين منبثق من العِرق مخضّب بألوان التنهيد واللذّة والحسرة والندم.

نظرت إليه بطرف عينها وسألته:

- أعرف شيئاً واحداً أنّك أناني يا عابد وأنّك تبيع العالم من أجل إرضاء نفسك أوّلاً.. كم كنتُ رخيصة وكم أهنتُ نفسي عندما عشقتُ إنساناً مثلك..لم أعد أريد أن تكلّمني في الحب وتهرق إحساسك على حلمٍ خبا من رياح برودك وقسوتك..

همّ أن يفتح فاه ليردّ عليها ولكنّها أولته ظهرها وركضت إلى غرفتها لتغرق في نحيب مرير..ماذا جنت من حبٍّ لا أمل فيه ولا وفاء..

حسن..هذا هو اسم ابنها إذن.. سيتربّى في بيت مسلم ويتلقّى أصول الدين الإسلامي.. وهي لا ترى ضرراً في هذا.. الدين واحد عندما يجتمع حبّ الله على ذكره..ولكنّها خائفة من أن يعرف الحقيقة في يوم ما فيكرهها إلى الأبد ويتمنّى لها الشقاء الدائم..ولعلّه كاره نفسه وناقمٌ عليها أيضاً..

كيف سيكون موقف العالم منها وهي الراهبة الناسكة الفاضلة إذا علم أحدٌ من أفراده بأنّها حملت وأنجبت عن طريق الحرام؟ سينبذها الجميع ويكرهونها بعد أن كانت طيّبة الأحدوثة نقّية السريرة..

قضت الليالي في صلاة خاشعة تحمل أوشام خطاياها كما حمل المسيح صليبه..وتخلّلت حياتها زيارات متقطّعة من أمّها وجدّتها وأغرقت نفسها في سمفونية القراءة تنهب من أوتارها لذّة لا تضاهيها لذّة.. فقد عشقت الكتب الدينية القديمة التي تضمّها مكتبة الدير.. ونهلت من أساطير الأوّلين وحكايا التراث

الدمشقي القديم.. بل أنّها طلبت من أحد أبناء القرية أن يأتي إليها بالقرآن فقرأته وتعلّمت منه الكثير من مبادئ الدين الإسلامي..فقد أرادت أن تعرف كيف سينشأ ابنها وأيّ دين سيطرق باب قلبه وكيف ستغرف روحه من نور الله من خلال هذا الدين الّذي يتشعّبُ ليشمل كلّ مفارق الطرق..

كلّ الصلوات التي تنفثها روحها وتشقّ دربها نحو الله كانت ترسلها..طلبت شفاعة القدّيسين بنفس حيرى وروح ثكلى بالشوق الملحّ إلى طفلها..

لقد أخبرتها أمّها ممّا سمعت من حكايات تناقلها الرجال ووصلت إلى أسماع النساء عن ألسنة الجنود المصريين الذين حكموا البلاد لفترة عن دير القديسة كاترين في جنوب سيناء في مصر..ولدت القديسة وهي سليلة لعائلة ملكية وثنية..تمرّغت في رحاب النعم تُغدق عليها من كلّ جهة ولكنّها آثرت حبّ الله فاعتنقت المسيحية وفاضت روحها تحت التعذيب وهي تقاوم الوثنية وتعبد الربّ بعد أن اتهمت الإمبراطور مكسيمينوس ببذل التضحيات للأصنام التي آمن بها وفضّلها على الروح السماوية الخالدة..روح الله.. وقد أذاقها من العذاب من كلّ صنف ولون رغم أنه كان راغباً في الزواج منها إلى أن قطع رأسها من غير أن يُدنّس جسدها أحد...فهل لها بشفاعتها كي تريق خطاياها في ميزان حسناتها وتطلب منها أن تصلّي من أجل طفلها؟...

وازدادت عزلتها في الدير وفاض حزنها من المحيطات والأنهر ليتصاعد في الهواء ويضرب الغيم القابع في عقر السماء إلى أن يفيض رذاذاً من المطر السخّي تسكبه ثانية في تلك البحيرات ليسكن قليلاً ويعاود التئامه في دورته المعتادة..تكبت سرّها وتأسرُ عقال نفسها في الصلاة فقط.

وعرفت الكثير عن قصص الراهبات القاطنات معها في الدير..منهنّ من دخلت مؤمنة طالبة وجه الرب.. ومنهنّ من هربت من وجه ماضيها الذي يطاردها ويدفعها إلى عتبة الانتحار..لم تكن تشاركهنّ في جلساتهن وضحكاتهن واجتماعاتهن.. فقد أغلقت عليها باب روحها واعتكفت في صلواتها ونذرت نفسها للطمأنينة الإلهية..حتّى نسينها هنّ..وكأنّ وجودها بينهنّ لا أثر له..

وقرأت في كتب كثيرة ونقّبت في ماضي الملوك وحروبهم وتكشّفت لها حقائق الكون التي كانت تجهلها.. وارتسمت لها حكمة الحياة بأنّها فانية ولا تعطي أكثر مما تأخذ من الإنسان..وخيرها يضاهي بطشها..وشرّها لا مثيل له.. وكلّما قرأت كلّما شرّع لها بابٌ جديد ومنفذ آخر للنور الأزلي..

في هذه الأثناء كان نظام المتصرفية قد طُبّق على جبل لبنان وقد عيّن متصرّف مسيحي من خارج لبنان يدعى داود باشا بمعاونة مجلس المتصرفية المكوّن من دروز وموارنة لمعاونته.. وقد أُعطي لقب متصرّف بعد لأْيٍ كثير بعد أن استُبعد لقب أمير حتى لا يُذكّر اللبنانيين بعهد الإمارة الشهابية فتعود الفتنة للتأجّج من جديد.. واستُبعد لقب والٍ حتى لا يماثل لقب الولاة العثمانيين ولم يُستسغ لقب حاكم لأنّه كثير التداول.. فتمّ الإتفاق على لقب متصرّف بعد أن ترجمت الكلمة من الفرنسية وأصلها :«Plénipotentiaire» .. وكان للمتصرّفية مفعول السحر إذ بدأت المدارس بالانتشار والمعرفة بالتوسّع والإزدهار..

إنّ كلّ هدنة مؤقتة تشبه نذير ما قبل العاصفة.. فالظلم يحتشد والقلوب الثائرة تكبت شرارات صحوها إلى نقطة لا رجوع فيها..واللبنانيّ مهما كان دينه هو أشبه بالطائر الحبيس الذي أعاقه قفصه الحديدي من استنشاق الحرية ولكنّه

سيفتح الباب عنوةً ذات صباح ليطير محلّقاً بعيداً في سماء لازوردية يسكنها الأمل..ويحدّها النور اللامحدود..

ولكن سواء كانت المتصرّفية أو غيرها من الأنظمة فكلّها تصبّ في حانة التوقيت المؤقّت وليس الحل الدائم..والثورة تشرع في التوقّد..

خارج الدير عندما تأخذها قدماها في رحلة عذبة نحو النهر أو الساحة.. أو تعرج على جبل زمرديٍّ يحفّه شجر السنديان كانت تشخص للسكينة والتأمّل وتكاد تنسى نفسها وتقبع في سكونٍ حالم..

مضت خمس سنوات وعادها عابد فيها بضع مرّات.. كان يجلس إليها عن كثب في كلّ زيارة ورأسه مطرقٌ إلى الأرض وعيناه غارقتان في لججٍ تشبه الأحلام.. يطمئنها عن حسن ويخبرها باقتضاب عن حاله..وألمح لها في إحدى زياراته بأنّه غير سعيد في زواجه ولم يرزقه الله بأطفال وقد اتّفق مع شهب على الطلاق ولكنّ أباه يؤجل هذا ويرفضه بقوّة..وأتاها في المرة الأخيرة قلقاً غاضباً يكاد عرق رقبته ينفجر من السخط الذي يشمله من رأسه حتّى أسفل قدميه..وأخبرها بأنّ أبيه أُدين بجريمة قتل بعد أن تشاجر مع فلّاح يعمل في حقولهم ولم يستطع كبتَ جماح غضبه فأفرغ بندقيته في جوفه.. كان عابد في تلك الزيارة الخاطفة كارهاً لأبيه وللمجتمع وللدين..واختفى من بعدها اختفاءً مبيناً..

نازعها الشوق لطفلها حتّى كادت تجن..قرّرت أن تغادر الدير لتستقصي عنه في قرية أنصار وقد أخبرها عابد سابقاً عن اسم الرجل الذي تبنّى طفلها وعن اسم الحيّ الذي يسكن فيه هناك.. تمنّت أن لا تلتقي برحيمة بعد اختفائها المباغت هي وعابد حتّى لا تثير لديها الشكوك والتساؤلات..

ادّعت أمام الأخت زلفا بأنّها ستقوم بزيارة للقدّيس شربل لتحلّ عليها البركة..لجأت للكذب حتى لا يُفضح أمرها وحتّى لا يُؤرق بال أمها وجدّتها بعد علمهما باختفائها الثاني..نظرت إلى السماء بضراعة ووله وتمتمت في نفسها: "فليغفر لي الربّ كذبي على الآخرين..ولكنّي اضطررت يا ربّي من أجل ولدي الذي لم أره منذ خمس سنوات.."؟؟

وصلت إلى القرية بعد رحلة شاقّة طويلة هدرت فيها الكثير من المال والتعب والخوف..كان سوق القرية يقوم على قدم وساق..الباعة منتشرون ببضائعهم ينادون عليها والناس يتحلّقون حولهم. وقد توزّعوا بين مشترٍ ومتفرّجٍ والشمس توزّع عليهم أشعّتها الثاقبة مخترقة الطرابيش الحمراء التي تزدحم في ضجّة السوق وصخبه. .

هنا يعيش فلذة كبدها وصحوة أملها..هنا في تلك القرية يمشي ويلعب ويترك أثره الجميل..آه كم حُرمت منه وكم جُرحت لأجله..

واستقصت حتى عرفت عنوان أبي حسن...لم تعرف ماذا تفعل عندما وصلت إلى داره ذي الفناء الواسع الجميل.. فانتظرت خارجاً كمتسكّعٍ لم يبقَ له في الحياة إلا ثقباً في باب يشعّ منه الحنين..

وما هي إلا ساعة حتى رأت امرأة مكتنزة تخرج مع فتاة صغيرة عليها ملامح بائسة تشي بأنها الخادمة وهي تمسك بيدها ولداً صغيراً في الخامسة من عمره.. همّت أن تقفز وتصيح بأعلى صوتها ولكنّها كبحت جماح نفسها..إنّه هو.. إنّه حسن..حسن ابنها الصغير..

راقبته من بعيد وخفقات قلبها تكاد تقفز من بين ضلوعها لتطرق بلور النوافذ وأبواب البيوت وتخترق الجدران.. سمعت صوته نعم إنه صوته.. يلاعب خادمته

ماشياً وضحكاته تتردّد بجذل.. انتظرته أن يلتفت إليها..أن يشمّ رائحتها ويبحث عنها كما بحثت هي عنه..ورآها.. التفت بغتة يرمقها بتردّد واستحياء ولكنّه وقف يتأمّلها عندما أصبحت قريبة منه.. لقد عرفها إنها متيقّنة من ذلك.. كان جسمه هزيلاً ولكنَ وجهه ممتلئ جميل وبشرته بيضاء تتلألأ ببهاء وعيناه سوداوان شاسعتان كأنّهما تسعان الدنيا بأسرها....كان يشبهها..يشبهها كثيراً باستثناء شعره الأسود المتناثر على جبهته فهو يشبه شعر عابد ويعطيه براءة وحسناً ..

جمّعت ما تبقّى من قواها ووسعت خطاها لتلحق به ووقفت قبالته وركعت أمام قدميه وأخذت رؤيته بمجامع قلبها لتضمّه إليها وتحضنه.. أخيراً...بعد كلّ ذاك الانتظار وذاك الوله..وذاب فيها كأنّه يعرفها منذ أمد بعيد..منذ تكوينه الأول..لم يبكِ ولم يتفاجأ فكأنّه انتظر هذا اللقاء..وشملته الحيرة من جديد فحدّق بالخادمة و بالمرأة التي تقف بجوارها ويناديها أمي بتساؤل..

فضحت لهفتها أمرها فحدجتها المرأة المكتنزة بنظرة شرسة وقد توجّس قلبها شرّاً.. سحبت حسن بقوّة من بين ذراعيها وأمرت الخادمة أن تسير به والتفتت إليها متسائلة عمّا تريده.. وبلا مقدّمات أو تفكير نطق قلبها وفاه لسانها:

- إنّه ابني يا أم حسن..

قالتها وهي تمدّ يدها وتضغط على ذراع المرأة التي وقفت تحدق فيها مدهوشة.. خيّم صمت كثيف كغيوم توشك أن تلقي حملها من المطر..تشابكت الكلمات في شكل دوائر متشابكة.. أدارت المرأة ظهرها وهي تقول صائحة:

- لا بدّ أنك امرأة مجنونة..كفانا الله شرّك ابتعدي من هنا..

ازداد ضغطها على ذراع المرأة وانطلقت تقول:

- بل إنّه ابني.. وفي ليلة شتاء عاصفة حمله عابد بين ذراعيه وذهب به إليكم ووجد زوجك على باب الجامع وسلّمه الرضيع..ارحميني يا أم حسن.. إنّه ابني وقد تقلّبت في غربتي عنه على موقد الجمر اللاذع وتخيّلته وهو يكبر يوماً بعد يوم.. وتعلّمت وقرأت عن دين الإسلام الحنيف من أجله.. بحقّ نبيّكم محمد عليه الصلاة والسلام لا تحرميني من رؤيته..ارحمي قلبي الضعيف..

أدارت أم حسن ظهرها وهي تقول بغضب وقلق وترمقها بنظرة ازدارء ملحّة واتهام فاضح:

- أين كنتِ عندما حمله أبو حسن إليّ وهو يرتجف من البرد؟ وعندما سهرت عليه ليالي طويلة أهدهده بين ذراعيّ تلك؟..لقد رحلتِ أنتِ وأبوه ونبذتماه كنكرة..كان عابد يأتي ليطمئن عليه من بعيد كلّ بضعة أشهر وأحياناً كلّ سنة..وعندما زاد حنينه إليه لأن الله لم يرزقه بأطفال آثر أبو حسن أن يوحي إليه بأن يقصر من طريقه إلينا.. هل تعرفين ماذا يعني لنا حسن؟

صمتها يطول ولا تدري كنه الإجابة..هي لم تفعل شيئاً سوى أنها أحضرته إلى هذه الدنيا ثمناً لخطيئتها..وهذه المرأة هي التي ربّته وتوسّد مناكب حنانها لتكون أماً حقيقية له..أماً فشلت هي أن تكونها..ابتعدت المرأة وهي تتوعّدها بأنّها ستصيح وتصرخ في الناس إذا رأتها ثانية وتتهّمها بأنّها تريد أن تخطف الطفل لتودعها في السجن..راقبت حسن وهو يبتعد برأسه الصغير رويداً رويداً ليختفي في غياهب الطريق وتختفي روحها معه.

مكثت في القرية أربعة أسابيع في دار رحيمة بعد أن قصدتها مشتّتة القلب والعقل ولم تكترث بدهشة المرأة عندما رأتها وحيدة من غير طفلها وزوجها..

"آه يا رحيمة لو تدرين بأنّ طفلي لم يبرح قريتكم وهو يعيش بينكم هنا لكنتِ لطمتِ وجهك حرقة على قلبي المسكين وسكبتِ الدمع على وجعي الدفين" خاطبت نفسها وقد شهقت روحها حسرتها وازدردتها كمداً..كان همّها الوحيد أن تلمح حسن من بعيد لتروي شوقها إليه ولو بنظرة خاطفة..ولكنّهم أخفوه عنها عمداً ولم يعد يخرج من دارهم..وفي كلّ مرّة تلمحها فيها أم حسن كانت تصبّ عليها جام غضبها وتتوعّدها شرّاً..

إلى أن تقدّم منها أبو حسن ذات صباح وهي تجلس مستندة على حافة شجرة قرب داره منتظرة ابنها كي يخرج.. وبادرها من فوره:

- أيتها السيدة..أنتِ ستسبّبين الفضيحة لابنك..لقد بدأ أهل القرية يتساءلون عن سبب وجودكِ هنا ولو علموا الحقيقة سيرجمون حسن بالحجارة وينادونه بـ "ابن الحرام"..هل تريدين أن يُطلق على ابنك هذا اللقب؟ لقد وهبناه على قدر استطاعتنا حياة كريمة مستقرّة فلا تُفسدي عيشه لشوق ألحّ على قلبكِ فالتضحية من أجله تفوق شوقك إليه بمراحل..وصدّقيني إنّ أم حسن صارحتني بأنّها إن رأتك بعد اليوم ستزلزل الأرض وستصرخ عالياً ولا يهمّها أن تظهر الحقيقة فستحتفظ بحسن في كلّ الأحوال ولكنّه هو من سيتضرّر..وإن علم أهلك فسوف يقتلونكِ أو ينفونكِ..فارحلي بسلام عنّا أرجوك..

اخترقت كلماته قلبها كسهم حارق..قرّرت أن ترحل عن حسن..ففي بقائها عارٌ له وسيُشار إليه بالبنان بأنه ابن الحرام إن تجمّع أهل القرية على صوت أم حسن وعرفوا الحقيقة المرّة..لن يرحموه ولن يرضوا أن يسلّموه لها..

قرّرت أن تعود إلى الدير..نازعتها نفسها بغتة شوقاً لأمها وحتّى لجدّتها القاسية.. فكّرت في متّى وتساءلت ماذا يفعل الآن؟..لماذا لم يبحث عنها طوال تلك السنين؟ وكيف فضّل التضحية بنفسه من أجلها ثم آثر البعد القاتل؟؟ هل هو بخير؟ هل يذكرها؟ كم تحتاجه في تلك المحنة العارية من الرحمة..ليته كان قريباً منها يواجه أحزانها معها ويضمّدها لها.

سارت على قدميها وتشقّق كعبهما حتى لاحت لها عربة سائق يمكث في ظلِّ شجرة الصنوبر متلحِّفاً السماء غطاء له..مضت اليه بحذر واطمأنت لشكله القروي البسيط وانطلقت معه نحو الدير..وما هي إلّا دقائق حتّ بدأ يتكلّم إليها برفق وقد لاحظ شرودها وانهماكها في تفكير مؤلم..فمضى يحدّثها وهي لا تلتفت إليه ولكن بغتة، رنّت كلماته في قلبها وهو يخاطبها كمن يخاطب نفسه:

- هل الدير هو الهروب من أرواحنا ام أنّه فعلا منبثق في ذواتنا؟..

ما أعمق فكر هذا الحوذي المسكين فقد بلغ حكمة الحياة من غير معلّم ونطق بما لم تجرؤ هي على النطق به..تابع قائلاً بصوت عميق حنون:

- لي أخت ذهبت مثلك الى الدير وماتت فيه...فقد هربت من حبسها الاوسع الى حبسها الاصغر بعد أن هجرها حبيبها الذي تربّى معها في القرية وخطب ابنة خالتنا وصديقتها الأقرب الى قلبها لأنّها فتاة غنية ورغبت به..قهرتها ذكرياتها فماتت في الدير بصمت .وتزوج حبيبها بابنة خالتنا ولكنّها ماتت وهي تلد طفلته..وهكذا خسر هو الاثنتين وخسرت أنا أختي..لا تؤاخذيني يا ابنتي لم اقصد إيلامك ولكنّ حديث الدير يرجعني إلى ذكريات قديمة عالقة في قلبي مثل الصدأ الجارح..

أعحبت من ثقافته التي لا تناسب عمله فتشجّع وأخبرها بأنه قرأ في كتب المتنبي وابن سينا وأنه ألمّ الماماً خفيفاً عن علم اللاهوت وأناشيد الكنائس القديمة.. شعرت بالمسافة تتقلّص بينهما، وقد أتاحت معرفته وإدراكه له أن يدنو من عتبة الثقافة دنوّاً لا بأس به..حدّثها عن انتشار التوعية الدينية في القرى من خلال جمعية المرسلين الإنجليين التي أسّسها البطريرك يوسف حبيش عام 1840 ثمّ طوّرها الخوري يوحنا الحبيب في غوسطا منذ عام أي سنة 1865.. وتسارعت دقات قلبها وهو يذكر اسم بطرس شاهين أمامها.. كان يعدّه رجلاً قومياً بحتاً وثائراً على الإقطاعيين ومتودّداً "رغماً عنه" أي للمصلحة العامّة للعثمانيين والأوروبيين.. وقد سمّاه بالفأس التي قصمت ظهر نظام القائمقاميتن..فانبثق نظام المتصرفية الذي وعلى حدّ قول الرجل لم يُعرف خيره من شرّه بعد..واعترض على كل من كان ينعت بطرس بقاطع طريق فقد كان الرجل عصامياً ثائراً على الجور والظلم والإقطاع وعصباً محرّكاً للثورة الفلاحية..

- هل سمعت بقصّة عشقه لفتاة في زحلة؟

سألته وهي تسمع خفق قلبها يحتدمُ ويحترق.. فأجابها بعد دقيقة صمت:

- نعم.. كانت تنتمي لأكبر عائلة إقطاعية هناك..آل شاور.. ولكنّ اسم الفتاة بقي مجهولاً.. يُقال بأنّها تزوّجت من بعده.. مسكينٌ كيف يظنّ أنها قد تفكّر بأن تُلطّخ اسم عائلتها الكبير للزواج منه وهو الفلاح البسيط ووالده كان عدوّاً بارزاً لآل شاور ويُقال إنّه مات مسموماً على أيديهم.

احتدمت..ثمّ ارتطمت بحائط الألم ولم تعد ترى جيّداً أمام ناظريها..الماضي يعيد نفسه ويتمثّل حيّاً لها..هل أخطأت أمها مع بطرس كما أخطأت هي مع عابد؟ من يدري ربما...إنّ عمّتها وحدها التي كفّرت عن ذنب لم تقترفه وقتلت نفسها

لخطيئة اتّهموها بها زوراً..أمّا هي فقد ضلّت في عربدة طريق لا نهاية له.. ومن يدري لعلّ أمّها سبقتها إلى ذلك الدرب.

عاد صوت الحوذي يقول محتدّاً:

- بطرس آمن بأنّ العدوّ الأصلي للإنسان في نفسه التوّاقة للسيطرة واستعباد الغير لذلك حارب الإقطاعية قبل أن يحارب العثمانيّين.. فهم يا ابنتي عدوٌّ ظاهرٌ لنا أما النفس فهي العدوّ الخفيّ الذي يتربّص بنا وقد يقضي على المجتمع بكامله..والطغاة نفوسهم عدوّة لهم ولغيرهم بشرّها وظلمها.

كم تعجبها بلاغة هذا الحوذيّ المسكين.. فهو يمتلك علماً غير متواضع اكتسبه من القراءة ومن تجارب الحياة...عرفت منه أنّ اسمه عم جرجس..ويعمل سائساً بين مناطق الجبل وأحياناً في بيروت منذ سنوات طويلة وأصله من مدينة زحلة بل إنّه يمتلك فيها بيتاً صغيراً ورثه عن أبيه يلجأ إليه طلباً للرّاحة من عمله كلّ فترة..لم تشر إليه بأنّها من زحلة أيضاً..لم تكن تحبّ أن يتعرّف إليها أحد.

أوصلها إلى الدير وأخذت منه عهداً بزيارتها والتردّد إليها.. لقد ارتاحت إليه وشغفت بكلامه الطيب وقد فضّ غلاف سرّها بأنّها تهرب من سجن إلى سجن من غير أن تقرّ له بمكنونات صدرها.

ها هي تدخل الدير وتحبو على يد الأخت زلفا بكلّ ندم وتقبّلها بخشوع.. نظرت إليها الأخيرة بلا اهتمام وكأنّها لا تراها.. وقالت بهدوء:

- ميرا.. لم أعرفك في بادئ الأمر..مرّ شهر على خروجك من الدير واعتقدنا بأنّك ذهبت إلى زيارة القدّيس شربل..لكن من غير المعقول أن

تكوني قد مكثتِ شهراً كاملاً هناك..ماذا جرى؟ هل ما زلتِ تتخبّطين بين حياة الطهر وحياة الشر يا ميرا؟؟

صفعتها الأخت زلفا ولأوّل مرّة بكلماتها..الرفض يرتسم في معالمها حيّاً جليّاً وكأنّها حضّرت لها الكلمات قبل عودتها وزخرفتها بسخطها عليها..بأي حجّة تدافع عن نفسها؟ لقد خانتها الكلمات ولم يتبقَّ لها سوى العبرات تذرفها سخيّة نادمة..فهي لا تستطيع أن تقول الحقيقة ولا تقدر أن تكذب في الوقت نفسه..

- أخت زلفا.. أرجوكِ.. تَفَهَّميني..لن أكذب وأقول بأنّي غبت شهراً كاملاً رغماً عني..كان الأمر بكامل إرادتي.. ولكنّي..

قاطعتها بحزم :

- ولكنّي نادمة..هذا ما تريديني أن أسمعه.. أنتِ لا تصلحين لخدمة الربّ في الكنسية يا ميرا.. أنتِ مكانك هناك حيث كنتِ..فارجعي بسلام يا ابنتي حفظكِ الله..

تداعت قواها واحترقت كلّ أوراقها فانسحبت وهي تجهش بالبكاء.. لمحتها راهبات الدير القدامى اللواتي عرفتهنّ طوال الخمس سنوات التي قضتها في الدير فهرعن إليها يحضنّها..وبعد أن علمن بما كان من موقف الأخت زلفا تعهّدن إليها بإقناعها بأن ترجع عن قرارها .. بدأت تجرّ خطاها بعد أن هزمها الحزن حدّ الانكسار المُعلن.. لم تستطع أن تكبت ضعفها أكثر..فتلاشت بين يدي الراهبة ماريا فور دخولها إلى غرفتها.. الصمتُ وجدٌ إن وُجد والعياء رحمة إن سعفَ الروح..ها هي تحرق ممرّات وجعها بالحمى فتلهب رأسها أيّاماً قضتها بين كابوس وآخر تصيح باسم حسن فلا يفقه أحدٌ بالذي تقصده.. وترسم إشارة الصليب وهي راقدةٌ تبكي بحرقة وتشدّ شيئاً إلى صدرها بعنف وكأنّها تضمّ

طفلها.. وتضرب في الهواء بيديها والوهم يجعلها تخالُ بأنّها تضربُ عابداً وتصفعه بعنف..أوشكت الراهبات أن يقتنعن بأنها بلا شك قد فقدت عقلها وتمتمت الراهبات بالدعاء حتى كلّت شفاههنّ وبكين حسرة عليها..

ذات صباح وتحت وطأة الحمى ورغم تصاعد الدماء الحارقة في وجنتيها وعلى جبهتها فتحت عينيها لأوّل مرة وهي تسمع صوت متّى..

رُدّت إليها الروح بغتة.. لقد نادته في كوابيسها فلبّى النداء..تساءلت إن كان حلماً جميلاً يزفّه هدوء ما قبل الموت إليها ولكنّها رأته جالساً قبالتها بلحمه وشحمه ودمعٌ خفيفٌ يغطّي رموشه التي بدت لأول وهلة بأنّها تتراقص تحت وهج عينيه الباكيتين..نادته بصوت فقد الروح فقفز إليها ووضع كفّه على جبينها وطبع عليه قبلةً دافئة..نعم إنّها لا تحلم ومتّى قد حضر وهو يجثو بقلبه عند أطراف رأسها ويتوسّل إلى الربّ أن يشفيها..

- متّى أنت هنا؟..أهذا أنتَ حقاً أم هي صحوة ما قبل الموت؟.

سمعت صوته يقول كأنّه صادر من أعماق الروح:

- شششش..لا تقولي مثل هذا الكلام..أبعد الله الشرّ عن قلبك الغالي..

تنهّدت وتمتمت بين اليقظة والصحو:

- أخذوا مني حسن يا متّى..ابني حسن.. ابننا أنا وعابد..أنا أخطأت وتعثّرت وسأموت كمداً عليه..طردوني ولم يدعوني أراه وأشبع منه..

جفل وجه متّى وتجلّى الذعر في قسماته ولكنّه تماسك وتلفّت حوله ليتأكّد من خلوّ الغرفة..لم يستطع أن يتفوّه بحرف ولكنّه استند بقوة إلى حافّة السرير كي لا

تخور قواه..أحسّ بالحمى التي أصابتها تلفحه بدوره..لم يكن متأكّداً إن كانت تهذي تحت وطأة المرض أو كان كلامها صحيحاً..

- استريحي الآن ولا تفكّري إلا به ..بيسوع..هل تذكرين إيمانك به وحبّك له؟ هل ستدعين الشيطان يهزمك يا ميرا بعد كلّ ما عانيته؟ هل تصرعين الأمل برقادك وهو أقرب إليك من حبل الوريد؟

هدأت من كلماته ولكنّها بكت..وكانت دموعها بداية لتفتّح البراعم الذابلة إذ عادت إليها الحياة لاهثة بعد أن أوشكت على أن تفقدها.. مرّ يومان حتى استعادت وعيها ومتّى يعودها كلّ يوم مصطحباً أمها وجدّتها التي بدأت تبدي ولأوّل مرّة في حياتها ترحيباً خاصّاً به بعد أن ازدرته طويلاً كونه فلاحاً بسيطاً.. بل بلغت بها الرقّة بأن نادته بـِ: "ابني متّى" ذات صباح وهو يمرّ مصطحباً إيّاها لزيارة حفيدتها..وعندما أخبرها متّى بما فعلته جدّتها غرقت في ضحك هستيري..

كانت تتساءل هل تلفّظت باسم حسن وهي راقدة يا ترى؟ هل باحت بالسرّ لأحد غير متّى؟ ولكنّ الوجوه تبدو منشرحة وغير حانقة أو حاسرة فلعلّهم لم يفهموا الكلمات التي تناثرت من لسانها ولعلّهم اعتقدوا بأنها سكرات الحمى والهذيان..أو صحوة ما قبل الموت التي تهدّ الروح وتجعلها تهذي.

سألتها أمّها ذات صباح بعد أن ردّت إليها عافيتها وهي تضحك:

- من هو حسن الصغير؟ من أين أتيتِ بهذا الاسم ؟

تسارعت نبضات قلبها ولكنّها ضحكت معها وهزّت كتفيها بلامبالاة.. أمّا متّى فقد بدا في زياراته لها شارداً مهموماً حزيناً..لقد حمّلته السرّ وكأنّها تضع حملاً ثقيلاً فوق كتفيه..ترى هل تغيّرت نظرته إليها؟ إنّه في قرارة نفسه ما يزال يراها

الفتاة التي تشعّ طهراً..وقد انعكس إحساسه هذا على محياه وفي نظراته الجامحة بالحب التي كان يرمقها بها.. ولكنّه تحسّر على ما وقع لها وللصبيّ الصغير وتوعّد عابداً شرّاً..قالها لها علناً وهو يقبض على الهواء بيديه وكأنه يسدّد لكمة عنيفة له..

- الويل له إن لمحته سأقضي عليه هذا الوغد الحقير..

ردّت بتوسّل وهي تخشى عليه من الأذى:

- لا تلمه يا متّى فأنا أيضاً أخطأت وها أنا أتحمّل فوق طاقتي من العذاب.. الضحية كان حسن..

نظر مليّاً في عينيها وكأنه يسبر سرّهما وقال بهمس حنون:

- ولكنّكِ أحببتِهِ يا ميرا وأنا أعرف أنّ الحبّ يعمي البصر..كان باستطاعته أن يتحمّل مسؤولية ما اقترفه..فهرب كالجبان القذر..اسأليني أنا عن الحب..لقد ذقت لوعته وتحنّط قلبي في ربوعه خاشعاً خافقاً بنبضه..لا يا ميرا لقد اتّخذ من التقاليد حجّة ومن العادات ستاراً يتوارى خلفه..لو رأيته لحطّمت أنفه..أين ضميره هذا الوغد..

نظرت إليه وهي تدرك ما يرمي إليه..إنّه يلمّح عن حبّه لها وكيف تكبّد الويل من أجلها.. خفضت بصرها وقد لاح لها وجهه حزيناً ساهماً.

كم تشفق عليه..هذا الشاب الذي رمى جسده عليها درعاً لها يفتديها به من الموت ولم يأبه بما أُلحق به من والدها من إهانات جعلته أضحوكة القرية. كيف تستطيع أن تكافئه على ما فعله وما زال يفعله من أجلها؟

مضت الأيام حتى برأت تماماً من مرضها وعاد متّى إلى بيروت..كان قد زار زحلة في رحلة توقّع أن تكون خاطفة فلمّا ألمّ برحيلها إلى الدير ومن ثمّ مرضها مكث بقربها إلى أن زال عنها العياء..لقد تغيّر حاله وأصبح تاجراً ميسوراً..قصّ عليها بأنّه بعد ذهابه إلى بيروت مع أمه وإخوته إثر المجزرة في زحلة وإصابته في كتفه وهو يدافع عنها، عقد العزم على أن لا يعود إلى زحلة إلّا وقد تغيّر حاله..ذهب إلى البحر يوماً فرأى الصيّادين منكبّين على شباك صيدهم كالنسّاك في حالة الزهد فاتّعظ منهم وقرّر أن يحفر في الصخر وينجح..وبدأ بالعمل في محلٍّ لبيع القماش يمتلكه تاجرٌ يُدعى برق وتعرّف هناك على تجّار الجملة..وبدأ رويداً رويداً يحلم بأن يمتلك متجراً خاصّاً به .

وكانت أمّه قد جمعت بعض المال من عمله هو وأبيه في أرض والدها..وعندما علمت بما يصبو إليه باعت مصاغها وقدّمت له كلّ ما معها من الليرات العثمانيّة فاشترى قماشاً بسعر زهيد باعه على عربة يد كان يجرّها في سوق الحرير وبين سوق سرسق وساحة الشهداء حتّى نفقت بضاعته لشدّة الطلب عليها، واستمرّ الحال في ازدهار إلى أن تملّك محلّه الخاص وبدأ يبيع القماش على أنواعه، فأعطاه الله من حيث لا يدري..أصبح متّى شابّاً غنيّاً بعد فاقة وذلٍّ وحرمان..فردّ لأمّه مصاغها ومالها واشترى داراً كبيراً وارتدى طربوشاً أحمرَ على رأسه، أثار ضحكها في بادئ الأمر خاصّة بعد أن رمقته جدّتها بنظرة فاحصة طويلة عندما كانت تزروها في الدير وقطبت ما بين عينيها في وجهه باشمئزاز فنكس رأسه وكأنّه رجع ابن الفلاح البسيط الذي يطلب الرضا من أسياده. ولا يجرؤ النظر مباشرة في أحداقهم.

وقد أقنعت الراهبات الأخت زلفا بعد أن برأت هي من مرضها بضرورة بقائها في الدير..وكانت قد أشفقت عليها كثيراً في محنتها وهي تلين أمام القرار

الإجماعي الذي يُتّخذ عادة بينهن.. لأنّ روح الثقة والتعاون والمحبة برأيها هي من صفات الرب ومن جوانب الإنسانية التي يجب أن تقتات منها الأرواح الطاهرة البريئة.

وبعد عودة متّى إلى المدينة أحسّت بغتة بأنّ المكوث في الدير يكاد يخنق أنفاسها..كان متّى قد طلب منها أن تفكّر..هل اعتكاف الحياة في التبتّل هو الحل الأمثل لها أم إنّه الهروب من واقعها المرير وخذلانها فيه إليه..

إلا أنّها رويداً رويداً قرّرت أن تعود إلى حياتها لتحاول أن تنكبّ أكثر على صلواتها..حاولت أن تتمسّكَ بتلابيب الإيمان وتبحر في كتاب الإنجيل لتستشفّ نور الله في روحها..وأن تقرأ أكثر وتتعبّد لوقتٍ أطول..لكنّ البرودة تسري في جسدها ونفسها وتسحب منهما آثار الدفء الربّاني العالق فيهما..

وبغتة لمست من حزنها أطراف ثورة على الله فاشتغل غضبها ولأوّل مرّة في حياتها منه..هل تملّك منها إبليس؟ هل فقدت إيمانها في لحظة جنونية قد تكون عابرة؟ ولكنّها متيقّنة بأنّ روحها التي نذرتها ليسوع تأبى الرجوع وتنتفض لذكر حياتها فيه..لن تكون وحيدة بعد اليوم ستضحك وتصادق الآخرين وتفتح أبواب قلبها للحبّ العابر..ماذا دهاها لتسفك إيمانها على مذبح الرذيلة بين ليلة وضحاها؟ هل سكنها طيف حسن وهو يبتعد متشبّثاً بيد الخادمة فأحسّت بأنّ القدر قد استضحك حزنها وأمات فيها الحياة فثارت على نفسها وما اقترفته بحقّ ذاك الصغير الجميل فقرّرت أن تعاقب نفسها بالكفر؟ وهل الكفر عقابٌ حقّاً أم إنّ العقاب الحقيقي هو الإيمان المفرط الذي لم يسكنها كما سكنته؟

ليعيدوا إليها حسناً الصغير، فترجع ميرا الصغيرة كما ناداها والداها فيما سبق..فلينصفها الله وينصف غيرها من المظلومين في تلك الحياة..هكذا كفرت وفكّرت..

انطلقت تجوب الوديان والسهول وهي تتبختر في مشيتها وتعقص شعرها في انسياب باهر وترسل النظرات الناعسة كلّما التقت عيناها بشاب جميل من القرية..هي الراهبة الهادئة الرصينة التي لطالما كانت نموذجاً يُحتذى به للفتيات وباقي الأخوات تتمايلُ كغصن البان..متعطّشة لكلّ زلّة..

لم يكن جمالها هو سلاحها بل جاذبيتها الطاغية وحضورها الآسر..في البدء كانت تكتفي بنظرات الشبّان التي تحيقها بإعجاب وتشبع غريزتها الأنثوية المتوقّدة..ولكنّها ملّت بعد حين وبدأت تتطلّع للمجازفة الكبرى..حتّى وقع في أسرها رجل غني من تجار بيروت ولكنّ أصله من قرية رشميا وينتمي إلى عائلة إقطاعية أصيلة النسب تكاد تماثل هيبة عائلتها..وكان قصر أهله مجاوراً للدير ويزور القرية كلّما سنحت ظروفه..

اسمه غسّان وهو وسيمٌ وجذّاب..كما أنّه محطّ أنظار الكثير من الفتيات كونه مؤهّلاً ليكون عريساً رائعاً فيه كلّ المزايا الحسنة من حسب ونسب ومال وجمال..ولمحها لأولّ مرّة وهي تجوب الحقول المجاورة للدير وقد ارتدت ثوب الراهبة وبدت فيه مشعّة كانعكاس الضوء في عيون السماء..ثمّ وجدها تعرض عنه وتنبذ اهتمامه فزاد شغفاً بها وبدأ يلاحقها في كلّ مكان ترتاده حتى شاع خبر تعلّقه بها في القرية وأصبحت مثاراً لحسد الكثيرات ممن رغبن فيه وهي الراهبة الناسكة فلاكت الألسنة سيرتها ورماها الكثيرون بالأباطيل..

إنّه يناديها بـ "آنسة ميرا" مما يثير الرغبة في الضحك في سريرتها..فهو لا يعلم بأنّها ودّعت العذرية من زمن طويل وأنّها أصبحت أمّاً لطفل مسكين ألقى به القدر في أغماد النكران والجحود من أبويه.

رأت في يوم طغى فيه الحنين إلى ابنها أن تنتقم من نفسها و توافق على اصطحاب غسان لها في نزهة في الحقول المجاورة.. لم تأبه بما ستثيره من أقاويل وظنون عندما يراهما أهل القرية سويّاً..

ورأى غسان منها استسلاماً وطراوة غير متوقّعة في الكلام فدبّ فيه الطمع واستبدّت به الشهوة وتعمّد أن يختلي بها في جلٍّ بعيد عن العيون..تهدّجت أنفاسه وهو يقترب منها ليعانقها في لهفة ولم تحاول أن تقاومه كثيراً فقد كانت تنتقم من نفسها وتذلّها بهذا الاستسلام المبتذل..وتمنّت في أعماقها أن يحتقرها الرجل وينعتها بأبشع الصفات لا بل أن يصفعها لينتقم لها من نفسها..

وما هي إلّا ساعة حتى أسلمت له نفسها..بهذه السرعة وبكلّ هذا الكمّ من الرخص! كان هناك صوت دفين في قعر روحها يقهقه عالياً ويثبت خطاها على اقتراف الرذيلة وكأنها تنتقم من عابد وتثأر من خطيئتها بخطيئة أخرى ومن فظاعتها كأمّ بمنكر يجرّها للهاوية. تداوي نفسها بالداء نفسه..

أين ميرا الراهبة التي نذرت الروح للربّ والتوبة المخلصة؟ ها هي تتمايل كغصن البان الطري في عاصفة الرذائل العاتية..تترك الرجل يعرّيها من ثوب الراهبة الطاهر ويعبث بنهديها ويقبّل كلّ نقطة من جسمها بفم ولهان شرس وأنفاسه تغمرها كأنّها تخنقها بلهاثها..ثمّ يغرق في لذّته وهو يسمع تنهّداتها فيتسارع لهاثه ولا يجرؤ أن يخترق الأسوار المنيعة لاعتقاده بأنها لم تُقتحم بعد.. وتركته على اعتقاده لا رغبة منها في أن تؤكّد له بأنها عذراء ولكنّها خافت أن

تتكرّر الفاجعة وتصبح حاملاً بجنين الزنا مرة أخرى..فلم ينلْ منها الكثير ولكنّه كان كافياً ليفقدها احترامها لنفسها.

ها هي تتلوّث بالطين وتهب نفسها للشيطان يسفك طهرها بغرائزها ويثبت رغباتها العميقة التي كبتتها طويلاً..إنّ رغبة غسّان اللامحدودة بها تمنحها إحساساً بالتملك والسيطرة فتذلّه بجسدها وتهيمن على حواسّه فيصبح خادماً لها.. ما عليها إلّا أن تطلب وهو ينفّذ بلا أدنى تفكير..

لقد فجّر مكامن الضعف في أنوثتها وجعلها تتلوّى معه في أنّات متّصلة كرقصة بديعة فيها تجويف أخرس ولكنّها حارّة وممتعة.

هي تهبه جسدها بلا حب وبلا إحساس ولكنّها تعطيه إياه بمحض إرادتها وبلذّة لا تفوقها لذّة.. بل إنّ نشوتها تصل إلى ذروتها أكثر من رعشتها مع عابد الذي عشقته..وربّما كانت وشوشة إبليس هي من تزيّن لها تلك الملذّات التي تعربد بها.

لم يبتعد عنها كما تصوّرت ولم يظنّها رخيصة بل ازداد التصاقاً بها وتعلّقاً حتّى إنّه ركع على قدميه متوسّلاً إليها بأن تترك الدير وتقبله زوجاً لها..وبالطبع ضجّت القرية بأمر علاقتهما وهم يرونهما يتجوّلان كلّ يوم سويّاً فبلغ الأمر مسامع الأخت زلفا فاستدعتها ساخطة ترتعد من الغضب..

- لقد تجاوزتِ كلّ المحظورات أخت ميرا..أنتِ تشوهّين بتصرّفاتك الرعناء صورة الدير..فإن كنتِ تتشوّقين لمغامرات الشباب فالباب مفتوح على مصراعيه لكِ للخروج منه إلى الحياة التي ترتضينها ولكن أن تتصرّفي على هواكِ فهذا أمرٌ محظور..

تجمّدت في مكانها وأجابت بضعف:

- ما قصدتُ الإساءة إلى الدير وغسّان هو محض صديق أستميحكِ عذراً أختاه..أرجوكِ..

ردّت الأخت زلفا وهي تبتلع ريقها بصعوبة:

- إذن اقطعي علاقتكِ به فوراً حتى تنقطع الألسنة عن الثرثرة وإلا هلكتِ وأهلكتِ سمعتنا معكِ.

لم يعد بمقدورها أن تقاوم الجميع وأن تردّ جسدها عن الخطيئة التي تنغمس فيها.. لقد زلّت مرة أخرى بمحض إرادتها وتعلّقت كالضباب الماثل لعينيها بين السماء والأرض..لا مكان للملائكة في عالمها الممتقع بغصّات الشهوة وبخترة الشياطين الدميمة..الشائعات تحاصرها هنا وألسنة القرويات وذكرياتها مع عابد التي تعرّيها كلما وقفت مع مرآة ذاتها...لقد ضاعت بين نشوتها وايمانها..أحبّت عابداً بروحها ففقدت نفسها وطفلها ورغبت بغسان بجسدها فضاعت في طاغوت أسود ولم يبق لها من نفسها سوى الحسرات.. فها هي ضائعة تقاوم اللاشيء لتبحث أيضاً عن اللاشيء..وأين المفرّ وإلى أين تهرب؟

ماذا تريد؟ هي كبلدها الثائر الجريح يحجب نظره عن الدول الأوروبية ليقاوم المحتلّ العثماني وإن انتصر عليه ورفع بصره لها يندى جبينه من طغيانها ومطامعها فيه.. يجب أن تكفّ عن الانتقام من نفسها عن طريق جسدها وتبكي شوقها إلى حسن بصمت..كأنشودة خفيّة ترتل موسيقاها بإحساس ولكن بلا حسٍّ يُسمع..وتكتمُ الألحان حتّى لا يتسرّب حنينها إلى الكون بأسره..

بدأت تغسل آثامها بدموعها وتحاول أن تنسى ما اقترفته مع عابد ومع غسّان..لقد تضاعفت خطيئتها، فتضاعف كربها وتشعّب همّها فصلّت:

"يا يسوع لقد وهبتُ جسدي مرّتين..مرّة للإنسان الذي هوت روحي إلى قاع روحه فاحتضنتها في عشق أبدي ولكنّه غدر وندمت..ومرّة لإنسان لم يخفق له قلبي ولكنّي اتّبعتُ إغراء الشهوات والنزوة العابرة فتعلّق هو وسقطت..لستُ أطمعُ في غفرانك لأنّ ذنبي عظيم ولكنّي أطمعُ في قبول توبتي حتّى لا تزل قدمي مرة أخرى..رحماك يا يسوع ارأف بي وبابني حسن".

لم يعد لها من ونيس إلا الطيور القابعة على رأس التلّة تهاجر في أيلول وتعود عندما يحلّ فصل الربيع..ويسمّونها طيور الرحيل والهجرة..

تمنّت أن تكون مثلها لها أجنحتها التي تخلق لها حريّتها وتنقلها من عالم إلى آخر بسلاسة وعذوبة..وتنسى كلّ جروحها الغائرة في صلب شراييها.

إنّ الإنسان رغم ذكائه لم يقدر أن يقلّد العصافير في تحليقهم الجميل بعيداً في الفضاء بل اعتمد على بصره ليرقبها ويتحسّر على قدرتها الخارقة التي لا يملكها هو..ولهذا فهو ضعيف أمام قوّة محض طيرٍ صغيرٍ بائس..

تراءت لها عمّتها سعدى تحدّق بها في كمد وغم..لهثت أنفاسها وخطت نحو التلّ الشاهق الذي يبعد مسافة غير قليلة عن الدير..رأت طائر السنونو يحلّق عالياً والهواء يتلاطم بقسوة وكأنّه يحرّضها أن تقفز..وصوت من أعماقها يهمس لها: "هيّا تشجّعي وأنهي مأساتك يا ميرا هيّا..كوني شجاعة كعمّتك ومقدامة كفارس لا يهاب الموت..ستبرئين بالموت وتكفّرين عن الدنس الذي ألحقته بنفسك وبالآخرين..هل تستحقّ نفسك الحياة بعد أن غرقتْ في أتون الخطيئة؟ أنتِ الراهبة المجلّلة بالعظمة التي يجب أن تكون قدوة للفتيات ورادعاً لهنّ عن نزواتهن؟؟..لقد قسوتِ على جسدكِ بأن سلّمته للخطيئة وجرحتِ متّى الذي افتداكِ بنفسه وظلمتِ حسناً الصغير وضيّعتِ جسدكِ في نزوة أخرى مع رجل يعيش

قرب الدير الذي تتعبّدين فيه..يا لكِ من كافرة جاحدة ..إنّ مثلك لا تستحقُّ العيش يا ميرا بل تُرجم بالظلام الأبدي..هيّا اسحقي جسدكِ واهوي في ذاك الوادي العميق ودعي الغربان تأكل جسدك الخاطئ علّ الله يغفر جزءاً من خطيئتك الكبرى..كوني شجاعة ليوم واحد في حياتك ..هيّا..هيّا".

عانقها الصوت حتى التحم بها فخطت ببطء وقد تلاشت قواها وتخدّر إحساسها وخفق قلبها باستسلام..مدّت ذراعيها إلى الأمام وكأنّها لا ترى إلا رذيلتها، ولا تسمع إلا هذا الهاتف الذي يئنّ في داخلها..تقدّمت قليلاً، وفي لمح البصر تجلّى لها طيفُ امرأة على شكل ملاك تبتسم وتدفعها إلى الخلف، حتى سقطت على الأرض بقوّة وارتطم رأسها بصخرة ملساء، ورغم هذا لم تصب بأي أذى..مرّت ساعة وهي ملقيّة مبعثرة على الأرض تكاد تكون غائبة وحاضرة في الوقت نفسه، حتى دهمها الغروب وهي لا تدري إن كانت تقدر أن تحرّك جسدها أم إنّ الوثبة الخلفية قد شلّتها..وببطء بدأت تحرّك قدميها ويديها..إنّها سليمة معافاة..هذه معجزة سقطت عليها وهي الخاطئة المذنبة..ومن هي تلك الملاك التي تراءت لها عندما كانت غافلة عن الزمان والمكان ودفعتها إلى الخلف كي تردّ عنها كيد إبليس؟ هل هي مريم العذراء أم رسولة من عندها لتنقذها من خطيئة أكبر من كل خطاياها؟ لملمت نفسها وسارت ببطء نحو الدير وهي تشعر بدوار كبير..ومشت تتلفّت حولها في جزع وحيرة..وقد كبّلت الصدمة حواسّها جميعاً..

انقطعت صلتها عن العالم الخارجي واعتقدت بأنّها وجدت السكينة أخيراً بين أحضان الله والطبيعة..عقدت العزم على أن تهب نفسها لآلام الغير فكانت تحاول أن تساعد المرضى الذين يتوافدون إلى الكنيسة يطلبون الشفاء بالدعاء وتخفّف عنهم آلامهم بالحديث عن يسوع ومعجزاته..ووثق بها أهل القرية وتناسوا قصّتها مع غسان واعتبروها ملاكاً فائضاً بالحنان بصوت عذب يمنحها الرقي والجلال ويمنحهم هم روعة الامتثال لها في حضورها..وبقي الكلام الذي قيل عنها محض أقاويل لا يدري أحد صدقها من كذبها فدَحَضَتها هي بما صدر عنها من خلق سليم وروح سامية طاهرة.. ولكنّ ضميرها لم يكن يدعها ترتاح أبداً..

الأيام تمرّ والقلب يشحب كالمساءات الهاربة..البلاد تمرّ بحالة ما قبل الهزيع الأخير..تتلوّى وجعاً ببطء وتحتضر ببطء أكثر.. سيخفق التاريخ في عكس الإنسانية التي أُهرقت بين أنياب العثمانيين وأطماع الأوروبيين. وسينزف البلد حتى الرمق الأخير ثم يسجّل التاريخُ احتضاره على أنّه نصر وآلامه على أنها دموع فرحة تسيل..وبعض المؤرخين سينحازون للمذابح التي تعرّض لها المسيحيّون والبعض الآخر سيندّد بالظلم الذي لحق بالدروز الذين هم الأقليّة وبالتّالي حسب زعمهم فهم "المظلومون"...لكنّ الحقيقة هي أنّ الاثنين ضحيتان للسادة الأجانب والآستانة الجائرة..ليتها هي ميرا شاور تدوّن التاريخ كما عايشته ليسطع مرآة حرّة لظلال هذا العهد المرهق من إنسانة بسيطة ترفض التحيّز وتصغي فقط لأصوات الأبرياء من عامة الشعب..

بطرس لم يحارب طائفة على حساب أخرى..بل حارب الجور الذي تقدح به عيون الإقطاعيّين ودافع عن الخيبة والذلِّ والقهر وهم ينسابون مطراً في عيون المساكين الفقراء..لو استطاعت أن تكتب التاريخ لكتبت معه حكايتها مع عابد لتكون حافزاً لنبذ قوانين الدين وتشريع الحبِّ المستحيل .بطرس وعابد ومتّى

وعمّتها سعدى وميّاسة الّتي عرفتها لاحقاً حكايات تتكرّر كل يوم تنشد الثورة على الإقطاعيّة والدين والتقاليد وثقافة القمع للنساء..هذا هو التاريخ الحقيقي من جوانبه السياسية وحتى الإنسانيّة..

وقد سمعت عن امرأة تركيّة وهي زوجة أحد القادة العثمانيّين أتت لتشيّد قصراً في بحمدون وقد خالت أنّ الأذرع ستتسابق لتلقّفها بالترحاب والتهليل طمعاً في رضاها ومالها، خاصة وأنّ العثمانيّين حلفاء الدروز. فهالها الجمود القاتل الذي وجدته من أهل القرية فكأنّهم بنوا سوراً حادّاً عالياً فيما بينهم وبينها ولم تجد ونيساً لها هناك بل بلغ الأمر ذات يوم بأن تحدّتها إحدى الخادمات التي تعمل لديها عندما قست غليها وقالت لها: "إنّ المال الذي تدفعينه لي هو المال الذي سرقتموه من عرق الفلّاحين وبالتّالي هو مالهم هم وليس مالكم" فجنّت المرأة واستشاطت حنقاً ولم ترض أن تمكث أكثر في قرية توحّدت فيها القلوب على الجرح المنبثق من اختلاجات الأرض التي أرهقها تعب فلّاحيها وظلمهم..ورحلت إلى بلادها إلى غير رجعة وأراحت واستراحت..

هنا تكمن الثورة في باطن هذه الارض..تتربّص كالزلزال ينذر بالوعيد ويقدح بالشرور ويمهّد لطوفان الموت... من قال إنّ الربّ لا يسمع نداءات الّذين ابتلوا بنكسة الاستعمار وذاقوا لسعة سياطه وأهوال رَحاه؟ في نبض الوقت تزرع القلوب المتأجّجة بالحرقة بذور التحدّي وخمائل الكرامة.

وهي.. ميرا شاور الّتي رأت مذبحة زحلة وهدير دمائها وزخّات قروحها وألمّت بسرّ أمّها وحكاية عشقها لبطرس قائد الثورة القمحي البشرة التي تسرّب جلدها من لون القمح الذي يفترش التراب وأحبّت درزيّاً وأنجبت طفلاً مسلماً ستكتب التاريخ كما رأته وعايشته..وستعترف أمام الله قبل الناس بأنها أخطأت وندمت

وتابت وأهرقت الدمع على مذبح الصمت..وستصرخ بأعلى صوتها بأنّ الدين واحد بين الجميع ولا تفرقة بين دين وآخر إلّا بالنيّات..

والساعات تمضي ساكنة هادئة..قد تشغلها فيها قصص بعض القرويّات اللّواتي يقصدنها عازفات عن الدنيا ومآثرها ليغلبنَ قصّة حبٍّ بالزهد والتصوّف..فتحسّ بأن عليها واجب اتجاهنّ في وعظهنّ وترميم أحزانهنّ بضمادات الصبر والأمل التي تعكسها مرآة التأمل..وكم نجحت ولم تخفق إلّا مرّة واحدة مع فتاة تدعى ميّاسة..تلك الفتاة التي حفرت في ذاكرتها بصمة قهر لا تُنسى..

لم تكن ميّاسة فتاة عادية..فهي لا تشبه غيرها من الفتيات العاديات اللواتي رحلن من حياة الآخرين دون أثر يُذكر...بل كانت من اللواتي يتركن أثراً يرسخ في قعر الفؤاد..تمشي كلّ صباح في نزهة صباحية مع كلبها الأبيض الصغير في دلال وتيه على ضفاف النهر ثم تعرج على نواحي الدير لتلقي السلام على من تصادفه من الراهبات..وقد تعلّق نظرها بها عندما رأتها لأوّل مرة تُصلّي صامتة في حديقة الدير وكأنّها تشبّثت بدائرة صغيرة من النور قد تعيد إليها الحياة.. وكانت كلّ تقاطيع جسدها تبتسم وليس فقط شفتاها وعيناها...

وقد تعمّقت صداقتهما حتّى التصقت بها الفتاة التصاقاً يصعب الخلاص منه وكأنّها تخاف أن تتركها أو أنّها تجد الأمان بقربها.

مضت سنة على معرفتهما وأتتها يوماً الى الدير محتدّة قائلة:

- الأخت ميرا لماذا لا تسنّ الكنيسة شريعة التساوي بين الرجل والمرأة؟..إنّ الربّ لم يميّز الرجل عن المرأة في شيء إلا في الإيمان.. فلماذا نرى الرجل في مجتمعنا مسيطراً ظالماً؟..

ضحكت لتفكيرها الذي يسبق عمرها وعصرها..لم يسبق لها أن سمعت بمثل هذا الطلب من قبل..كانت الفتاة كرونقِ الزّهر دائمة الاخضرار والربيع يشعّ من عينيها الزرقاوين..لقد بعثت السلوى لوحدتها الطويلة الحالكة وقرّبتها إليها بمحبّة فاقت محبّتها لصديقتها الوحيدة راجحة والتي لم تعد تراها منذ تزوّجت ورحلت عن زحلة وانقطعت أخبارها تماماً..

أجابتها وهي تغالب ضحكة كادت أن تفلت منها:

- هذه مسألة تستحقّ البحث فعلاً..ولكنّ المجتمع يا ميّاسة هو من سنّ تلك التقاليد وليس الدين..الله لم يفضّل الذكر على الأنثى..والمسيح كان فتى وُلد من مريم العذراء-السلام لاسمها- وهذا يدلّ على قدسيّة المرأة عند الرب..مسألة المعادلة في الشرق صعبة تخضع للتقاليد القديمة المتوارثة ولكنّها في الغرب أكثر ليونة وشيوعاً..

سكتت ميّاسة كأنّها تفكّر ثم سألت:

- ولكن..إنّ أبي يذهب إلى الكنيسة ويؤمن بالرب ومع هذا فهو يثور لأتفه سبب ويضربني ضرباً مبرحاً يجعل كلبي الصغير هذا ينتحب تاثراً.

شعرت بغصّة تختنق في حلقها وهي تحتضن جرح الفتاة بعينيها وفرّت منها دمعة مسحتها بسرعة وعانقت الفتاة بحنان كبير كأنّها تعانق ابنها حسن..كانت الفتاة تعاني من بطش أبيها المدمن على الخمر، إذ تراه يصول ويجول مستبدّاً..مرّة يضرب أمها ومرّة يضربها هي..وبلغت به الوقاحة أن اتّخذ خليلة له من القرية ولم يحفل بشعور زوجته ولا بنظرات أهل القرية له..وفي ليلة بلغ به السكر أشدّه أحضرها إلى المنزل واشتبك مع أمها التي جنّت عندما رأت المرأة بالأيدي وهربت هي إلى دار جيرانهم.

حاولت أن تلج إلى سرّها دون أن تمسّ جرحها بعد أن تيقّنت بأنّ الفتاة ضحيّة أبيها فدنت منها بحذر..وارتاحت ميّاسة إليها وأخبرتها عن حبيبها الشاب الغني الذي وعدها أن يخطفها بعيداً عن أهلها والقرية..حذّرتها وتوسّلت إليها أن لا تصدّقه..إنّها تعرف هذا الصنف من الوحوش الذي يرمي شباكه ليصطاد ضحيّته التي يلفّها الضعف اتجاه الحنان فيسحبها ليأكلها ويرميها..أوصتها بالصبر والتأنّي وصوّرت لها الغد جميلاً قد ينطوي على رونق حلمٍ يتحقّق مع إنسان يقتحم باب دارها ليطلب يدها بصوت ثابت عالٍ لا غبار عليه ولا يحتاج إلى الهروب معها ما دام واثقاً من نفسه ومن حبّه لها..

ويبدو أن الفتاة لم تصغِ إليها رغم محاولاتها الدائمة لتوعيتها وإقناعها..ربّما لأنّ الوهم كان أرحم من حقيقة والدها الثمل بخمر ظلمه وكؤوسه التي لا تنضب..وربّما لأنّها لم تجد في أمّها الصدر المتفهّم الحنون لأنّ همومها فاضت بها من زوج مخمور ظالم..فضجّت القرية يوماً بفضيحة هروبها ولطمت أمّها خدّيها وكبت الأب قهراً مدويّاً وبات صامتاً لا يشرب ولا يخرج من داره إلّا للأمور الضروريّة ولا يكلّم أحداً..وباتت الحكاية لقمة سائغة في أفواه أهل القرية يتداولونها فيما بينهم بهمس واحتقار..لم يسبق أن شهدت رشميّا مثل هذه القصص من قبل إلّا على يد ميّاسة..فاعتبرها الجميع الفتاة الضالّة المخطئة..لم ينظر أحدٌ إليها على أنّها الضحيّة لأبٍ سكّير وأمٍّ لم تعرف كيف تنصت..

ولم يمهلها القدر كثيراً فقد تخلّى عنها الشاب بعد أن حصل على مأربه منها وتركها في قرية نائية تجرّ أذيال الخيبة والندم..وعادت إلى رشميّا بعد أن تجرّعت حمم اليأس وشارفت على الموت جوعاً وليتها لم تعد..

لن تنسى نداء أم ميّاسة عندما أتت إليها في الدير تصرخ بصوت كهدير الرعد وتوسّلت لها بأن تأتي معها قبل أن ينفّذ زوجها وعيده ويقتل الفتاة..

كانت تركض ودقّات قلبها تخترق سكون الطبيعة التي تأهّبت لتودّع الفتاة المرحة التي طالبت بأن تسنّ الكنيسة شريعة جديدة لحقوق الفتيات..فإذ بها تُذبح على عتبة دارها من دون رقيب ولا حسيب...رأتها تُسحل قبل أن تُذبح وعندما وصلت هي وأمّها إليها كانت قد غرّدت بعيداً في ملكوت السماء حيث لا ظلم ولا حزن ولا قلق..لم تشهد أنفاسها الأخيرة ولكنّها تخيّلت مدى الآلام التي عانتها..

رأت دماءها تنهمر من نحرها متدفّقة ثائرة..دماء لم تُخلق لفتاة كان حلمها الزواج بل لفتاة كان جلّ مرادها الحرية واعتقدت بأنّها وجدت حرّيّتها في الهروب.

هلّل أبوها فرحاً رافعاً رأسه مختالاً بشرفه الذي أرجعه بالسكّين التي تلوّثت بدماء ابنته..وبكت أمّها حتّى أغمي عليها..شهقت بعد أن اقتربت من جثّتها والدمع يحرق خدّيها..صرخت فيه من الأعماق صرخة مدوية ردّدتها أصداء الوديان واختزنتها الهضاب العالية لتلفح بها ظهر الشمس:

- لماذا؟ هي لم تفعل شيئاً...هي هربت منك..منك أنت..

لم يرد الأب فقد كان مزهوّاً بما فعله يرسم على شفتيه ابتسامة نصر سعيدة..فوقفت أمامه تلطمه بقبضة يدها اليمنى وقد شعرت بأنّها تفقد أعصابها..دفعها عنه بقوّة حتّى وقعت على الأرض وارتطم رأسها بقدم ميّاسة فقبّلتها وهي تذرف الدمع وتنتحب مفجوعة..

استباح الأب دم ابنته بعد أن نكست رأسه في الأرض أمام أهل قريته واعتقد بأنّ الشرف لا يعود إلّا بالدماء..أودع هو السجن وفقدت الأم عقلها ورحلت بعد أيام

على الحادث المشؤوم وقد أوصت بعض أقاربها بدفنها قرب ابنتها..أمّا الرجل الذي غرّر بها فلم يجرؤ أحدٌ على محاسبته واستباح الناس كلّ ما فعل بما أنّه رجل ولا غبار على شرف الرجل في نظر مجتمعنا الشرقي.

بقي طيف ميّاسة يرنّ وسط الشجن العارم لحناً خالداً يعودها في صلاتها..ترى هل كان هذا مصيرها لو ألمّ والداها بعارها؟ هل كان الذبح والسحل من نصيبها كما كانا من نصيب ميّاسة شهيدة الظلم والبطش والاستهتار الأحمق؟ ولم لا؟ لقد كاد أعمام أبيها يبطشون بعمّتها لشكّهم فيها ولكنّها فضّلت الانتحار على أن تُذبح كالشاه على أيديهم..فلا بدّ من أنّها كانت ستلقى المصير نفسه.

العثمانيون هدروا شرف الوطن بأن جعلوا بعضاً من أبنائه يبيعونه بثمن بخس ويساومون حبّهم له بالآلاف من الليرات العثمانية الرنّانة.. والعرب سبوا انسانيتهم بأن قايضوا شرف بناتهم بالدماء ظنّاً منهم بأنّهم بسفك الدماء يرجعون كرامتهم ويرجع إليهم شرفهم..

ولكن ما هو الشرف؟ هل هو نقاط الدم التي تسيل من العذراء فتحيلها امرأة كاملة أم هو شرف الإنسانية بخيرها وشرّها واحتدامها المثير بالعالم الخارجي؟ إنّ الرجل الشرقي لا يعير التفاتاً لتلك النفس التي تتخبّط بالاهتزازات المحيقة بها فوحده الجسد الذي يثيره أو يسمّره أو يجعله مجرماً قاتلاً..وقد أحسّت ميّاسة بهذا فطالبت بأن تُسنّ شريعة تحمي حقوق المرأة من الهدر والقتل ولم يصغِ إليها أحد حتّى هي قابلت طلبها باستخفاف..

وقد سمعت عن الليدي هستر ستانهوب البريطانية التي جالت في العالم العربي وكان لها فتوحات استشراقية بمخاطر هائلة وكان ثباتها دليلاً على أنّ المرأة تضاهي الرجل قوّة وحزماً وشجاعة..ولم يكن عشيقها من خدعها بل هي من

طلبت منه أن يعود إلى بلاده بطلب من أبيه..لم يُهدر دمها بسبب عشقها ولم تُسحل..لأنّ الغربيّ يفكّر بإنسانيته لا بفحولته..

وقد استقرّت في قرية جون في لبنان عند تلّة ضهر الست وفي دار كان الناس يدعونه بـ "دار الست" وماتت فيه..وأثنى الأمير بشير الثاني بنفسه على اعتدادها بنفسها وشرفها المصان..رغم أنّها أحبّت ووهبت نفسها لعشيقها بلا أي حسيب أو رقيب..وتعدّدت الروايات عن عشّاقها المُحتملين..

الفرق بين الليدي هستر وميّاسة هو الفرق بين الإنسانيّة والجسد..الغرب فكّر بإنسانيّة الأولى والشرق فكّر بجسد الثانية المسكينة..

غداً تهمس القرويات لبعضهنّ بعضاً: "فتاة ضالّة زانية لن يسع خطيئتها القبر فلتذهب إلى الجحيم وبئس المصير لها ولمثيلاتها"..سيرشقنها بألسنتهنّ أكثر ممّا فعل خنجر أبيها وستموت ميّاسة مرّتين..بينما يضجّ العالم وتحفل الكتب بمآثر الليدي هستر وقدرتها على السيطرة على عقول العرب بحزمها وشجاعتها..إنّه أمرٌ مضحكٌ مبكٍ..

لم يرث لمقتلها أحدٌ كما توقّعت..الناس يعطون العذر للقاتل ويرجمون الفتاة في قبرها.. "لهذا الأمر ضحّيتُ بك يا حبيبي حسن"..همست في سرّها وروحها تُسلب من جسمها الصغير وهي تحرقُ نفائث الصبر بأنّات أمٍّ لم يتبقّ لها إلّا الذكرى...

هكذا رحلت ميّاسة منبوذة وحيدة ولكنّها لم تنسها..فقد واظبت على زيارة قبرها كلّ صباح لتضع عليه وردة بيضاء تقطفها من المرج المجاور للدير..وتصلّي لها في وفاء وحب ولا تأبه لنظرات القرويّين الذين يمرّون بها فيحدجونها بنظرات

قاسية وكأنّها تقترف جريمة لا تُغتفر..وكأنّهم يقولون لها بنظراتهم: "أنتِ راهبة تزورين قبر خاطئة"..فتجيبهم بنظراتها: "وهل أنتم ملائكة"؟

إنّها تطبّق أقوال المسيح بحذافيرها "من منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"..وهي نفسها قد فاقت بحجم خطيئتها خطيئة ميّاسة..فكيف تحاسبها قبل أن تحاسب نفسها؟..الراهبات أنفسهنّ استغربْنَ منها تعاطفها مع الفتاة المقتولة وكأنّها تعطف على إبليس نفسه فهل نسين تعاليم المسيح وكلماته؟ وهل يستطيع الإنسان أن يظلم أخاه الإنسان لمجرّد خطيئة ارتكبها سهواً أو رغماً عنه؟

ها قد تُوّجت ميّاسة ملكة للشهادة المثالية..لقد ذبحت شهيدة التخلّف والبدائية.. ضحية الشرف الشرقي الأحمق الذي يلوح للمسلمين كأنّه القبلة وللمسيحيّين بأنّه دار أورشليم..ولليهود بأنّه جبل موسى..ولكنّها موقنة بأنّ الشرف بعين الله هو محبّة الإنسان لأخيه الإنسان وعدم إيذائه وتعنيفه.

ما زالت ضحكات الفتاة ترنّ وسط الحقول يبثّها حفيف الأشجار الذي انتحب عليها وفُجع أكثر من قلوب البشر..وقد شعرت مراراً بأنّ يداً تلمس ظهرها بخفّة تماماً كما كانت تفعل وعندما تلتفت لا تجد أحداً..

حتّى صدى صوتها كانت تضجّ به الوديان وكأنّها ادّخرته لعمرٍ آت..فتخلد ذكراها التي حتماً ستتكرّر إلى أن يفنى الكون لأنّ الشرف هو جلّ ما يهتمّ به العرب ويتركون شرف وطنيتهم يُهدر بثمن بخس إلى أن يأتي رجال يبذلون الشهادة بسخاء على عتبة الأوطان فينشلونه من حضيض ما فعل إخوانهم.

كلب ميّاسة الصغير انتظرها مراراً على باب دارها الصغير المغلق حتّى طرده الجيران فذهب إلى قبرها ومكث فوقه بكآبة وأسى..

رأته فأشفقت عليه واقتادته إلى عائلة تتردّد على الكنيسة وتوسّلت إليهم أن يعتنوا به..ولكنّه ظلّ يهرب من منزل العائلة التي تكفّلت بتربيته ويهرع إلى قبرها في شوقٍ مكتوم.. "عجباً، كم من قلوب بشرية متحجّرة وكم من قلوب لحيوانات تذوب شوقاً وإخلاصاً لأصحابها...فليتمجّد الرب في السماء"..خاطبت نفسها وهي ترسم إشارة الصليب على وجهها وتشعر بأنّ صلواتها أعمق من كلّ ذكرياتها وأكثر متانة من ماضيها..فلتغرف من روح الله حتّى تتطهّر نفسها قبل جسدها لأنّ الجسد فانٍ...نعم.. لا بدّ أنّه فان!..

الفصل السابع

وجاءها عابد يوماً..كان قد مرّ على رجوعها إلى الدير خمس سنوات أخرى.. لاح لها من بعيد وهي تسقي الزهور في حديقة الدير كتمثال من الصمت لا حول له ولا قوة...نحيل طويل مذبذب الخطى.. لم تتعرّف إليه إلا بعد أن اقترب منها ونظر في عينيها..حدّقت بعينيه اللتين لا تخطئهما مهما تبدّلت ملامح صاحبهما..ربّما لأنّهما قد غُرستا في داخلها..

كان يبدو كأنّه قد شارف على الخمسين مع أنّه ما زال شاباً في مقتبل العمر..حفر الهمّ حول فمه بصماته وزوّده بتجاعيد متباينة الحجم وبظلال سوداء تحت عينيه لم ينجح الشباب بأن يخفيها..

- "ماذا تريد؟...لماذا أتيت؟"

هدرت في وجهه وهي تغالب رغبة دفينة في نفسها بأن تلطمه وتتشبّث بعنقه وتنشب أظافرها فيها بلا رحمة.. وتنتزع روحه كما انتزع روحها.. هل تكرهه؟ هل ما زالت تحبه؟ لا..إنّها تحبُّ عابد القديم فقط وتكره ما آل إليه من قسوة ولامبالاة...حدّق بوجهها والوهن يكاد يشطره إلى نصفين قائلاً وعيناه خانعتان تنظران إلى الأسفل لأنّه يخجل أن يواجهها:

- ميرا.. لقد عاقبني الله ولم أرزق بأطفال وطلّقت زوجتي شهب بعد وفاة والدي.. وعانت أمي مرضاً خطيراً لم يفلح أيّ طبيب في شفائها منه حتّى توفيّت منذ شهر تقريباً..وإخوتي تنازعوا في إرث أبي وتخاصموا وأخذتُ أخيراً ميراثي ووسّعت تجارتي ولكنّي لم أستطع أن أنسى ابني...إنّي أتعذّب كلّ يوم يا ميرا..ذهبت إلى أبي حسن ولكنّه رفض أن يعيد إليّ ابني..بل طردني شرّ طردة..

أجهش ببكاء مرير وأطرقت برأسها تكبت دمعاً وثب من مقلتيها.. الله وحده يعلم كم تتألم بشهقات الحسرة التي لا نهاية لها...في الكرى المتهدّل لأشعة الشمس الذاوية نصيب لها من الألم هي الأم الثكلى التي لم تصب من ولدها إلا التفاتة ولهٍ لم تدم..ليتها تركت أمَّ حسن تفتعل فضيحة ويأخذونها إلى السجن..ليتها تشبّثت بأذيال كمِّه وشدّته اليها وخطفته ورحلت بعيداً ..ها هي مهجورة من حبيبها مجهولة لطفلها وبعيدة عن قريتها...لا بدّ أنّ حسناً الآن في العاشرة من عمره..لقد كبر وسيصبح شاباً عمّا قريب..هل يذهب إلى المدرسة؟ هل يأكل جيّداً..هل يمرض أيّام الشتاء الباردة؟ ألف سؤال يجول في خاطرها ثمّ يموت كمداً..

نظر إليها عابد طويلاً...كأنّه يستمدّ في حضرتها شيئاً من الصبر..هي شريكته في المأساة وحبيبته التي لم يفارقه طيفها طوال مدّة غيابها وحتّى عندما كان يهجع ليلاً بالقرب من زوجته..كانت حاضرة خافقة في باله مغرّدة على أوتار قلبه..ها هي تتدثّر بثوب الراهبات وتنظر إليه بلا حرارة ولا شفقة..ماذا ينتظر منها بعد أن حطّمها وخذلها وغرر بها؟

أصبح الحزن وكراً لها لا ملاذ منه..على شفير الهاوية تتعلّق بين الموت والموت فحياتها موتٌ لا هرب منه إلا بانتظار الموت الأبدي.

لم تدرِ بما تجيبه فلا تملك الآن إلّا الصمت.. ربّما كان من الأفضل لحسن أن لا يعرف الحقيقة حتى ينشأ في ظلّ أبوين شريفين يعلّمانه الشجاعة والحكمة والصبر فلا تتوغّل خطيئتهما في قلبه الصغير وتهشّمه.

نطقت أخيراً بعد دقيقة من الصمت المؤلم:

- ماذا تريد منّي أن أقول يا عابد؟ أنت لم تندم على ابننا إلّا بعد أن خسرته ولم يئن ضميرك إلّا بعد أن علمت بأنّ الوصول إليه هو شبه المحال..لا تقلق يا عابد..غداً تتزوّج من جديد وتنجب أطفالاً وتنسى حسناً الذي أودعته في فجرٍ شتائيٍّ عاصف في أحضان المجهول..ولم تدع لي مجالاً لأعترض أو حتّى لأفكّر..ستنسى فأنت لست عصيّاً على النسيان والنكران..لقد اعتقدتَ في قرارة نفسكَ بأنّك ستؤثّث حياتك بأطفال شرعيّين بعد أن ترمي الطفل النكرة حسب وصفك له..ولكنّ الله لم يجعل ضميرك مرتاحاً ولم يوفّر لك ما تمنّيت فعدتَ نادماً مستسلماً لأنين العذاب..

ازدادت نبرة صوتها تهكّماً وهي تنطق بجملتها الأخيرة.. وتصاعدت الدماء إلى وجهه حتّى كاد أن ينفجر..تخلّى فجأة عن هدوئه وانفجر في وجهها كالرعد القاصف:

- ماذا كنتِ تريدينني أن أفعل؟ ها؟..أن أعارض قبيلتي فنهلك سويّاً أو أتمرّد على أبي وأمّي وأعلن العصيان؟ كانت قصّة حبّنا مستحيلة يا ميرا ولكنّنا تشبّثنا بالخيال والتَهَمْنا الوهم فالتهَمَنا الواقع المرير..أتذكرين مذبحة زحلة؟ أنتِ تعلمينَ بأنّها كانت ستتكرّر لو رأت قصّتنا النور وعرف الناس

بالطفل..لم أكذب عندما قلت لكِ بأنّي لن أتزوّج غيرك فقد كان زواجي من شهب شكليّاً فقط ولم أقربها إلا من أجل الواجب لكنّ روحي كانت معكِ..وقد أحسّت بذلك فقالت لي ذات صباح:"أنتَ لا تعيش معي بل تعيش معها هي ولن أستطيع أن أقتلها من قلبك حتّى لو أردت هذا..فالطلاق أفضل حلٍّ لنا"..ميرا..أرجوكِ دعينا نذهب إلى طفلنا ونأخذه ونرحل بعيداً إلى حيث لا يعثر علينا أحد.. لم أعد آبه لشيء في الكون إلا أن أُرجع ابني وأربّيه في كنفنا..هيّا يا ميرا لا تضيّعي الوقت..لقد ندمت وجئتكِ متوسّلاً أطلب غفرانكِ..أتذكرينَ حبّنا؟ وكهفنا الصغير؟

قهقهت عالياً حتّى التفتت إليها راهبة كانت تمرّ قرب الردهة التي تجلس فيها معه.. لم يكفه أنّه أجهز عليها بل يأتيها اليوم باحثاً عن ثمّة رمق تبقّى لها حتّى يبدّدها مع الريح.. توقّفت فجأة عن الضحك ونظرت إليه بعينين صارمتين وقد كسا وجهها الجمود وقالت:

- أخرج من هنا حالاً وإيّاكَ أن تعود...وإن عدتَ ثانية فسأكلّف الراهبات بطردك..هيّا أغرب عن وجهي حالاً..

لم يستوعب ما قالته فضجّ به الصمت لثوانٍ ثم قال بصوت متقطّع:

- أنت تطردينني ولكن....

قاطعته بحزم وأمر:

- اخرج الآن قلتُ لك...

مضى متسربلاً بخيبته والقهر يندى من جبينه..عاد أدراجه إلى كفرسلوان ينوء بالقهر والألم.. ورجعت هي إلى صلواتها.. كانت تدعو لحسن الحبيب بأن

يحرسه الرب..وتبتهل لبطرس الذي لم تعرف مصيره بعد.. وتشتاق لمتّى الذي أنقذها من حبال الموت..ولأمّها التي شحّت زياراتها إليها فسبّب لها هذا قلقاً كبيراً حتّى علمت أنّ جدّتها قد ماتت بعد أن صارعت المرض طويلاً..جاءها الخبر مع رسول أرسلته أمّها إلى الدير لينبئها بذلك الخبر..

توجّهت معه لتوّها إلى زحلة كئيبة ساهمة.. لم تحب جدّتها يوماً ولكنّها كانت تعتبرها عامود العائلة الأساس..رغم قسوتها وحزمها كانت بمثابة السقف الذي يظلّل القصر..ها هي أمّها تصبح وحيدة في هذه الدنيا بعد أن قُتل زوجها في مذبحة زحلة وماتت أمّها وترهبنت ابنتها...

عانقت أمّها عندما وصلت وهي تبتلع دموعها وتغصّ بآهات الحزن القاتم..أحسّت بأنّها الآن كل ما تبقّى لها في هذه الدنيا الغريبة المتقلّبة..فهي أيضاً فقدت والدها وأضاعت ابنها حسن..

مضى شهر وهي تقبع إلى جوار أمّها وتحسّ بأنّها لا تقوى على العودة إلى الدير..لطالما أحبّت الرب وعشقت الحرية.. وفي الدير قوانين صارمة كرهتها وحاولت تفاديها ولم تفلح..وذكرى قتل ميّاسة تطاردها وتقض عليها مضجعها..هنا تنسى أو تتناسى..

قرّرت أن تذهب إلى بيروت لترى متّى..كان هو الشخص الوحيد الذي أفضت إليه بسرّها عن حسن..لم يكن قد علم بموت جدّتها بعد.

لم تلق نيّتها في زيارة متّى أيّ اعتراضٍ من أمها..فهي تعتبره جزءاً من المأساة التي حلّت بهم في الماضي..وتقدّر تضحيته بنفسه ذات يوم من أجل ابنتها..حتّى وإن لم تظهر هذا..فتركتها تذهب..

كانت المفاجأة كبيرة عندما رأت العم جرجس وهي تفتّش عن حوذي يقلّها..ولدهشتها كان يقف مبتسماً مثلما رأته في المرة الأولى وكأنّه يعلم بحضورها بل ينتظر مجيئها..مضت خمس سنوات على آخر لقاء بينهما..لكنّه لم يتغيّر.. الهيئة والهندام نفسهما وحتّى الابتسامة..

سدّد نحوها نظرات طيّبة حنونو، وكأنّه أب عثر على ابنته بعد طول فراق.. هتفت باسمه فرحة جذلى وقد تعرّف عليها على الفور..مضى يقول وهو مأخوذ مثلها بتلك المفاجأة:

- سيّدتي الراهبة الجميلة.. نعم تذكّرت..يا للصدفة الرائعة..

تكلّم كثيراً بعد أن صعدت إلى ظهر المركبة..أخبرها عن زوجته التي ماتت منذ أشهر وبقي وحيداً ففضّل أن يظلّ في زحلة ولا يتجوّل بعيداً لأنّ الحزن قد نال منه فاغتمّ غمّاً شديداّ..وخاصّة أنّ له منها ولدين.. شابّاً وفتاة..ورغم أنّ ابنته متزوّجة ولكنّها تزوره كثيراً مع أطفالها وتطيّب خاطره..ومع هذا يشعر بوحدة خارقة تهدّ كيانه..ثم غيّر الموضوع حتّى لا يؤلمها بحديثه وعرج بكلامه على المتصرّف الجديد فرانكو نصري باشا..لقد ألحق ابنه مع وفد الشباب الذين سافروا إلى أوروبا ليتمّوا تعليمهم هناك..وهذا الأمر بحدّ ذاته بعث الفخر في صوته الجهوري وهو يذكره..تمنّت أن تتحدّث إليه عمّا يجول ببالها..في المرّة الماضية أرادت البوح له ولكنّها لم تستطع فقد بتر لسانها كلامها خجلاً وخوفاً من ردّة فعل الرجل وسوء ظنّه به..مضت تقول ببطء ولكن بثبات:

- عم جرجس..أتذكر عندما أخبرتني عن أختك التي مضت إلى الدير لتدفن مأساة حبّها هناك؟ هل تعتقد بأنّي أشبهها في شيء؟ إنّي...في الحقيقة...إنّي أتعذّب كثيراً يا عم جرجس..هناك سرٌّ أخفيه لا يؤهّلني بأن أكون راهبة

وأشعر بأنّي أخدع الآخرين بهذا الثوب..وأخدع أوّلاً نفسي..نعم..أنا لست كما يعتقد الناس بي..أنا تائهة..نعم..تائهة..

صمت العم جرجس لدقيقة ليفسح الطريق لدموعها بأن تنسكب بحرّية وانعتاق..وتعود إليها أنفاسها المضطربة التي كانت تتلاحق بعد أن أتمّت كلامها..أخذ نفساً عميقاً ثمّ أجاب بمرح:

- هل تعرفين يا سيّدتي الصغيرة بأنّي كنتُ أفكّر بكِ بعض الأحيان منذ التقينا كلّما خطرت أختي على بالي؟ لقد قلتُ لكِ بأنّك تشبهينها كثيراً وعلى فكرة لقد كانت فائقة الجمال مثلكِ أيضاً..ما علينا..بالنسبة لسرّكِ فكلّنا خطّاؤون ولكنّنا أيضاً توّابون..لو لم توجد الخطيئة يا ابنتي لما وُجد الشر والخير معاً..فمن الشرّ تنبثق الخطيئة ثمّ تأتي التوبة خافضة جناحيها للمذنبين وتلك التوبة لا تأتي حتماً إلّا من بذور الخير..فهل رأيتِ مثلاً عاصفة هوجاء لفصل الشتاء تقتلع الحقول وتنتفض منها السواقي وتتجمّد وتهدم البيوت لا يعقبها ربيعٌ نضر يعيد الأمور إلى نصابها ويحيي الزرع ويبثّ الخير في كلّ مكان؟..طبعاً لا..إذن الهدوء يحلّ بعد العاصفة فاصبري..أمّا الدير فهو ليس المكان الأمثل للهروب..أنا واثق بأنّكِ إليه تهربين فقط لحاجتك للأمان..ولكن..أين الأمان؟ الأمان ليس فقط في الإيمان يا سيدتي الصغيرة..صحيحٌ أنّ الإيمان يملأ قلوبنا رحمة ويدفئها بدثار المحبّة..ولكنّه لا يستطيع أن يحجب أخطاءنا عن أنفسنا..فنحن من يجب أن نواجهها كما واجه المسيح الموت بأقدام ثابتة وأن نقف وجهاً لوجه مع آلامنا ولا نهرب منها..فكّري مليّاً يا سيّدتي الصغيرة..هل مكانك في الدير أم خارجه؟

كانت الجبال والحقول تتآلف في جنّة إلهية لم يُخلق لها مثيل والحصان يشقّ رمال الأرض متجّهاً بها نحو بيروت وهي تنصت إلى العم جرجس بلهفة وارتياح..لقد اطمأنّت إليه بكلّ جوارحها وأسعدها أن تلقي بجزء من آلامها المريرة على كتفه..هزّت له برأسها عندما أنهى كلامه ومضت في شرود عجيب..ولم يشأ أن يقطع حبل أفكارها فآثر الصمت...

لاحظت وهي تحدّق في البعيد بأنّ الأراضي الجرداء قد حرجت وزرعت حتّى تغيّر وجهها واخضرّ عود أشجارها..كان المتصرّف فرانكو نصري باشا مثلما قال العم جرجس يحاول أن يعود بالعمل المجدي على اللبنانيّين..لكن ما من أحد اعتبر نظام المتصرفيّة نظاماً دائماً أو داعياً للاستقرار..فكلّ غريب على أيِّ أرض مكروه ولو أحالها إلى فردوس خالد يحفل بالريحان والسلم.

ها هي بيروت تلوح من بعيد كآخر محطّة للطيور المهاجرة التي تأبى مغادرة أوطانها..ببيوتها وبحرها وصفاء شمسها..بكلّ شاردةٍ وواردةٍ في الأفق لأطماع المنافقين..تراها كالعروس الخجلى من وطأة فارسها الذي لم تره بعد..

ولم تجد صعوبة بمساعدة العم جرجس بأن تستدلّ على محل متّى الصغير في وسط الأسواق..وقرّر انتظارها ريثما تنتهي من الزيارة ليصحبها معه في رحلة العودة..جحظت عينا متّى بالدهشة عندما رآها..ارتمت في حضنه وبكت طويلاً..كانت تحتاج إلى من تلقي على كتفه أحمالها الثقيلة بالهموم وتستكين بين يديه..ولم يخب أملها فيه هو صديقها الذي افتداها بقلبه وجسده وعمره..حكت له عن هجرة أبي حسن من القرية وعن مقتل ميّاسة وعن الدير وهمومها فيه وعن جدّتها التي فقدتها وافتقدتها كثيراً مع أنّها لم تكن تحبّها...وجدت فيه أذناً صاغية حانية كالعادة ..وقلباً يشعّ بهجة لرؤياها...عاتبته لغيابه عنها فردّ بحزن:

- ميرا..حاولتُ أن أنساكِ حتّى أخفّف من وطأة الألم على نفسي المتخاذلة شوقاً إليكِ..وقد سحقني همّكِ وراعني أن يكون لك طفل وأنتِ بعيدة عنه تتألّمين بلا حول..وتناهت إلى سمعي أخبارك من أناس عرفتهم في رشميا مع غسّان الذي أراد خطبتكِ وانتزاعكِ من الدير وأيقنتُ بأنّك تتخبّطين في دوائر الضياع فتركتك لنفسك حتى تعودي إلى رشدك..ثمّ سمعت عن وفاة جدّتك وقرّرت أن أدعكِ لحزنك وأن لا أكون متطفّلاً عليكِ..

خفضت رأسها والغصّة في حلقها تكاد تحرق حنجرتها..إنّها أمامه عارية من نفسها يراها كما هي في حقيقة كاملة..لم يفهمها أحدٌ كما فهمها هو..ماذا سيقترح عليها من الحلول؟...أم تراه خالي الوفاض من أيّ حلٍّ خوفاً من أن تهدر كلماته بتشبّثها وعنادها؟..

جاءها صوته مرة ثانية يقول مبتسماً:

- لقد اقتربت من سنّ الثلاثين يا ميرا..لماذا لا تتزوّجين؟..

إنّه محق..هي تكبر بسرعة..الزمن يصطادها كالفريسة ..صديقتها راجحة ستصبح ربّما بعد بضع سنوات جدّة..الفتيات يتزوّجن باكراً جدّاً..هكذا جرت العادة.. صدرت منها آهة احتجاج وردّت بغضب:

- كيف أتزوّج وأنا راهبة يا متّى؟...

ابتسم وقال وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- أنتِ لستِ راهبة يا ميرا.. أنتِ اعتنقتِ حياة التنسّك حتى تهربين من ألمك وماضيكِ..أنا أعرف بأنكِ إنسانة مؤمنة جداً في أعماق روحكِ ولكنّكِ لم تخلقي لتكوني راهبة..

خفق قلبها لكلماته التي ذكّرتها بكلمات الحوذي عم جرجس..أحقّاً ما يقوله الإثنان؟ ليتها تدري..الأمواج في داخلها تصطخبُ بارتباك وألم..

عاد متّى يسألها عن حسن..هل سعت إليه ثانية؟؟ أخبرته عن زيارة عابد لها وما اقترحه عليها فاستشاط غضباً..واعترف لها بأنّه ذهب إليه في قريته ليواجهه بما اقترف..صرخت في تعجّب:

- أحقّاً ؟...أحقّاً ذهبتَ إليه يا متّى؟؟ كيف؟؟ ألم تعدني بأن.....

قاطعها بحزم:

- لم أعدكِ بشيء إلا الكتمان ولكن كان يجب للوغد أن ينال ما يستحقّ من عقاب..

سألت بخوف والاضطراب بادٍ على ملامحها:

- و..بماذا أجابكَ؟...

مضى يضحك وهو يقصّ عليها تفاصيل ما حدث بينهما:

- عندما كنت ماضياً إليه تذكّرت المرة الأولى التي أرسلتني فيها إليه بعد أن عرضت عليك ذلك ووافقتِ وكنت أتحرّق شوقاً أن أطمئنك عنه..فزاد هذا من غضبي..هل يعقل أن يهدر كلّ هذا الحب من أجل أنانيته؟ وعندما وصلت إليه حملقتُ به ولم أعرفه أوّل الأمر..كان الشيب قد كلّل مفرقه مع أنّه ما زال شابّاً في مقتبل العمر..وقد دُهش عندما رآني وأنبأني بأنّه زاركِ في الدير منذ أيّام وأنكِ قمتِ بطرده وطبعاً لم يذكر السبب فقلت له إنّني أعرف السبب. وعندما واجهته بما أعرفه، شحب لونه وغرق في صمت طويل فما كان منّي إلا أن وجهتُ له لطمة قوية اختلّ منها توازنه وسقط

أرضاً..وطبعاً لم يجرؤ أن يضربني لأنّه خاف أن يلتمّ الناس من حولنا فتتكشّف الحقائق ويُفضح أمر الوغد..فهل تعرفين ماذا فعل؟ لقد قام من فوره وهرول راكضاً بعيداً عنّي وكلماته تصل إلى مسامعي من بعيد يرجوني فيها أن أحفظ السر لأنّه مقبل على خطوبة جديدة من إحدى فتيات القرية بعد طلاقه من زوجته..

صاحت بدهشة وهي تشعر بأنّ حلقها يكاد يجفّ من الألم:

- كيف؟ كيف هذا؟ لقد قال لي عندما زارني في الدير بأنّه يرغب في الرجوع إليّ وأنّه يتضوّر شوقاً لاستعادة ابننا..

قاطعها مقطّباً حاجبيه وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- وهل تصدّقينه يا ميرا؟ هذا الوغد الذي خطف منكِ قلبكِ وسعادتكِ وابنكِ؟ هل تثقين بكلامه وقد آلمكِ أشدّ الإيلام؟ أنتِ فتاة طيّبة..طيّبة جدّاً..أنتما تشبهان الذئب والنعجة..

ابتسمت بأسى وردّت بسخرية:

- أثق به؟ هل تعتقد بأنّني فعلاً أثق به؟ لو أنّي أكنّ له هذه الثقة لما طردته من الدير ولكنّي خلتُ بأنّ ضميره تحرّك اتجاه ابنه بعد مضيّ عشر سنوات..آه يا متّى كم كنتُ مخدوعة به..

سالت دمعة حارقة على خدّها فمسحها لها وضمّها بعفوية إلى صدره..كانت المرة الأولى التي تجدُ نفسها بين أحضانه ولكنّها كانت مستكينة هادئة تشعر بالطمأنينة تتغلغل في أعماقها وهي معه..وراودتها رعشة تسلّلت إلى دماغها ثمّ انتقلت إلى نياط قلبها تهزّه هزّاً عنيفاً..تساءلت بتردّد لِمَ تشعر بمثل هذا الشعور

لأوّل مرّة وهي معه؟ ألأنّه حضنها؟ أو لأنّها انتزعت من رأسها في تلك اللحظة فكرة تأصّلت في ذهنها عن أصله كفلّاح بسيط تقوم بينهما حدودٌ وأسوارٌ عالية فتعاملت معه على أنّه رجل..إنسان رجل..قبل أن يكون فلّاحاً عمل في أراضيهم مع أبيه وعائلته مُحتَقَراً من جدّتها وأبيها؟

أحسَّ بأنفاسها الساخنة تندفع حارّة على خدّه وهو يضمّها إليه وربّما قرأ ما يجول في خاطرها فابتسم وقال مداعباً:

- نسيتُ نفسي يا سيّدتي فاعذريني..لقد تغلّبت لهفتي على حسن التأدّب في حضرة الأكابر فاغفري لي..

مضى الوقتُ بينهما سريعاً مرحاً..لم تشعر بأنّها سعيدة كما شعرت في ذلك اليوم وهي معه..إنّ السعادة تنبع من داخل المرء وليس من الخارج أي من محيطه..فمهما تكن إغراءات الخارج والمظاهر السعيدة من حوله لن يتذوّق سعادته إن لم تتدفّق من أعماقه لتخرج وتعمّ الآخرين..

اصطحبها إلى البحر في مركبة العم جرجس بعد أن عرّفته عليه..كانت تتوق حنيناً لرؤية البحر في بيروت..وتذوب شوقاً إليه..لقد كتبت خواطر عنه وعن جمال موجه وعلوّ هامته..

وفي طريقهما وهما يتمشّيان على الرمال كانت أيديهما متشابكة عن غير قصد وكأنّها كانت كذلك منذ الأزل..وكان العم جرجس يرقبهما من بعيد باسماً وهو يهزّ برأسه مطمئنّاً..

تناولا السمك الذي طهته لهما أمُّ متّى في داره الصغير المرّتب حتّى العم جرجس دُعي معها للغداء..وضحكت كما لم تضحك من قبل..انتهى اليوم سريعاً..وودّعت متّى وأمّه بحبٍّ كبير..همس لها متّى وهو يشدّ على يدها:

- فكّري جيّداً..هل حقّاً تريدين العودة إلى الدير؟

تسارع نبض قلبها وهي تبتعد عن بيروت وعم جرجس يناغي حصانه وهو يقوده في طريقه للجبل..لقد سكنت لزيارة متّى وانشرح صدرها ولكنّ الدير يناديها ويشدّها إليه وبغتة قالت لعم جرجس بصوت خفيض:

- عم جرجس أريد أن أعود إلى الدير..خذني إلى هناك..

لقد حان وقت العودة وانتهت فترة حدادها على جدّتها وهي لا تريد أن تستثير غضب الأخت زلفا إن تأخّرت عن موعد عودتها أكثر..حاول العم جرجس ثنيها عن قرارها ولكنّها أصرّت..هي راهبة نذرت نفسها للتقوى والرب فكيف لها أن تتراجع عن كلّ هذا في لحظة خذلان وحبٍّ للحياة؟ فكأنّ الساعات التي قضتها في بيروت هانئة ساكنة أقلقت روحها وشعرت بأنّها عبّت من الحياة فوق ما تستحق وأكثر ممّا قُدّر لها فاعتراها الندم المخزي..

طلبت من عم جرجس بعد أن نقدته أجره أن يعود إلى زحلة ويبلغ أمها بأن ترسل إليها أغراضها..ومضت إلى الدير وكأنّها لم تغادره واستقبلتها الراهبات بابتسامة هادئة.. لقد اعتدن كثيراً على خروجها وعودتها، حتّى لم تعد أيٌّ منهنّ تستغرب الأمر..ودخلت غرفة الأخت زلفا فنهضت من كرسيّها لتعزّيها بلهفة وحب..فقبّلت يدها وغالبتها دموعها وهي تلمس كلّ هذا الاهتمام والعطف ويغشى قلبها الندم على الأفكار السوداء التي حثّتها سابقاً بأن تترك الدير وتعود إلى حياتها..

هذه هي قصّتها..هي ميرا شاور الفتاة الّتي نشأت في حياة العزّ والجاه وانتهت راهبة على درب الخطيئة تحاول أن تنتزع عنقها من قبضتها ولكنّها لا تلبث أن تطبق عليها لتتبخّر أنفاسها متقطّعة سريعة..

من يصدّق توبتها؟ هي نفسها لا تصدّقها رغم استبسالها لأن تنشل نفسها من مستنقع الرذيلة وتسلك درب الله..وهي على ثقة بأنّه لن يقبل توبتها بعد كلّ ما جنته يداها..وغداً يمرّ المتصوّفون والمصلّون على دير مار أنطونيوس الكبير وتتشنّج أقدامهم وهي تقترب من ضريحها إن دُفنت هناك لتتهامس أفواههم باسمها وهم يتساءلون عن سرّ تلك الراهبة الّتي ظلّت معلّقة بين الأرض والسماء..بين الخطيئة والفضيلة..لها قدمٌ في الدير وقدمٌ في الدنيا..فما أتعسها حيّة كانت أم ميتة..وحسن؟...ماذا عساه سيقول إن عرف يوماً؟...

الفصل الأخير

استفاقت من ذكرياتها وهي تحدّق عبر النافذة وتسمع طرق المطر الخفيف على بلّورها يتأرجح دامعاً وخافقاً كالسحر..ها قد أفرغت ذكرياتها في عبِّ السماء علّها تطهّر روحها التي أرهقها الحزن وجسدها الذي دنّسه العار..إنّه عام 1876 وقد مرّت خمس سنوات أخرى منذ عودتها الأخيرة من زيارة متّى في بيروت..ولم يزرها بعد أن علم من أمّها باعتزالها مجدّداً في الدير..تركها لقرارها تصارع نفسها وتهرب من خطيئتها التي هدّتها..هي الآن امرأة تجاوزت الرابعة والثلاثين من عمرها وطفلها حسن قد بلغ الخامسة عشرة..لقد أصبح فتى يانعاً فتيّاً..كم تودّ أن تراه..أن تلمسه بكلّ جوارحها وأن تركع عند قدميه وتذرف الدمع وتتوسّل إليه بأن يغفر لها..

لم يتغيّر شيء منذ عادت من بيروت مع العم جرجس في زيارتها لمتّى..فقط علمت من أمّها بأنّ عابداً قد زارها في زحلة، وأنّه تزوّج مجدّداً ولكنّ زوجته ماتت وهي تضع مولودهما الأول..وأنّه هو نفسه يعاني مرض السلّ وقد عاد أطبّاء كثيرين في بيروت من دون جدوى..ها هو الله ينزل عقابه به وبها على حدّ سواء..هي معتكفة على آلام لا تُحتمل تضمرها روحها المستعرة بنار الجحيم

وهو انضوى تحت لواء المرض والشقاء الجسدي..كلاهما يتعذّب وكلاهما يموت ببطء..ولكنّ الموت يختلف بأشكاله عند كلٍّ منهما..

ولمّحت لها أمّها وهي تزورها في هذا الصباح الزمرديّ العابق بعطر الصيف المقبل وراء شمس أشرقت بنورها الساطع بأنّها عليلة..لقد داهمها المرض أيضاً وعانت منه طويلاً ولكنّها أخفت الأمر عنها كي لا تقلقها.. وقد تسرّب إليها خبر نفي بطرس إلى خارج لبنان لاتّهامه بالتحريض على الثورة وبزرع الفتنة بين نفوس اللبنانيّين..تهمة دنيئة لرجل شريف حاول أن ينهض بوطنه إلى عهد جديد..نُفي بطرس ولم تلحق به أمّها في منفاه...فضّلت أن تعيش على ذكريات حبٍّ مستحيل يجرّها إلى الماضي بكلّ جوارحها..

نظرت إلى أمّها وقالت لها بهدوء والشفقة تأخذ بمجامع قلبها:

- أمّي ..أنا أعرف أنّكِ أنتِ المرأة التي أحبّها بطرس..أعرف هذا منذ مدّة طويلة...منذ خمسة عشر عاماً..يوم المذبحة في زحلة أتذكرين؟ عندما جاءك ليحذّرك من شقاق الفلّاحين..سمعتُ كلّ شيء..لقد كنتِ الفتاة التي أُهين بسببها وتخلّت عنه بعد كلِّ ما قاساه من أجلها..

بدا لها أنّ وجه أمّها قد غزاه اصفرارٌ مفاجئ وأنّ الأرض تميد بها واعترتها رجفة غريبة فأسرعت تطمئنها قائلة بعطف كبير:

- لا بأس يا أمي إنّه الماضي وأنا لا ألومكِ...أنا فقط أسري عنكِ..لقد علمتُ بأنّ بطرساً قد نُفي إلى خارج لبنان لكن هناك سؤالٌ واحدٌ يَشغل بالي ويقض مضجعي...لقد ترامى إلى مسمعي الكثير من الثرثرات حول علاقتكما ..ولا أدري هل كنتِ تحبّين أبي فعلاً أم إنّك كنتِ تخدعينه؟

حدجتها أمّها بنظرة لاذعة احترق لها قلبها وصرخت في وجهها:

- أتشكّين في إخلاصي لأبيكِ الذي ذُبح غدراً يا ميرا؟..هل ساورك الشكّ بحبّي له بسبب أقاويل وإشاعات باطلة يدحضها الواقع والضمير الحي؟ كيف تجرّأتِ على اتّهام أقرب إنسانة لديكِ وهي أمّكِ يا ميرا الصغيرة..هكذا كان يناديك أبوك أتذكرين؟وهو من روى لك القصص وعلّمكِ وثقّفكِ..هل أنا بالنسبة لكِ أمٌ خاطئة يا ابنتي.

لم تتمالك نفسها عندئذ وهبّت واقفة وهي تصرخ في وجه أمّها:

- ولكنّي أخطأت..لقد أحببتُ من غير ديني ووقعتُ في أتون الخطيئة..وأكثر من هذا لقد أنجبتُ منه يا أمّي..هل تعلمين بأنّ لديكِ حفيداً اسمه حسن؟ وهو يعيش في قرية بعيدة مع أب وأمّ له بالتبنّي وهما مسلمان؟..وأنتِ تُدهشين عندما أشكّ بنسبي؟ أليس جائزاً بأن تكون البنت نسخة طبق الأصل عن أمّها؟ في حياتكِ أسرارٌ عنوانها بطرس وفي حياتي عارٌ اسمه عابد..لقد أتاكِ شاكياً من مرضِ السلّ وقد أذاقني الموت حدّ الثمالة عندما انتزع مني طفلي..نعم..نعم يا أمّي..لا تحدّقي بي هكذا..إنّها الحقيقة وأنا لا أهذي ولم أجن بعد..أصبح عمره الآن خمسة عشر عاماً..تصوّري كم أبعدوني عنه..متّى وحده يعرف السر ويتكتّم عليه..آه كم أئنُّ وحيدة يا أمّي..أرجوكِ أخبري أعمام أبي حتّى يقتلوني وينفّذوا بي حكم الإعدام الذي أستحقّه عن جدارة..هيّا يا أمّي..لقد سعيتُ إلى الموت مراراً ولم أفلح..لم أفلح..لم أفلح..فساعديني كي أموتَ بجدارة..

انهارت على كرسيّها وارتمت برأسها واضعة يديها على الطاولة الخشبية التي تفصلها عن أمّها وأجهشت ببكاء مرير..ها قد باحت بالسرّ الذي يجثم على

صدرها لأمّها كما يقرّ المجرم في آخر المطاف بجريمته النكراء عندما يثقل ضميره فيدفعه الندم إلى حبل المشنقة بقدميه..وقد رأت عيني أمّها جاحظتين بانبهار أليم كأنّها تحتضر.

ولدهشتها تقدّمت أمّها بحذر منها وربتت بيدها على كتفها ثمّ غادرتها صامتة..لم تصفعها كما توقّعت..لم تصرخ بها وتلعنها..لم تصدر عليها حكم الإعدام..ربّما ظنّتها مجنونة مختلّة العقل فابتعدت عنها..

عادت إلى غرفتها وهي تجهش ببكاء مسموع..لم تدرِ إن وقعت الطّامة الكبرى وسمعتها الراهبات وهي في قمّة ثورتها وجنونها؟ وهل أبلغن الأخت زلفا؟ احتشدت فجأة تلك الأسئلة في رأسها حتّى كادت تخرقه كالرّصاص..وبلغ منها العياء أقصاه فشعرت بألم يمزّق جسدها وارتمت على الأرض تئنّ بصوتٍ خافتٍ عميق..كيف أخرجت السرّ المدفون من خزائن الذاكرة وأطلعت أمّها عليه فنفذ إلى قلبها كالخنجر القاتل؟ ها قد قضت على أمّها المسكينة وانتهى الأمر..

لبثت في فراشها أسبوعين..لا تخرج حتّى للصلاة ولا تكاد ترى أحداً باستثناء الأخت زلفا التي تدخل عليها بنفسها بالطعام وتشدّد عليها بأن تتناول شيئاً منه..وتسامرها برقّة وصبر..

وفي ليلة دخلت غرفتها لتسلّمها من أمّها رسالة مختصرة تبدأ بالسلام المألوف ثمّ تنبئها بأنّها علمت من جماعة من كفرسلوان بأنّ عابداً قد مات..قضى عليه السلّ بعد صراع عنيف وعذاب مرير..مات عابد إذن..الرجل الذي أحبّته وخذلها والذي آمن بثورة بطرس ولكنّه فشل بأن يحذو حذوها فاعتراه الجبن القاتل وعاش يدسّ كذبته بين أكوام التجاهل القاتل.

مات وهو يرشح دماً ودموعه تفيض حسرة وندماً.. وقد بكت عليه بالرغم من كلّ ما حدث بينهما..بكت كثيراً وهي تنظر إلى البعيد لتستعيد كلّ ما جرى بينهما...بدءاً من الكهف وبطولة بطرس التي جذبتهما للحديث إلى بعضهما بعضاً والحبّ الذي دغدغ قلبيهما وحسن الذي وُلد ضحيّة هذا الحبّ المُنكر في زمنهما إلى لحظة الوداع التي لم تشهدها له..ولكنّها واثقة بأنّه رحل بصمت وثبات فقد كان يتعجّل الموت نادماً واهناً..

لم يترك ولداً إلّا حسناً الذي لم يعترف به..فهل تراه فكّر فيه في لحظاته الأخيرة؟ إنّ الأنفاس الأخيرة في روح الإنسان هي أهمّ ما يتردّد في صدره وتلهج بها رئتاه لأنّها تستحضر كلّ ماضيه في شريط سريع ينتهي في المشهد الأخير بتصفيق حار من القدر الذي شهد على نهاية المسرحيّة..

"عابد..لم تأخذ معك شيئاً إلّا الندم..فلماذا أفرطت بابنكَ وأنكرته حتى نقطة النهاية؟ لقد كان بوسعك أن تخطفه أو تقرّ للناس بالحقيقة لكنّك كنت أجبن من أن تفعل هذا ومتّ بحسرتكَ ومرضكَ وسألحق بكَ لا محال..القبرُ دفن حبّنا قبل أن يدفن جسدك وأحاله إلى كومة عظام بالية..ولحقتَ به وتركتني كعهدك دائماً تترك أجمل الأشياء للنسيان المرير".

لم تنم تلك الليلة أو لعلّها غفت على دمعة سخيّة سجنتها أهدابها الثكلى..في الصباح الباكر سمعت طرقاً خفيفاً على الباب..دخلت الأخت زلفا مبتسمة والحنان يقطر من قسمات وجهها..لطالما أحبّتها واطمأنّت إليها..

- الأخت ميرا..هناك ضيوف من أقاربك بانتظارك في الخارج ويلحّون على رؤيتك فهل أدخلهم؟..

أومأت برأسها موافقة في حيرة..من تراه يزورها في مثل هذه الساعة المبكرة؟ دخلت أمّها أوّلاً ثمّ متّى بقامته الطويلة ومن ورائه أطلّ فتى يانع لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة، ينظر إليها باهتمام غريب وإشفاق عجيب...يلوح على بشرته البيضاء اسمرارٌ خفيف من وهج الشمس..جسده نحيفٌ وشعره أسود منسدل على جبينه..ونظراته ثاقبة.. نعم إنّها تذكر تلك النظرات..عندما رمقها بها وهو طفلٌ صغيرٌ في الخامسة من عمره لمّا نادته من أعماقها بحنانِ أمٍّ حُرمت من فلذة كبدها..إنّه هو..هو بعينه..هل تحلم؟ فركت عينيها ورأته ثانية..

صرخت من توّها وهي لا تكاد تقوى على الكلام:"حسن..أنت حسن..ابني "

ركض إليها لتضمّه بقوّة لم تُخلق إلا للأمّ الملهوفة على ولدها...عاد حسن...عاد أخيراً..أقبلت عليه لتنهل من حنانه.. قبّلته في كلّ أنحاء جسده وهي تضحك وتبكي في آن معاً..أمسكت بيديه تمسّهما كأنّها تصلّي في محراب الأمومة التي حُرمت منها طويلاً..تنشّقت رائحته..بلّلته بدموع الصبر القاتل..

كان أوّل من تكلّم هو متّى...قال لها ودمعةٌ تلوح في عينه:

- هيّا نخرج من الدير يا ميرا.. سنعيش سويّاً في بيروت..أنا وأنتِ وأمّكِ وحسن ..لقد أخبرت حسن بالحقيقة..وقرّر أن يعيش معنا على أن يظلّ على تواصل مع أهله بالتبنّي..فهل تقبلين بي زوجاً لكِ يا ميرا مع هديّة جميلة وهي قطعة قماش بيروتية؟..

ضحك الجميع من كلامه وقد أعادت كلمة قطعة القماش البيروتية ذكرى مقيتة باتت اليوم ذكرى محبّبة إلى قلوبهم..

هزّت رأسها موافقة بحماس..لقد عرفت الآن أنّها تحبّ متّى.. بل إنّها لم تحب أحداً سواه وهي تريد أن تخرج من هنا من دون أن تضيع مزيداً من الوقت الّذي أضاعته في السابق بعيداً عن ابنها..إنّها تؤمن بالرب وتعشقه ولكنّها لم تُخلق لتكون راهبة..لقد وُجدت لتكون أمّاً..نعم أمّاً لحسن..

دخلت الأخت زلفا الغرفة واقتربت منها وهمست:

- لا تقلقي يا ميرا..لقد عرفتُ كلّ شيء من متّى..هيّا اخرجي للحياة يا ابنتي.. ستظلّين في عيون الرب جميلة طاهرة ولكن..حان الوقت لكي تتّخذي القرار الصحيح..وتضمّي ابنك تحت جناحيكِ..

أحسّت وهي تخرج من الدير وأنفاس الصبح تلفح وجهها وحسن يتشبّث بذراعها كالغريق الذي وجد أخيراً برّ الأمان ومتّى يعانقها بعينين دافئتين وأمّها تبتسم بحنانٍ خارق ومن بعيد يلوح العم جرجس منتظراً بعربته الجميلة بأنّ الله يحرسها بأطياف من ملائكته وبأنّ الثورة الحقيقية على حكم الإقطاع والطائفية والظلم لم تنتهِ بنفي بطرس بل بدأت اليوم من خلالهما هي ومتّى حيث سيشهد التاريخ بأنّ ابنة القصور قد تزوّجت من فلّاح لا ذنب له سوى أنّه أحبّها بكلّ جوارحه ودافع عنها حتّى الموت محتضناً روحها وجروحها..فغرق الاثنان في طاحون الحياة حتّى جمعهما القدر من جديد..وعرفت بأنّ الله واحد لا يتغيّر وجهه بتغيّر الأديان..ولم تعطها الشمس ظهرها كما اعتقدت عندما كانت تجوب الحقول وحيدة تجرّ همّها ظالماً كالليل..بل عادت تشرق في وجهها بابتسامة تشبه ابتسامة حسن..

-تمت-